الجانب الإسلامي

في أدب

مصطفى صادق الرافعي

الجانب الإسلامي

في أدب مصطفى صادق الرافعي

عبد الستار علي السطوحي

مكتبة الثقافة
قطر

الطبعة الأولى : ١٣٩١ هـ – ١٩٧١ م
الطبعة الثانية : ١٣٩٥ هـ – ١٩٧٥ م

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

الى من أرى فيها نموذجاً حياً للأمومة المسلمة في إيمانها وصبرها ومثلاً رائعا للأمومة العربية في كبرياء روحها وإباء نفسها .

إلى مَنْ علمتنا منذ طفولتنا تقديس المعنى الديني وحب الخير وبغض الظلم.

إلى من مدتنا بكل الطاقات الروحية والمادية ونحن في ميادين العلم والتعلم

إلى أمي المؤمنة المسلمة أهدي هذا الجهد المتواضع من الأدب الديني براً بها ووفاء لها في دنياها وآخرتها .

ابنك الوفي
عبد الستار علي السطوحي

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة الناشر

درجت « مكتبة الثقافة » في « الدوحة » على اثراء المكتبة العربية ، بين الفينة والأخرى ، بروائع الكتب التي تساعد الشباب والطلاب في تفهم دينهم وتقوية لغتهم وتشذيب أخلاقهم ..

ويشجعها في هذا المضمار انها تجد التجاوب الكبير من القراء الكرام . فما إن صدرت الطبعة الأولى من كتاب « الجانب الإسلامي في أدب الرافعي » لفضيلة الأستاذ المؤمن « عبد الستار السطوحي » حتى تلقفتها أيدي القراء ، وتقبلها الأساتذة والطلاب بقبول حسن على حد سواء . فنفدت نسخ الكتاب بسرعة من الأسواق ، ولم تسمح الظروف بإعادة الطبع عند النفاد .

واليوم ونحن نقدم الطبعة الثانية ربما كان أفضل اعتذار نقدمه للقراء الكرام ، عن هذا التأخير غير المقصود ، هو التعديلات التي أدخلها الأستاذ المؤلف على هذه الطبعة وتزيين الكتاب بمقدمة للإمام الأكبر شيخ الجامع الأزهر فضيلة الدكتور « عبد الحليم محمود » أدامه الله ذخراً للإسلام ومناراً يهتدى به في دياجير الظلام.

ولا يفوتنا أن نخص بالذكر والثناء، فضيلة الدكتور «عبد المنعم النمر» مدير إدارة البعثات بالأزهر، العالم الأديب المؤمن الذي لا يدخر وسعاً في تشجيع الثقافة، والعمل على تسليح الشباب بالايمان والفضيلة والأخلاق، والذي تفضل بتقديم الكتاب بكلمة رائعة تنطق بفضله وعلمه وأدبه.

نسأل الله أن يجعل عملنا خالصاً لوجهه ويوفقنا لخدمة دينه والمسلمين أجمعين

مكتبة الثقافة

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة عن الطبعة الثانية

« للجانب الاسلامي في أدب الرافعي »

بقلم : عبد الستار علي السطوحي

شكراً لله سبحانه على ما أولانا من نعمة الإسلام العظمى ، وعلى ما هدانا اليه من تفقه أسرار لغة قرآنه الفصحى ، وصلاة وسلاماً على مَنْ أرسله الله رحمة للعالمين ، سيّدنا محمد وعلى آله وصحبه التابعين ...

وبعد ، فهذه « الطبعة الثانية لكتابي – الجانب الإسلامي في أدب الرافعي » أقدمه لقراء الفكر الإسلامي بخاصة والأدب العربي الرصين بعامة ، أقدمها منقحة من بعض فصول « الطبعة الاولى » ومزيدة بباب سادس بعنوان « الموت والحياة ومعاني القبر في أدب الرافعي » ، وهو باب جوهري له أبعاده النفسية والروحية لكل مؤمن يريد زاداً شافياً لمعاني دنياه وآخرته ، ولقد دعاني لتذييل الطبعة الثانية به أمران : أولها ما للرافعي الأديب المؤمن من قوة روحية وبلاغة

تصويرية استطاع بها التحليق في هـذا المعنى الدقيق من فلسفة الحياة والموت ومعاني القبر ، وثانيها هـذه التجربة النفسية القاسية التي عشتها مع الصديق الراحل « عبدالجواد أبو النجا » الذي قضى بعيداً عن وطنه وأهله وثوى في ثرى « مكة المكرمة » .

فلقد عشت معه العمر الطويل في الأزهر ودار العلوم عن كثب ثم في التدريس عشرين عاماً في مصر والسعودية ، وتجرّعتُ التجربة المريرة بجواره وهو يحتضر ساعات طويلة ومن حوله أطفال خمسة بوجوههم اليتيمة وعيونهم الباكية . . .

هذا ومما تجدر الإشارة اليه التنويه بسرعة نفاد « الطبعة الاولى » ، وهـذا إنما يدل على مدى ما تعيشه أمتنا العربية المسلمة في أيامنـا تلك من آيات التطور في البعث الإسلامي .

فالتفاف شبابنا المتأدب المسلم حول « أدب الرافعي » هو بدوره عنوان عريض ومقياس صادق للصحة النفسية في محيط ثقافتنا الإسلامية الواعية الحيّة ، وملامح لفجر جديد بدّد نوره ظلام ثقافة رخيصة كان يعبّ من تيارها المسموم الكثير من أبنائنا من قبل . . .

« أصداء الطبعة الاولى »

وما كاد كتابي هذا يحمل عنوانه جانباً إسلامياً في أدب كاتب إسلامي مؤمن يعرفه جيداً هـذا الجيل الذي عاصر قضية « القديم والجديد في الأدب والتراث والعادات والتقاليد » حتى وجد قلوباً مؤمنة ببعث تراثنا العربي والإسلامي .

ففي « المملكة العربية السعودية » قدمتْ له إذاعة جدة في شوال ١٣٩٢ هـ حلقات في برنامج « كاتب وكتاب » الذي قدمه الدكتور الأديب — عبد الصبور مرزوق — الاستاذ بجامعة الملك عبد العزيز. وعلى ضفاف النيل حرص المشرفون على إدارة المكتبات بوزارة التربية والتعليم على ضمه لقائمة الكتب الثقافية بالمراحل الثانوية كلها (بالقرار رقم ٦٧ القائمة الثانية لعام ١٩٧٢ م) .

كما شاهدنا بأنفسنا حفاوة وتكريماً لأدب الرافعي في إذاعة الرياض وعلى ضفاف بردى ودجلة والفرات ، لأن أدبه يمثل التطور الإسلامي في أجلى صوره وأبلغ آياته .

وإن كان هذا الأدب الإسلامي المشرق قد حجبته في طيّات ضبابها بعضُ الظروف المؤلمة التي عاشتها أمتنا قبلاً والتي قد استهدفنا في سياقها لحرب ضروس في تراثنا الخالد ، فلقد آن الأوان بعد أن تكشف كنوز هذا التراث « والله غالب على أمره » .

ولقد كان من يمن الطالع لهذه الطبعة من « كتابي هذا » أن نحظى بمقدمة لفضيلة الإمام الأكبر والشيخ الورع الفيلسوف المسلم « الدكتور عبدالحليم محمود » شيخ الجامع الأزهر ، والذي اتسم تاريخه المشرق بالغيرة على الإسلام والذود عن حياضه .

كما لا يفوتني الشكر الوافر لكل من أسهموا بجهودهم الطيبة في نشر الطبعة الاولى ، وأخص بمزيد الثناء ، فضيلة أستاذي « الدكتور عبد المنعم النمر » الذي دبّج « الطبعة الاولى » بمقدمته الغرّاء .

كذلك الأخ المسلم المفضال « سالم الأنصاري » صاحب مكتبة الثقافة بدولة قطر الحبيبة .

كما أسأل الله العليّ القدير من فضله أن يوفق المسؤولين على تربية هذا الجيل من فلذاتنا في الوطن العربي والإسلامي كلّه ، على هذه القيم الإنسانية والمثل الإسلامية التي ينبض بها هذا الأدب الإسلامي الهادف ، وهو سبحانه وتعالى وليُّ التوفيق .

عبد الستار علي السطوحي

المملكة العربية السعودية — جدة — الشاطىء الثانوية

المحرم ١٣٩٥ هـ — يناير (كانون الثاني) ١٩٧٥م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

للجانب الاسلامي في أدب مصطفى صادق الرافعي

بقـــلم

الامام الأكبر فضيلة الدكتور عبد الحليم محمود

شيخ الجامع الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين حمداً يوافي نعمه ويكافىء مزيده والصلاة والسلام على سيدنا محمد الحبيب الشفيع الرؤوف الرحيم وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً .

وبعد ...

فإن الجانب الإسلامي في الأدب بعامة له شأنه وخطره في وقت درج فيه كثير من أبنـــاء الجيل على فهم الأدب بأنه نوع من التفكه والترفيه عن النفس الانسانية المغمورة في خضم الحياة ومشاكلها . يضاف إلى ذلك ما دخل على أبناء الأمة الإسلامية من آداب شرقية أو غربية جاءت من كل حدب وصوب لتجعل

من الفضيلة ألعوبة وسخرية يتغنى بها من لا يعرف قدرها فضلاً عن الدفاع عنها!

دخلت هذه الآداب المتنوعة لتسدل الستار على الفضيلة بشتى الوسائل حتى تحيا الرذائل والموبقات ، وتموت العقول النضرة التي خلقها الله حتى يميز الانسان الخبيث من الطيب ويسلك سبيل السعادة في الدنيـــا والآخرة مستعيناً بالله ومستهدياً بتعاليمه . وقد أدرك هذا فلاسفة الاسلام وأدباؤه والعاملون من علمائه فسخروا أنفسهم لابراز الجانب الاسلامي في آداب الإسلام معتمدين في ذلك على الكتاب الكريم والسنة النبوية الشريفة ومحاسن آثار السلف الصالح ، وكان كل ذلك من أجل أن تستقيم الأمور وترتسم الصورة الحقيقية للإسلام في نفوس أبنائه عن طريق سهل وفي ثوب أدبي لطيف يدرك المسلمون عن طريقه محاسن الإسلام وميزاته التي جعلت من أُمة الاسلام حكاماً على الأرض لا بالاكراه والاجبار ولكن بالحب والاختيار للملة السمحة التي اختارها الله لأمة هي خير أُمة أُخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله ورسوله ﷺ إيماناً كاملاً يتمثل في إقامة حدوده وتنفيذ تعاليمه حتى يتحقق الايمان والاسلام قولاً وعملاً وروحاً حقيقة تسري بين أتباعه لجمعهم على كلمة سواء هي: لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ .

ولقد كان الرافعي من هؤلاء النفر الذين ارتضوا لأنفسهم أن يكونوا من جنود الاسلام المدافعين عنه وعن تراثه الخالد وهو العالم الكبير والأديب الفذ الذي منّ الله عليه فارتضع من رحيق العربية العذب فجاءت كتاباته عن الاسلام من القرآن وللقرآن ومن السنة النبوية الشريفة وللسنة النبوية الشريفة ، فجاءت قوية الأسلوب مشرقة الديباجة تحوطها روح القرآن ونفحات السنة وأنوارها وبلاغة الفصحى بكل ما في الكلمة من معنى . جاءت هذه الكتابات دفاعاً عن العربيـــة في أرفع أساليبها والمتجلية في القرآن الكريم والسنة المطهرة والآثار الخالدة في أدب العربية الواسع .

وكانت كتبه الكثيرة ومنها – تحت راية القرآن – وإعجاز القرآن – ووحي القلم – وغيرها ، كانت صورة صادقة تنم عن مكانة هذا العالم الأديب

والفيلسوف الفذ من فلاسفة الاسلام والمدافعين عنه في صورة محببة وصادقة جذابـة .

هذا : ولقد كان للأخ الفاضل والأستاذ الأديب « عبد الستار السطوحي » فضل كبير في إبراز هذا الجانب الاسلامي في آداب الرافعي وهذا الفضل يحمده عليه كل مسلم له غيرة على الاسلام وعلى علماء الاسلام وأدبائه . وإننا لنأمل لهذا الأخ الكريم أن ينضم بهذا العمل الجليل إلى زمرة العلماء والأدباء العاملين للإسلام وأن يجزيه الله عن « الرافعي » والاسلام خير الجزاء ، فإن الدال على الخير له أجر مثل فاعله ، والله الموفق .

دكتور عبد الحليم محمود

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

بقلم : فضيلة الأستاذ الدكتور عبد المنعم النمر
مدير ادارة البعثات بالازهر

منذ تخلت الامة الاسلامية عن تعاليم دينها اصابها الضعف وعاشت في مهب الرياح العاصفة تنتابها من كل الجهات : والضعف يغري القوى دائماً بالتحرك وابستغلال الفرصة ليشبع رغبته في التسلط : ولقد قاومت الامة الاسلامية أعداءها زمناً طويلاً وانتصرت عليهم وردتهم خائبين الى عقر دارهم ، ولكن ورثة هؤلاء الاعداء المنهزمين كانوا يحملون بالوراثة والاصالة حقداً على الامة الاسلامية وتحفزاً للقضاء عليها ، كلما لاحت لهم بارقة من أمل ولذلك رأينا هؤلاء ينقضون على البلاد الاسلامية ويوقعونها في أحابيلهم ويحيطونها بشباكهم ويفرضون عليها سلطانهم : ويعملون في بنائها كل معاولهم المادية والفكرية لتظل أطول مدة ممكنة فريسة مترنحة في يدهم .

ولقد رأينا ان هؤلاء الاعداء لم يكونوا في خططهم للتسلط على المسلمين يعتمدون على قوة السلاح وحدها ولكنهم اعتمدوا مع قوة السلاح أو قبلها على غزو المسلمين من داخل نفوسهم والعمل على تشكيكهم في مقومات دينهم ، وابعادهم شيئاً فشيئاً عن مثلهم وقيمهم .

ذلك لانهم يعملون يقيناً أن قوة السلاح وحدها لا تجدي طويلاً في اخضاع

أمة تحيا بعقيدتها وتعيش لها : تناضل في سبيلها وتستعذب الموت في الدفاع عنها : فكان لا بد لهم ان يركزوا حربتهم على هذه الناحية الروحية في الأمة بكل الوسائل المتاحة لهم وتحت قوة السلاح التي يحكمون بها .. وقد ساعدهم على ذلك أيضاً ما هو مركوز في الطبائع من ولع الأمم الضعيفة بتقليد الامم القوية والسير في تيارها .. وقد رأينا نتيجة هذه الخطة في أمم غير اسلامية رزئت بالاستعمار فاستطاع ان يبدل معالمها ويمسح لغتها ويجرها جراً الى عربته في قيمه ونظرته للأمور وفي لغته بل دينه كذلك لأنها لم يكن لها رصيد تتحصن به ويحميها من الذوبان في الغرب فلم تستطع التخلص من براثينه حتى بعد أن رحل عنها بجنده .

أما الأمة الاسلامية وبخاصة الامة العربية منها – فقد كان لها حفاظ من دينها وعقيدتها ولغتها حماها من الذوبان في الغرب وان لم يحمها تماماً من التأثر به فكانت بطيئة السير نحو الشرك الذي نصبه لها الاستعمار .

لقد كسب المستعمر كثيراً مما اراد بنا وأوجد طبقة كبيرة تسير معه في استحياء حيناً ودون استحياء حيناً آخر ، تعتنق فكرته وتقاليده في الحياة وترى الخير فيم اعتنقت ، وسخرت من أجل ذلك طاقتها لما زين لهـــا .. فرأينا الكثيرين يعيشون بيننا في الشرق بروح الغرب وتقاليده ، بل رأينا من بيننا أسماء وأسر إسلامية تغار على قيم الغرب وتقاليده اكثر من غيرتهـا على روح الاسلام وتقاليده .. بل رأينا اقلاماً تدعو الى الاقتباس من الغرب، خيره وشره حلوه ومره ! وكان هذا يعني ان هؤلاء انهزموا في نفوسهم أمام سطوة الغرب أو بريقه ، وأصبحت أفئدتهم خاليـــة من تراثهم الحضاري ، تقطعت جذورهم التي تربطهم بأمتهم وبها ينتسبون ، وزين لهم السير في هذا الطريق الخطر ما كانوا يلقونه من رواج عند امثالهم ، وبعضهم كان من ارباب السلطة والجـــاه ، وأغرى ذلك آخرين من الشباب ممن يطمعون في الشهرة الكاذبة ، أو الحظوة المريبة فساروا معهم على هذا الدرب يفتكون بتــاريخ الأمة وحضارتها ، ويقطعون جذورها ويبدلون ثيابها ويمسحون وجههـــا ليقدموها في آخر الأمر هدية طيبة أو لقمة سائغة للمستعمرين ..

لكن كان من رحمة الله بهذه الأمة وجود القرآن الكريم بلغته العربية المبينة ومبادئه وتعاليمه السمحة الكريمة ، ووجود طائفة من هذه الامة ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك ، كما روى الامام مسلم في صحيحه عن رسول الله ﷺ فكانت هذه كلها عوامل وقفت أمام هذا الزحف وفتت في عضده وحالت بينه وبين بلوغ غايته .

ولقد كان من هذه الطائفة التي تحدث عنها رسول الله ﷺ — أديبنا المرحوم مصطفى صادق الرافعي الذي سخر حياته وقلمه وكل نبضة من نبضات قلبه للدفاع عن هذا الدين والوقوف في وجه المتمردين وكشف أباطيلهم وفضح أساليبهم وردّ كيدهم الى نحورهم . لم تفتنه أساليب الغرب ولا زينته كما فتنت غيره ، ولم تستخفه الأهواء كما استخفت سواه بل ثبت في إيمانه وظل راسخاً كالطود ، يرمي عن هذا الدين بسهامه كل من تجرأ على النيل منه ، بعزمه الفتي وروحه الأبي وأسلوبه الرصين القوي .

خاض كثيراً من المعارك مع فطاحل الأدباء في أيامه دفاعاً عن هذا الدين ومبادئه ودعوة حارة للعودة اليه والاحتماء بظلاله ، والتأدب بآدابه والتمسك بأخلاقه .

كان موظفاً في وظيفة مدنية ، ولكنه كان مؤمناً راسخاً في إيمانه ، يرى حتمية عودة الأمة لدينها واحتمائها بظلاله ، وتأدبها بآدابه وتمسكها بأخلاقه كطريق لا بد منه لتنهض من كبوتها وتقوم من عثرتها ، وتتابع مسيرتها ، وتؤدي رسالتها التي حملها الله مسؤليتها ، وكان في ذلك مخلصاً لدينه مخلصاً لأمته غيوراً عليه وعليها .. فإن اولئك الذين يلوحون للأمة ببريق الحياة الغربية وما فيها من انطلاق الشهوة وجموح الفطرة ، إنما يعملون على فصمها عن أصولها التي لا تقوم إلا عليها ويحاولون بذلك أن يجعلوها أمة لقيطة بين الأمم لا أصل لها ترجع اليه وتعتز به .

ولقد ترك لنا الرافعي بذلك ثروة من الفكر الديني تعدّ باقة جميلة لا بد لكل مسلم ان يصحبها ويمتع روحه بعبيرها ، ويعمق إيمانه بالتأمل فيها .

واذا كانت زحمة الحيـــاة ، وانطلاق الناس الى ما فيهـا من بريق ، او انشغالهم بما يشوبهـا من عوارض .. قد حال بين الكثيرين من شبابنا بخاصة وبين الاغتراف من هـــذا النبع (الرافعي) فاننا نشكر للاستاذ الفاضل (عبدالستار السطوحي) وهو من الرجال المؤمنين بدينهم وعروبتهم وحقهما عليه – ان عكف على ما خلفه لنا الرافعي من ثروة أدبية اسلامية نعتز بهـا وألقى الأضواء على الجانب الاسلامي من هذه الثروة التي شملت جوانب الحياة كلها وقدمه للقراء في ثوب قشيب ومنسق ، أتركه أمامك دون عرض لتفاصيله لتعيش معه فترة طيبة وممتعة من اوقاتك .

وما أحوج كل واحد منا الآن الى ان يحوم حول نبعنـــا الصافي الأصيل يغترف منه ما يحيى به الروح ويهديه الى سواء السبيل .

عبد المنعم النمر
مدير ادارة البعثات بالأزهر

تحريراً في العاشر من رمضان المعظم ١٣٩٠ هـ .

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمات عن الرافعي

(أسأل الله أن يجعل للحق من لسانك سيفاً يمحق الباطل وأن يقيمك في الأواخر مقام حسان في الأوائل) .

الامام «محمد عبده»

(بيان كأنه تنزيل من التنزيل ، أو قبس من نور الذكر الحكيم)

«سعد زغلول»

(إنه ليتفق لهذا الكاتب من أساليب البيان ما لا يتفق مثله لكاتب من كتاب العربية في صدر أيامها) .

«عباس محمود العقاد»

قيل في إعجاز القرآن للرافعي :

(لو عُكِف على غير كتاب الله في نواشىء الأسحار لكان جديراً بأن يُعكَف عليه) .

«شكيب أرسلان»

(وكأنما اجتمع له وحده تراث الأجيال من هذه الامة العربية المسلمة ، فعاش ما عاش ينبهها الى حقائق وجودها ومقومات قوميتها على حين كانت تعيش هي في ضلال وأوهام التجديد ..

وما كان رحمه الله يرى في ذلك الا أن الله قد وضعه في هذا الموضع ليكون عليه وحده حياطة الدين والعربية لا ينال منهما نائل الا انبرى له ، ولا يقتحم عليهما مقتحم الا وقف في وجهه كأنه فرض عين عليه وهو على المسلمين فرض كفاية) .

«محمد سعيد العريان»

(والرافعي وأمثاله من عباقرة العلم والادب والفن والمال ثروة من ثروات الامم لا تكتسب بالحيلة ولا بالارث ، وانما هو نفثات من روح الله تنسم على الانفس المختارة فتجعل طبيعتها بين النور والطين ، ومنزلتها بين السماء والارض ورسالتها رفع الناس الى الملائكة ، فاذا جاء أجلهم عاد ذلك النور الالهي الى مصدره ثم لا ينبثق مرة أخرى الا حين يأذن الله لخليقته أن تهتدي ولأرضه ان تصلح)

«احمد حسن الزيات»

تمهيد

الصورة المشرقة بجلال الإسلام وعظمته ، جديرة أن ترسم باسلوب هـذا العصر وفلسفته ، وأن تلون بما اتسم به من ظلال عبقرية في النفس والعقل .

ولقد أثبتت التجارب أن كل ما تمخض عنه القرن العشرون من معجزات العلم والكشف عن أسرار الكون والانسانية إنما يقرب الانسانية — المؤرقة المعذبة في حاضرها — إلى هدى الفطرة السليمة ونور الطبيعة الحي الذي شع به الإسلام الحنيف على الإنسانية في رقة كحنان الأم الرؤوم على أطفالهـا ، فسعدت به فترات ذهبية في تاريخها .

ولقد كان من نعمة الله على الإسلام والعربية أن يقيّض لهما بين الحـين والآخر من فلاسفة الدين والأدب من تنفـذ اليهم الأشعة الروحانية فتتدفق بالمعاني الحية الخـالدة سمواً بالبيان الساحر وكشفاً عن تراث الإسلام وجلاءً لجوهره الصافي ومعدنه الفطري النفيس (صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة).

ولقد شاء لي القدر أن ادرس الاسلام دراسة منهجية في جـامعة الأزهر التليدة ، وكلية دار العلوم اللبنة الأولى لجامعة القاهرة الطريفة — بحكم تخصصي الدراسي — وبعد ممارسة لهذا اللون من الدراسة وجدت أن الدراسة المنهجية

وحدها بما لها من طابع الذهنية المحض حيناً - وأساليب التأليف القديمة حيناً آخر لا تفي بدراسة الاسلام دراسة روح ووجدان وهما ملاك الدين ولبابه . كما لمست أيضاً أن الدراسة التي تنفع غلة القلب المؤمن وتثير فيه مكامن العاطفة الدينية المشبوبة لا بد أن تقوم على هاتين الدعامتين في عالم الأديان والايمان وفي عصرنا الحديث أدباء فضلاء وعلماء عظماء كتبوا في الاسلام كتابة استقصاء وبحث وعمق وتحليل ودلوا على خصائص عظمته بما أفاد علم الأخلاق والنفس وحقائق الحياة .

ولكن الأديب المؤمن والعالم الفيلسوف المسلم (مصطفى صادق الرافعي)— من وجهة نظري — كان قمة هؤلاء النفر الأفذاذ من أدبائنا وعلمائنا المعاصرين الذين سبروا أغوار ديننـــا ، ووضعوا أيديهم على أثمن تراثه ، وأخلصوا له ففلسفوه بلغة هذا العصر وتطوراته الفكرية ، ومزجوه بالصناعة الفنية الكاملة القائمة على صدق الإحساس الديني والتجربة الشعرية الاسلامية النابضة بكل معاني الايمان والخير والحب والجمال والحق ، وكان أدبه ولا ريب يمثل الصورة المشرقـة للاسلام في جوهرها ومظهرها بفكره المتطور وروحه الانساني الممتد على آفاق الكون والحياة .

وليس موضوع هـذا الكتاب — ترجمة للرافعي — فقد كفى العربية في ذلك تلميذه وصديقه الوفي الاديب الراحل (محمد سعيد العريان) في كتابـه (حياة الرافعي)

ولكن الذي أريد أن أنبه إليه هو أن أدب الرافعي من الناحية التحليلية والموضوعية لم يزل — إلى اليـــوم — كالأرض العذراء والمنجم البكر وأنه يتطلب جهود الأدباء المعنيين بالعربية وآدابها والاسلام وتراثه وتعريفه للعالم باسلوب هذا العصر .

وما أحرانا بهذا الجهد من بعث الأدب الرافعي ، ونحن في مرحلة حاسمة

قاسية من تاريخ الاسلام والعروبة تفرض علينا طبيعتها أن نجدد اسلامنا بعد وهن ، ونبني ضمير أمتنـــا ومقومات عروبتنا وسط هذا الصراع الدولي ، ونعبىء شبابنـــا بالطاقات الروحية التي هي أمضى سلاح لنا في معركة الشرف والمصير ...

وإكمالاً لعناصر الدراسة للأدب الديني عنـد الرافعي ينبغي أن أشير إلى فلسفة النبوغ العبقري في هـذا الأدب عنده وهو أزهى ألوان أدبه وأنصعها اشراق ديباجة وأقواها مخامرةً للقلب ونفاذاً للروح ، فأردُ ذلك إلى عوامل البيئة وروافد الوراثة في تكوين شخصه وسمو أدبه .

(ورأس أسرة الرافعي هو المرحوم الشيخ عبد القادر الرافعي الكبير المتوفى سنة ١٢٣٠ من الهجرة بطرابلس الشام ويتصل نسبه بعمر بن الخطاب أمير المؤمنين رضي الله عنه – في نسب طويل من أهل الفضل والكرامـــة والفقه في الدين ، وأبو الاستاذ الرافعي هو – المرحـــوم الشيخ عبدالرازق الرافعي كان رئيساً للمحاكم الشرعية في كثير من الأقاليم ، وهو واحـــد من أحد عشر أخاً اشتغلوا كلهم بالقضاء من ولد المرحوم الشيخ سعيد الرافعي ، وكان الشيخ عبد الرازق آخر أمره رئيساً لمحكمة طنطا الشرعية وكان رجلاً ورعـــاً له صلابة في الدين وشدة في الحق ما برح يذكرهمـــا معاصروه من شيوخ طنطا [١]

ولعل أبرز هذه الروافد الوراثية أثراً في شخصية الرافعي وسيطرة النخوة الدينية والحمية الاسلامية على أدبه – نزوعه إلى جده الخليفة العادل الجبـار أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، ذلك ما نراه في هذا النتاج الأدبي الإسلامي الثائر في مثل – تحت راية القرآن (معركة بين القديم والجديد) – وإعجاز القرآن، ومقالات كثيرة في وحي القلم بدواعيها وظروفها الدينية والأدبيـــة

---

(١) حياة الرافعي ص «١٤»

عندما سرت هذه الموجة في تقسيم الأدب إلى قديم وجديد (إذ لم تكن هذه الدعوة عنده إلا وسيلة إلى النَيْل من العربية في أرفع أساليبها وسبيــلا إلى الطعن في القرآن وإعجاز القرآن وباباً إلى الزراية بتراث الأدباء العرب منذ كان للعرب شعر وبيان) .

ولقد عشت مع الرافعي منذ حداثته وجعلت أدبه موضع بحوثي بالمرحلة الجامعية فـكان لها قبول وارتياح لدى أساتذتي مما شجعني على المضي في أن أقدم هذه الباقات من أدبه الإسلامي إلى قراء العربية وبخاصة أولئك الذين درجوا على هذا النمط من أساليبها الرفيعة وعلى الدراسات الإسلامية على نحو من الفكر والإحساس والعاطفة والرأي فلعلهم يجدون له بين أعماقهم صدىً جميل النغم عذب الإيقاع .

ولقد توخيت أن آخذ بطرف من كل لون من أدبه الإسلامي وهو بكيفه لابكمه يكشف لنا عن معدن هذا الدين الإنساني مصوغاً بقلم أديب ملهم قد بثه نبض وجدانه وعميق إيمـــانه ، وعلى من أراد الاستزادة فليرجع إلى التيار الدافق من أدب الرافعي في مصادره المشار إليها .

١ – ولقد خصصت (للأسرة المسلمة) من هذا الكتاب باباً على حدة لما بنا من حاجة للقيم الأسرية في عصر انفرطت فيه عروتهـــا الوثقى وضعف الوازع الديني القائم على حياطتها ، فحاولت أن أجعل من أدب الرافعي ضماداً لجراحها ودعامة لما تهاوى من أركانها في أسلوب عصري متطور عالج فيه الرافعي مشكلات الشباب والزواج والأسرة في أسلوب القصة بفنيتها وحبكتها متخذاً مادتها من طبيعة العصر موائماً بين فلسفته وفلسفة الإسلام الذي جعل الزواج باباً من أبواب الجهاد الأكبر وشيد صرح الأسرة المسلمة على دعائم من الإيثار والروح والنفس ، ولأدع الفرصة للقراء ليلمسوا بأنفسهم ما جاء في هذا الباب من قيم إنسانية عليا في فلسفة الزواج والأسرة .

٢ – وفي الكتاب باب في فلسفة (العبادات) تتناول الوضوء، والصلاة، والمسجد وجوه النفسي، وفلسفة (الله أكبر)، وقرآن الفجر، والصيام وفلسفته النفسية والاجتماعية باسلوب جديد في البحث طريف في التصوير والتلوين، نسيج وحده فيما كتب من فلسفة الفقه والعبادات .

٣ – وفي الكتاب ايضاً باب في (اعجاز القرآن والجمال الفني في البلاغة النبوية) بأسلوب تطبيقي لتفسير كتاب الله المعجز وحديث رسوله (ﷺ) يتضح فيه مدى الذوق الفني الذي اختصت بها الاقدار (صادقاً الرافعي) في تعرف اسرار الاعجاز في القرآن الكريم في كل آية وكل كلمة من آية وكل حرف من كلمة .. وسار في كتابته عن البلاغة النبوية على هذا النمط .

٤ – وعقدنا باباً كذلك للاشراق الإلهي وفلسفة الاسلام على هـذا الكوكب الارضي فلسفنا فيه (تركيبة الانسان) في منازعهـا الروحية والحيوانية ودور الأديان في صقل الانسان وتهذيبه وترويض غرائزه –وأخوة الإسلام لما قبله من الديانات السماوية وكيف انه دين السلام والانسانية وأبرزنا فيه ايضاً بعضاً من الأحداث الاسلامية الكبرى التي أثرت في تاريخ البشرية (كفلسفة الهجرة من مكة إلى المدينة وفلسفة الاسراء والمعراج في ضوء العلم الحديث – وفلسفة الفتوحات والمغازى ونبل الغـاية وشرف المقصد منها) متخـذاً من واقع تاريخنا الإسلامي مـادة حية لهذا العرض في عذوبة الفن القصصي .

٥ – وذيلنا الكتاب بباب في الاصلاح الديني في أدب الرافعي تمثلت فيه ثورة النخوة الدينية في غيرتها على المرأة العربية المسلمة أن تسرى اليها حمى التقليد الاعمى للمرأة الاوربية ، فالشرق شرق في آدابه وتقاليـده والمرأة الشرقية (هي النجم الذي اضاء منذ النبوة، فقبيح بها أن تقلد هـذه الشمعة التي أضاءت منذ قليل) .

وفي ميدان الإصلاح الديني ركز الرافعي الاضواء على جـــامعة الإسلام العتيدة ورسالة الازهر الكبرى في القرن العشرين وضمائر اهله ومعنى الميراث الذي يرثه العلماء عن الأنبياء ... وفيه تبعات جسام منوطة بعلمائه وطلابه في عصر المادية الطاغي وفيه .. وفيه ... وحسبنا في هذا الجهد المتواضع أن فيه نفثة إلهية واشراقة إسلامية تومض للإنسانية فيآفاقها المظلمة وفي الحديث الشريف [1] (ليدخلن هذا الدين على ما دخل عليه الليل) . ومعناه أن الإسلام يعمُّ حين تظلم الدنيا ظلامها الروحيِ .

فلعل الأوان قد آن للاسلام أن يطهِّر الثرى المخضوب بالدم في كل بقعة من بقاع الأرض .

« والله المستعان وهو ولي التوفيق »

في غرة رجب سنة ١٣٩٠ هـ

في أيلول (سبتمبر) ١٩٧٠ م

عبد الستار السطوحي

المدرس الاول

بالتوفيقية الثانوية – القاهرة – شبرا

---

(١) أورد هذا الحديث الشريف (الرافعي) في مقاله السمو الروحي الاعظم . وحي القلم جزء ثالث ص ٥

فلسفة

(أنا لا أعبأ بالمظاهر التي يأتي بها يوم وينسخها يوم آخر والقبلة التي أتـّجه إليها في الأدب انما هي النفس الشرقية في دينها وفضائلها ، فلا اكتب إلا ما يبعثها حيـــة ويزيد في حياتها وسمو غاياتها، ويُمكـّن لفضائلها وخصائصها في الحياة؛ولذا لا أمس من الآداب كلها إلا نواحيها العليا ثم إنه يخيل إلي دائماً أني رسول لغوي بعثت للدفاع عن القرآن ولغته وبيانه ...)

الرافعي

« حياة الرافعي ص ٩ »

البَـاب الأول

الاشراق الالهي
و
حقيقة الاسلام

الاشراق الالهي
وحقيقة الاسلام

قصة الإشراق الإلهي على هذا الكوكب الارضي ، تتمثل في نزول الروح الامين على قلوب المصطفين من ولد آدم في أحقـاب متعاقبة من عمر البشرية عبر القرون ، هي قصة الحكمة الإلهية في خلق آدم وذريته ليسكنوا الأرض ويعمروها ويأكلوا من رزقه وإليه النشور (وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ، قال اني أعلم ما لا تعلمون . وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقـال انبئوني بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين ، قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا ... »

والانسان مخلوق يمتزج فيه قبس من روح الله سبحانه بالغرائز التي تنزع به منزعاً حيوانياً وهو لا ينفك بين مد وجزر ، ولا يفتأ في صراع وحرب بين هاتين القوتين اللتين تتنازعانه أبداً (ونفس وما سواها ، فألهمها فجورهـا وتقواها، قد أفلح من زكّاها، وقد خاب من دسّاها)..وفي ضوء هذه الفلسفة الموجزة للخليقة البشرية اقتضت حكمة الله أن ينظم الكون نظام دقيق في دوران الكواكب في أفلاكها وأن تتسق البشرية في نظام إنسانيتها العليا في

كل أطوارها بما يرسل الله من رسل مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل، وعلى قدر الداء كان الدواء الذي طبب به الرسل أممهم على تعاقب الجديدين حتى إذا ما انداحت دائرة المجتمعات البشرية على نحو يستلزم علاقات وتشريعات أشمل وأدق من ذي قبل توائم بين تنظيمات الأسرة والدولة في كل جوانبها الاجتماعية والاقتصادية والروحية والثقافية كان من ثم هـــذا الإشراق الإلهي الأعم بأضواء الاسلام الحنيف خاتم الأديان والمصالح بكل زمان ومكان .

وأديب الفكر الاسلامي المتطور مصطفى صادق الرافعي يفلسف هـــذا الإشراق الإلهي والإسلامى بخاصة فيقول[1] :

(كما تطلع الشمس بأنوارها فتتفجر ينبوع الضوء المسمى بالنهار يولد النبي فيوجد في الإنسانية ينبوع النور المسمى بالدين ، وليس النهار إلا يقظة الحياة تحقق أعمالها ، وليس الدين إلا يقظة النفس تحقق فضائلها .

والشمس خلقها الله حاملة طابعه الإلهي في عملها للمادة تحول به وتغير والنبي يرسله الله حاملاً مثل ذلك الطابع في عمله للروح تترقى فيه وتسمو .

ورعشات الضوء من الشمس هي قصة الهداية للكون في كلام من النور وأشعة الوحي في النبي هي قصة الهداية لانسان الكون في نور من الكلام .

والعامل الإلهي العظيم يعمل في نظام النفس والأرض بأداتين متشابهتين بأجرام النور من الشموس والكواكب وأجرام العقل من الرسل والأنبياء ، فليس النبي انساناً من العظماء يقرأ تاريخه بالفكر معه المنطق ومع المنطق الشك ثم يدرس بكل ذلك على أصول الطبيعة البشرية العامة ، ولكنه انسان

---

(١) وحي القلم جزء ثان

نجمي يقرأ بمثل (التلسكوب) في الدقـــة معه العلم ومع العلم الايمان ثم يدرس بكل ذلك على أصول طبيعته النورانية وحدها .

والحياة تنشىء علم التاريخ ، ولكن هذه الطريقة في درس الأنبيـــاء (صلوات الله عليهم) تجعل التاريخ هو ينشىء علم الحياة ، فانما النبي إشراق إلهي على الإنسانية يقومها في فلكها الأخلاقي ويجذبها إلى الكمال في نظام هو بعينه صورة لقانون الجاذبية في الكواكب ويجيء النبي فتجيء الحقيقة الإلهية معه في مثل بلاغة الفن البياني لتكون أقوى أثراً وأيسر فهمـاً وأبدع تمثيلاً وليس عليها خلاف من الحس

وهذا هو الأسلوب الذي يجعل انساناً واحداً من الناس جميعاً ، كما تكون البلاغة فن لغة بأكملها ، هو الشخص المفسر إذا تعسف الناس الحياة لايدرون أين يؤمون منها ولا كيف يهتدون فيها فتضطرب الملايين من البشر اضطرابها فيما تنقبض عنه وتتهالك فيه من اطماع الدنيا ثم يخلق رجل واحد ليكون هو التفسير لما مضى وما يأتي فتظهر به حقائق الآداب العـالية في قالب من الانسان العامل المرئي أبلغ مما تظهر في قصة متكلمة مروية .

وما الشهادة للنبوة إلا ان تكون نفس النبي أبلغ نفوس قومه حتى لهو في طباعه وشمائله طبيعة قائمة وحدها كأنها الوضع النفساني الدقيق الذي ينصب لتصحيح الوضع المغلوط للبشرية في عالم المادة وتنازع البقاء . وكأن الحقيقة السامية في هذا النبي تنادي الناس .. أن قابلوا على هذا الأصل وصححوا ما اعترى أنفسكم من غلط الحياة وتحريف الإنسانية .

* * *

ومن ثم فني البشرية كلها من بعث بالدين أعمـــالاً مفصلة على النفس أدق تفصيل وأوفاه بمصلحتها ، فهو يعطى الحياة في كل عصر عقلها العملي الثابت المستقر تنظم به أحوال الطبيعة على قصد وهدى وهذه هي حقيقة الإسلام في

أخص معانيه لا يغنى عنه في ذلك دين آخر ولا يؤدي تأديته في هذه الحاجة أدب ولا علم ولا فلسفة ، كأنما هو نبع في الأرض لمعاني النور بازاء الشمس نبع النور في السماء ، وكل ذلك تراه في نفس محمد (ﷺ) فهي في مجموعها أبلغ الأنفس قاطبة لا يمكن أن تعرف الأرض أكمل منها ولو اجتمعت فضائل الحكماء والفلاسفة والمتألهين وجعلت في نصاب واحد ما بلغت أن يجيء منها مثل نفسه (ﷺ) ولكأنما خرجت هذه النفس من صيغة كصيغة الدرة في محارتها أو تركيب كتركيب الياس في منجمه أو صفة كصفة الذهب في عرقه ، وهي النفس الاجتماعية الكبرى من أين تدبرتها رأيتها على الإنسانية كالشمس في الأفق الاعلى تنبسط وتضحى وتلك هي الشهادة له (ﷺ) بانه خاتم الأنبياء وأن دينه هو دين الانسانية الأخير فهذا الدين في مجموعه إن هو إلا صورة تلك النفس العظيمة في مجموعها العلانية بمقدار الحق الإنساني الثابت لا بمقدار الانسان المتغيّر الذي يكون عند سبب جبلاً صلدا يشمخ وعند سبب آخر ماء عذبا يجري » .

فلسفة التربية للضمير المسلم

« وإن يك مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين » .

« ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ، وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد ، ونفخ في الصور ذلك يوم الوعيد ، وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد ، لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد » .

في ضوء المعنى الإلهي المعجز لهاتين الآيتين الكريمتين إشعار المسلم نفسه دائماً أنه بين قبضتي الله عز وجل وانه سبحانه أقرب إليه من حبل الوريد . ولقد دار أدب الرافعي في هذا الفلك من هذه المعاني .

فيقول الرافعي : (ومن هنا كان طبيعياً في الإسلام ما جاء به من أنه لا فضيلة إلا وهو يطبع عليها صورة الجنة بنعيمها الخالد ، ولا رذيلة إلا وهو يضع عليها صورة النار الأبدية، وقودها النار والحجارة، فلا تنظر العين المسلمة إلى أسباب الحياة نظرة الفكر المنازع : يحرص على ما يكون له ويشْرَهُ إلى ما ليس له ويمكر الحيلة ويبدع وسائل الخداع ويزيد بكل ذلك في تعقيد الدنيا بل بنظرة القلب المسالم يخلع الدنيا ويسخو بكل مضنون فيها ، فيعفو عن كثير ويدرك أن الحلال وإن حل فوراءه حسابه وأن الحرام وإن غر ليس إلا تعلل ساعة زاهية ثم من ورائه عقاب الأبد .

ويخرج من ذلك أن يكوّن أكبر أغراض الإسلام هو أن يجعل من خشية الله تعالى قانون وجود الانسان على الأرض من أي عطفيه التفت هذا الانسان وجد عن يمنته ويسرته ملكين من ملائكة الله يكتبان أعماله بخيرها وشرها فهو كالمتهم المستراب به في سياسة النفس : لا يمشي خطوة إلا بين جاسوسين يحصيان عليه حتى أسباب النية ويجمعان منه حتى نزوات الكبد ويترجمان عنه حتى معاني النظر .

وإذا قامت هذه المحكمة الملائكية وتقررت في اعتبار النفس قام منها على النفس شرع نافذ هو قانون الإرادة المميزة تريد الحسنات وتعمل لها وتخشى السيئات وتنفر منها فإذا معاني الجسد يحكم بعضها بعضاً لا لتحقيق الحكومة والسلطة ولكن لتحقيق الخير والمصلحة ، وإذا نواميس الطبيعة الجنونية في هذا الحيوان قد نهضت إلى جانبها نواميس الإرادة الحكيمة للانسان ، وإذا كل صغيرة وكبيرة في النفس هي من صاحبها مادة تهمة عند قاضيها في محكمتها وإذا كل ما في الإنسان وما حول الإنسان لا يراد منه إلا سلام النفس في عاقبتها ، وإذا معنى السلام هو المعنى الغالب المتصرف بالإنسانية في دنياها .

وكل أعمال الاسلام وأخلاقه وآدابه فتلك هي غايتها وهذه هي فلسفتها لا يقررها للإنسانية حسب ، بل يغرسها في الوراثة غرساً بالاعتياد والمران

الدائم لتكون علماً وعملاً فتمكن لسلام النفس بين الأسلحة المسددة اليها من ضرورات الحياة في أيدي الأعداء المتألبة عليها من شهوات الغريزة .

وفي رجاء الله واليوم الآخر يتسامى الانسان فوق هذه الحياة الفانية فتمر همومها حوله ولا تصدمه إذ هي في الحقيقة تجري من تحتة فكأن لا سلطان لها عليه .

وفي رجاء الله واليوم الآخر يعيش الانسان عمره الطويل أو القصير كأنه في يوم يصبح منه غادياً على الحشر والحساب ، فهو متصل بالخلود غير معني إلا بأسباب وبهذا تكون أمراضه وآلامه ومصائبه ليست مكاره من الدنيا بل تلك المكاره التي حفت الجنة بها ولا يضره الحرمان لانه قريب الزوال ولا يغره المتاع لأنه قريب الزوال ايضاً .

وفي رجاء الله واليوم الآخر يسود الانسان على نفسه ومن كان سيد نفسه كان سيد ما حولها يصرفه بحكمة ومن كان عبد نفسه صرفه بحكمه كل ما حوله » .

الاسلام والسلام
والضمير الانساني

ويمضي بنا فيلسوف الاسلام (الرافعي) بأسلوب فيه من الفلسفة دقتها وتحليلها ومن الأدب عذوبة السياق وجمال العرض ،ومن الدين جيشان الشعور والعاطفة الاسلامية التي تتخلل عباراته روحاً نابضاً مقتبساً من جلال الإسلام وجماله ، فيقرر تقرير العالم الاجتماعي والمصلح الديني أنه لن يعم السلام في الارض ولن تخف حدة التوتر بين القوى المتصارعة في عالمنا بعد أن عجزت التنظيمات الدولية أن تحد من أوار جوه المشتعل بالنار وثراه المخضوب بالدم إلا إذا عمت روح الاسلام ورفت بطهارتها على الضمير العالمي الذي يعاني

من محنته اليوم معاناة قد تعرّض البشرية في لحظة ما إلى دمار شامل لا يدع ولا يذر عند قيام حرب عالمية ثالثة ، يقول الرافعي :

(فليس يعم السلام إلا إذا عم هـــذا الدين بأخلاقه فشمل الأرض أو أكثرها فإن قانون العالم حينئذ يصبح منتزعاً من طبيعة التراحم ، فإما انتسخ به قانون التنازع الطبيعي واما كسر من شرته ، ويولد المولود يومئذ وتولد معه الأخلاق الإنسانية

تقرير معنى الدوام لكل أعمال النفس حتى مثقال الذرة من الخير والشر ، وضبط ذلـــك برياضة عملية دائمة مفروضة على الناس جميعاً هذا هو أساس العقيدة الاسلامية ولا صلاح للانسانية بغيره يردها الى سبيل قصدها فان من ذلك تكون الصفة العقلية التي تغلب على المجتمع وتجانس بين أفراده فتوجه الانسانية كلهـــا نحو الممكن من كمالها ولا تزال توجهها نحو ما هو أعلى وتحكم فاسدها بصالحها وتأخذ عاصيها بمطيعها وتجعل الشرف الانساني غرضها الأول لأن الله الحق غرضها الأخير فيصبح المرء وهذا دينه - كلما تقدم به العمر كمل فيه اثنان الإنسان والشريعة ولا يعود طالب السعادة النفسية في الدنيا كالمجنون يجري وراء ظله ليمسكه فلا يدرك في الآخر شيئاً غير معرفته أنه كان في عمل وسعي ضائع .

والإسلام يحرص أشد الحرص وأبلغه على تقرير ذلك المعنى الإلهي العظيم لا بالمنطق ولكن بالعمل ثم في النفس وعواطفها لا في العقل وآرائه ثم على وجه التعميم دون الاستثناء والخصوص وذلك هو سر مشقته على النفس بمـــا يفرضه عليها ؛ فإن فلسفته أن هـــذه النفس هي أساس العالم ، وأن النظام الخلقي هو أساس النفس ، وأن العمل الدائم هو أساس النظام وأن روح العمل الدائم تكون فيما يشق بعض المشقة ولا يبلغ العسر والحرج كما تكون فيما يسهل بعض السهولة ولا يبلغ الكسل والإهمال .

وللنفس وجهان : ما تعلن وما تسرّ ، ولا صدق لإعلانها حتى يصدق ضميرها ، ولا صلاح لجهرها حتى يصلح السر فيها ولا يكون الانسان الاجتماعي فاضلا بمشهده حتى يكون كذلك بغيبه .

وللعالم كذلك وجهان : حاضره الذي يمر فيه وآتيه الذي يمتد له ، ولا يفلح حاضر منقطع لا يورث ما بعده كما ورث ما قبله ، وما حاضر الإنسانية الإ جزء من عمل الناس في استمرار فضائلهم باقية نامية .

وللنظام أيضاً وجهان : نظام الرغبة في الطاعة والاطمئنان لها ، ونظام الرغبة على الخشية والنفرة منها ، ولا يستقيم شأن ليس أساسه الطاعة في النفس ، ولا يستمر نظام عليه خلاف من فكر العامل به .

وللعمل الدائم طريقتان : إحداهما طريقة الجاد يعمل للعاقبة يستيقنها فلا يجد مما يشق عليه الا لذة المغالبة للنصر : كل مرارة من قبله هي حلاوة فيه من بعد ، ولا يعرف للمحنة يبتلى بها إلا معناها الحقيقي ، وهو إيقاظ نفسه فيصبح الصبر عنده كصبر المحب على أشياء ممن يحبه ، صبر فيه من السحر ما يكسو الحرمان في بعض الاحيان خيال الاستمتاع ، ويذيق النفس في العجز عن بعض أغراضها — لذة كلذة إدراكه .

تلك هي فلسفة الإسلام ، لا قوام للأمر فيها ولا مساك له إلا بتقرير معنى الدوام لكل اعمال النفس ، ووضع طابع الجنة على أعمال الجنة وطابع النار على أعمال النار ، وتعظيم الشخصية الروحية دون الشخصية المادية ، فلا يحاول كل إنسان أن يجعل بطنه في حجم مملكة أو مدينة أو قرية بما ينتقص به من حقوق غيره ، بل تتسع ذاتية كل فرد بما يجب له على المجتمع من الواجبات الإنسانية ، وبهذا لا بغيره تتعين مقاييس الأخلاق في الأرض بالمصلحة لا باللذة فلا يقع الخطأ ولا التزوير وتنحل المشكلة الاجتماعية ، ما دامت الحياة لا تجد من أهلها كل ساعة عقداً فيها .

والاستيلاء بذلك المعنى على العقل والعاطفة هو وحـــده الطريقة لإنشاء طبيعة الخير في الناس على نسقها الطبيعي ، كما أنه هو وحده الطريقة لتطهير التاريخ الانساني من اوبائه الاقتصادية ، التي جعلته كأنمـا هو تاريخ الأسنان والأضراس ، وتركت الناس يهدم بعضهم بعضاً ، كما يهدم الجار حائط جاره ليوسع بيته ...

وأساس العمل في الاسلام إخضاع الحياة للعقيدة أقوى من الحاجة فيكون الفقير معدماً ويتعفف ويكون الغنيُّ موسراً ويتصدق، ويكون الشره طامعاً ويمسك ، ويكون القوي قادراً ويحجم، وكما قـــال العرب في تحقيق ناموس الأنفة والحمية وغلبته على الناموس الاقتصادي (تجوع الحرة ولا تأكل بثدييها).

* * *

تريد الإنسانية امتداداً غير امتدادها التجاري في الأرض وتحتاج إلى معنى يقود إنسانها غير الحيوان الذي فيه ، وإذا قاد الغراب قوماً فانما هو – كما قال شاعرنا – يمر بهم على جيف الكلاب ...

والانسانية اليوم في مثل ليل حوشي مظلم، اختلط بعضه في بعض وليست معاني الاسلام إلا الإشراق الإلهي على هذه الكثافة المادية المتراكمة ، واذا رفع المصباح لم تجد الظلام إلا وراء الحدود التي تنتهي إليها أشعته .

وقد علمنا من طبيعة النفس أن انسانية الفرد لا تعظم ولا تسمو وتتخيل وتفرح فرحهـــا الصادق وتحزن حزنها السامي – إلا أن تعيش في محبوب ، فإنسانية العـــالم لا تكون مثل ذلك إلا إذا عاشت في نبيها الطبيعي ، نبي أخلاقها الصحيحة وآدابها العالية ونظامها الدقيق وأين تجد هـــذا المحبوب الأعظم إلاّ في محمد ودين محمد ...»

معنى الاسلام
وانسانيتـــه العليـــا

ويتناول الرافعي – رضوان الله عليه – الاسلام من ناحية تسميته بالاسلام فيفلسفه الى أن معناه اسلام النفس إلى واجبها الانساني في الأكمل من مبدأ إنكار الذات والإيثـــار والرحمة والعدل وكل ما يؤدي الى المثل العليا التي رسمتها الأديان السماوية فكأن المسلم يسلم نفسه الى وازعها الإلهي يصرفها ويديرها على هذا المعنى (بلى من أسلم وجهه الى الله وهو محسن)

ثم يمضي مفلسفاً رحمته التي وسعت آفـــاق الأكوان قاطبة لا البشرية وحدها فحسب ...

ففي حديث رسول الاسلام ﷺ (ان امرأة دخلت النار في هرة حبستْها لا هيَ أطعمتها ولا هيَ تركتها تأكل من خشاش الأرض) .

الى الأحاديث المتواترة والتي تفيض رحمة بعالم الانسان والحيوان والطير ففي حديث الرجـــل الذي رأى كلباً يلهث من شدة العطش فرّق له فسقاه فشكر الله له . فقالوا : وان لنا في البهائم أجراً يا رسول الله ؟ فقال نعم : «في كل ذي كبد رطبة أجر» .

ففي هدى هذه المثل الانسانية العليا التي تفيأ بها ظلال الاسلام فسعدت بها البشرية يقول الرافعي

(كان المعنى الآدمي : في هذه الانسانية كأنما وهن من طول الدهر عليه يتحيّفه ويمحوه ويتعاوره بالشر والمنكر ، فابتعث الله تاريخ العقـــل بآدم جديد بدأت الدنيا في تطورها الأعلى من حيث يرتفع الانسان في ذاته فكانت الانسانية وكما بدأت من حيث يوجد الانسان في ذاته فكانت الانسانية دهرها

بين اثنين : احدهما فتح لها طريق المجيء من الجنة ، والثاني فتح لها طريق العودة اليها كان في آدم سر وجود الانسانية وكان في محمد سر كمالها .

* * *

ولهذا سمي الدين (بالاسلام) لأنه اسلام النفس الى واجبها أي إلى الحقيقة من الحياة الاجتماعية ، كأن المسلم ينكر ذاته فيسلمها الى الانسانية تصرفها وتعتملها في كمالها ومعاليمها ، فلاحظٌ له هو من نفسه يمسكها على شهواته ومنافعه ولكن للإنسانية بها الحظ .

وما في الاسلام في جملته إلا هذا المبدأ : مبدأ إنكار الذات (وإسلامها) طائعة على المنشط والمكره لفروضها وواجباتها كلما نكصت إلى منزعها الحيواني ، أسلمها صاحبها إلى وازعها الإلهي وهو أبداً يروضها على هذه الحركة ما دام حياً فينزعها كل يوم من أوهام دنياها ليضعها ما بين يدي حقيقتها الإلهية ، يروضها على ذلك كل يوم وليلة خمس مرات مسماة في اللغة صلوات ، لا يكون الاسلام اسلاماً بغيرها ، فلا غرو كانت الصلاة بهذا المعنى كما وصفها النبي ﷺ : هي عماد الدين .

وهذا الوجود الروحي هو مبعث الحالة العقلية التي جاء الاسلام ليهدي الانسانية اليها : حالة السلام الروحاني الذي يجعل حرب الدنيا المهلكة حرباً في خارج النفس في لا داخلها ، ويجعل ثروة الانسان مقدرة بما يعامل الله والانسانية عليه ، فلا يكون ذهبه وفضته ما كتبت عليه الدول (ضرب في مملكة كذا) ولكن ما يراه هو قد كتب عليه : (صنع في مملكة نفسي) ، ومن ثم لا يكون وجوده الاجتماعي للأخذ حسبُ ، بل للعطاء ايضاً ، فإن قانون المال هو الجمع ، أما قانون العمل فهو البذل .

لم يكن الاسلام، في حقيقته إلا إبداعاً للصيغةالعملية التي تنتظم الانسانية

فيها ، ولهذا كانت آدابه كلها حراساً على القلب المؤمن فانها ملائكة من المعاني وكان الاسلام بها عملاً إصلاحياً وقع به التطور في عالم الغريزة فنقله الى عالم الخلق ثم ارتقى بالخلق الى الحق ثم سما بالحق الى الخير فهو سمو فوق الحياة. ثلاث طبقات ، وتدرج الى الكمال في ثلاث منازل ، وابتعاد عن الأوهام بمسافة ثلاث حقائق .

وبتلك الاعمال والآداب كانت الدنيا المسلمة التي أسسها النبي ﷺ دنيا أسلمت طبيعتها فأصبحت على ما أراد المسلمون لا ما أرادت هي ، وكأنها قائمة بنواميس من أهلها لا على أهلها ، وكان الظاهر أن الاسلام يغزو الأمم بالحرب ويفتتحها ، ولكن الحقيقة الصحيحة ان إقليماً من الدنيا كان يحارب سائر أقاليم الارض بالطبيعة الأخلاقية الجديدة بهذا الدين .

وكأن الله تعالى ألقى في رمال الجزيرة روح البحر وبعثها بعثه الإلهي لأمره ، فكان النبي ﷺ هو نقطة المدّ التي يفور البحر منها وكان المسلمون أمواجه التي غسلت بها الدنيا .

لهذا سمع المسلمون الأولون كلام الله تعالى في كتابه،وكلام رسوله ﷺ لا كما يسمعون القول ولكن كما يتلقون الحكم النافذ والمقضي ، ولم يجدوا فيه البلاغة وحدها بل روعة أمر السماء في بلاغته ، واتصلوا بنبيهم ، ثم بعضهم ببعض لا كما يتصل إنسان بإنسان بل كما تتصل الامواج بقوة المد ثم كما يمدّ بعضها بعضاً في قوة واحدة .

وحققوا في كماله ﷺ وجودهم النفسي فكانوا من زخارف الحياة وباطلها في موضع الحقيقة الذي يرى الشيء لا شيء

ورأوا في إرادته ﷺ النقطة الثابتة فيما يتضارب من خيالات النفس فكانوا اكبر علماء الأخلاق على الارض لا من كتب ولا علم ولا فلسفة بل من قلب نبيهم وحده .

ولقد كان المسلم يضرب بالسيف في سبيل الله فتقع ضربات السيوف على جسمه فتمزقه فما يحسها إلا كأنها قبل أصدقاء من الملائكة يلقونه ويعانقونه.

وكان يُبتلى في نفسه وماله فلا يشعر في ذلك انه المرزأ المبتلى يعرف فيه الحزن والانكسار بل تظهر فيه الإنسانية المنتصرة كما يظهر التاريخ الظافر في بطله العظيم أصيب في كل موضع من جسمه بجراح فهي جراح وتشويه وألم وهي شهادة النصر .

ولم تكن أثقال المسلم من دنياه أثقالاً على نفسه بل كانت له أسباب قوة وسمو كالنسر المخلوق في طبقات الجو العليا يحمل دائماً من أجل هذه الطبقات ثقل جناحيه العظيمين .

وكانت الحقيقة التي جعلها النبي (ﷺ) مثلهم الأعلى وأقرها في أنفسهم بجميع أخلاقه وأعماله أن الفضائل كلها واجبة على كل مسلم لنفسه إذ انها واجبة لكل مسلم على غيره فلا تكون في الامة إلا ارادة واحدة متعاونة تجعل المسلم وما هو الا روح امته تعمل به أعمالها هي لا اعماله وحدها .

وهو دين يعلو بالقوة ويدعو اليها ويريد إخضاع الدنيا وحكم العالم ويستفرغ همه في ذلك لا لإعزاز الأقوى وإذلال الأضعف ولكن للارتفاع بالأضعف إلى الأقوى وفرق ما بين شريعته وشرائع القوة ، إن هذه انما هي قوة سيادة الطبيعة وتحكمها ، أما هو فقوة سيادة الفضيلة وتغلبها وتلك تعمل بالتفريق وهو يعمل للمساواة، وسيادة الطبيعة وعملها للتفريق هما أساس العبودية وغلبة الفضيلة وعملها للمساواة هما أعظم وسائل الحرية) .



الأخلاق التطبيقية
في الاسلام
وربطها بالعصر وحضارته

(وإنّك لعلى خلق عظيم) ابلغ وصف في أوجز عبارة تصف به السماء رسول الاسلام والسلام .

حقاً إن بين واقع الحياة وأحلام الفلاسفة والمصلحين لحرباً أزلية باقية ما اصطلحا وما تواءما إلا في صدر الاسلام،يوم أن نفذ المسلمون الأول إلى لباب الاسلام فآمنوا بـــه عقيدة مترجمة الى سلوك وآداباً مجسمة حيّة في واقع يعيشونه وروحاً انسانية تنهض بها قلوبهم فتستحيل الى حب متبادل قائم قائم على الاخلاق والصدق والايثار .

فمحمد المصطفى ﷺ من ولد آدم وخاتم الرسل والأنبياء والذي عُرج به الى سدرة المنتهى فرأى من آيات ربه الكبرى يأبى تواضعه المهذب أن يقف له الصحابة إعظاماً فينهي عن هذا ويقول : (لا تقوموا كما تقوم الاعاجم يعظم بعضهم بعضاً،وإنما أنا عبد مثلكم آكل مثل ما تأكلون واشرب مثل ما تشربون والذي يأبى تواضعه الجم أن يتميز على أصحابه – وهو فيهم رسولهم الكريم الذي يُلقى اليه – عندما كانوا في سفر وذبحوا شاة فقال أحدهم : علي ذبحها

وقال الثاني : وعلي سلخها وقال الثالث : وعلي طبخها فقال (ﷺ) وعلي جمع الحطب فقالوا : ما نود ان نشغلك يا رسول الله فقال : إني أكره أن أتميز عليكم) .

هذا الخلق الذي أرسى قواعده الانسانية محمد بن عبدالله صلوات الله عليه هو الذي أورث ابناء الصحراء ملك كسرى وقيصر واستهل بهم في حضارة العالم عهداً جديداً وبدأبهم للانسانية تاريخاً مجيداً يتطامن امامه كل تاريخ .

وللرافعي في فلسفة الاخلاق في ديننا رأي حصيف قائم على الموازنة بين التربية الاسلامية التي خلقت من المجتمع الاسلامي أناساً كانوا الملائكة طهراً ونقـــاء وشفافية روح ، وبينما أحدثته المدنية الحديثة في تربيتها من تحلل في السجايا وفساد في الطباع وأسن في الأخلاق حتى أضحت الانسانية بين الحين والآخر قاب قوسين أو أدنى من حرب عالمية ثالثة مدمرة سوف لا تدع ولا تذر شيئاً من نتاج الحضارة ومبتكرات العلم .

يقول الرافعي[1] (لو إني سئلت أن أجمل فلسفة الدين الاسلامي كلها في لفظين لقلت : أنها ثبات الأخلاق ولو سئل اكبر فلاسفة الدنيا ان يوجز علاج الانسانية كلها في حرفين لما زاد على القول : انه ثبات الاخلاق ولو اجتمع كل علماء اوروبا ليدرسوا المدنية الاوربية ويحصروا ما يعوزها في كلمتين لقالوا : ثبـــات الاخلاق فليس ينتظر العالم انبياء ولا فلاسفة ولا مصلحين ولا علماء يبدعون له بدعاً جديداً وانما هو يترقب من يستطيـع أن يفسر له الاسلام هذا التفسير ويثبت للدنيا ان كل العبادات الاسلامية هي وسائل عملية تمنع الاخلاق الانسانية ان تتبدل في الحي ويخلع منها ويلبس اذا تبدلت احوال الحيـــاة وصعدت بانسانها أو نزلت وان الاسلام يأبى على كل مسلم أن يكون انسان حالته التي هو فيها من الثروة أو العلوم ومن الارتفاع أو الضعة ومن خمول

---

(١) وحي القلم جزء ثان ص ٣٨ .

المنزلة او تباهتها ويوجب على كل مسلم ان يكون انسان الدرجة التي انتهى اليها الكون في سمو كماله وفي تقلبه على منازله بعد ان صُفي في شريعة بعد شريعة وتجربة بعد تجربة وعلم بعد علم .

انتهت المدنية الى تبدل الإخلاق بتبدل أحوال الحياة فمن كان تقياً على الفقر والإملاق وحرمه الاعسار فنون اللذة ثم أيسر من بعد جاز له ان يكون فاجراً على الغنى وان يتسمح لفجوره على مد ما يتطوح به المال وإن أصبح في كل دينار من ماله شقاء نفس إنسانية او فسادها .

. . .

الأخلاق في رأيي هي الطريقة لتنظيم الشخصية الفردة على مقتضى الواجبات العامة فالاصلاح فيها إنما يكون من عمل هذه الواجبات . أي من ناحيــة المجتمع والقائمين على حكمــه ، وعندي ان للشعب ظاهراً وباطناً فباطنه هو الدين الذي يحكم الفرد ، وظاهره هو القانون الذي يحكم الجميـع ، ولن يصلح للباطن المتصل بالغيب إلا ذلك الحكم الديني المتصل بالغيب مثله ، ومن هنا نتبين مواضع الاختلال في المدنية الاوروبية الجديدة ، فهي في ظاهر الشعب دون باطنه والفرد فاشل بها في ذات نفسه إذا هو تحلل من الدين ولكنه مع ذلك يبدو صالحاً منتظماً في ظاهره الاجتماعي بالقوانين والآداب العامة التي تفرضها القوانين فلا يبرح هازئاً من الاخلاق فاخراً بها لأنها غير ثابتة فيــه ، ثم لا تكون عنده أخلاقاً يعتد بها إلا إذا درّت بها منافعه وإلا فهي ضارّة إذا كانت بها مضرة ، وهي مؤلمة إذا حالت دون اللذات ، ولا ينفك هــذا الفرد يتحول لأنه مطلق في باطنه غير مقيد إلا بأهوائه ونزعاته ، وكلمتا الفضيلة والرذيلة معدومتان في لغة الأهواء والنزعات إذ الغـاية المتاع واللذة والنجاح وليكن السبب ما هو كائن .

. . .

وبهذا فلن تقدم القوانين في أوروبا إذا فني المؤمنون بالأديان فيها أو كاثرهم الملحدون وهم اليوم يبصرون بأعينهم ما فعلت عقلية الحرب العظمى في طوائف منهم .

قد خربت أنفسهم من إيمانها فتحولوا ذلك التحول الذي أومأنا اليه، فإذا أعصابهم بعد الحرب ما تزال محاربة مقاتلة ترمي في كل شيء بروح الدم والأشلاء والقبور والتعفن والبلى

وانتهت الحرب بين أمم وأُمم ولكنها بدأت بين أخلاق وأخلاق ...

وقديماً حارب المسلمون وفتحوا العالم ودوخوا الأمم فأثبتوا في كل ارض هدى دينهم بقوة أخلاقهم الثابتة ، وكان من وراء أنفسهم في الحرب ما هو من ورائها في السلم وذلك لثبات باطنهم الذي لا يتحول ولا تستخفه الحياة بنزقها ولا تسفهه المدنيات فتحمله على الطيش ولو كانوا هم أهل هذه الحرب الاخيرة بكل ما قذفت بالدنيا لبقيت لهم العقلية المؤمنة القوية لأن كل مسلم فإنما هو وعقليته في سلطان باطنه الثابت القارّ على حدود بيّنة محصلة مقسومة تحوطها وتمسكها أعمال الايمان التي أحكمها الاسلام أشد إحكام يفرضها على النفوس منوعة مكررة : كالصلاة والصوم والزكاة ليمنع بها تغيراً ويحدث بها تغيراً آخر ، ويجعلها كالحارسة للارادة ما تزال تمر بها وتتعهدها بين الساعة والساعة .

انما الظاهر والباطن كالموج والساحل ، فاذا جن الموج فلن يضيره ما بقي الساحل ركيناً هادئاً مشدوداً باعضائه في طبقات الأرض اما اذا ماج الساحل... فذلك اسلوب آخر غير اسلوب البحار والاعاصير ، ولا جرم الا يكون الا خسفاً بالأرض والماء وما يتصل بها .

* * *

في الكون أصل لا يتغير ولا يتبدل هو قانون ضبط القوة وتصريفها وتوجيهها على مقتضى الحكمة ويقابله في الانسان قانون مثله لا بد منه لضبط معاني الانسان وتصريفها وتوجيهها على مقتضى الكمال وكل فروض الدين الاسلامي وواجباته وآدابه ان هي إلا حركة هذا القانون في عمله فما تلك إلا طرق ثابتة لخلق الحس الأدبي وتثبيته بالتكرار وادخاله في ناموس طبيعي باجرائه في الأنفس مجرى العادة وجعله لكل ذلك قوة في باطنها فتسمى الواجبات والآداب فروضاً دينية وما هو في الواقع إلا عناصر تكوين النفس العالية وتكون أوامر وهي حقائق .

ومن ذلك أرانا نحن الشرقيين نمتاز على الاوروبيين باننا أقرب منهم الى قوانين الكون ففي أنفسنا ضوابط قوية متينة إذا نحن أقررنا مدنيتهم فيها ـ وهي بطبيعتها لا تقبل الا محاسن هذه المدنية – سبقناهم وتركنا غبار أقدامنا في وجوههم وكنا الطبقة المصفاة التي ينشدونها في انسانيتهم الراهنة ولا يجدونها ، ونمتاز عنهم من جهة أخرى بأننا لم ننشىء هذه المدنية ولم تنشئنا فليس حقاً علينا أن نأخذ سيئآتها في حسناتها وحماقتها في حكمتها وتزويرها في حقيقتها وأن يضيع فيها الحلوة والمرة والناضجة والفجة وانما نحن نحصلها ونقتبسها ونرتجع منها الرجعة الحسنة فلا نأخذ إلا الشيء الصالح مكان الشيء قد كان دونه عندنا وندع ما سوى ذلك ثم لا نأخذ ولا ندع الا على الاصول الضابطة المحكمة في أدياننا وآدابنا ولسنا مثلهم متصلين من حاضر مدنيتهم بمثل ماضيهم ، بيد ان العجب الذي ما يفرغ عجبي معه ان الموسومين منا بالتجديد لا يحاولون أول وهلة وآخرها إلا هدم تلك الضوابط التي هي كل ما نمتاز به والتي هي كذلك كل ما تحتاج اليه اوروبا لضبط مدنيتها ويسمون ذلك تجديداً وهو بأن يسمى حماقة وجهلاً أولى وأحق .

إن اوروبا ومدنيتها لا تساوي عندنا شيئاً إلا بمقدار ما تحقق فينا من اتساع الذاتية وعلومها وفنونها فانما الذاتية وحدها هي أساس قوتنا في النزاع

العالمي بكل مظاهره أيها كان ، ولها وحدها وباعتبار منها دون سواها نأخذ ما نأخذه من مدنية اوروبا ونهمل ما نهمل ، ولا يجوز ان نترك التثبت في هذا ولا ان نتسامح في دقة المحاسبة عليه .

فالمحافظة على الضوابط الانسانية القوية التي هي مظاهر الأديان فينا ثم ادخال الواجبات الاجتماعية الحديثة في هذه الضوابط بربطها بالعصر وحضارته ثم تنسيق مظهر الأمة على مقتضى هذه الواجبات والضوابط ثم العمل على اتحاد المشاعر وتمازجها لتقويم هذا المظهر الشعبي في جملته بتقويم اجزائه — هذه هي الاركان الأربعة التي لا يقوم على غيرها بناء الشرق .

والالحاد والنزعات السافلة وتخانيث المدنية الأوروبية التي لا عمل لها الا أن تظهر الخطر في أجمل اشكاله ... ثم الجهل وعلوم القوة الحديثة بأصول التدبير وحياطة الاجتماع وما جرى هذا المجرى ثم التدليس على الأمة بآراء المقلدين والزائغين والمستعمرين لمحق الاخلاق الشعبية القوية وما اتصل بذلك ثم التخاذل والشقاء وتدابر الطوائف وما كان بسبيلها — تلك هي المعاول الأربعة التي يهدم غيرها بناء الشرق .

فليكن دائماً شعارنا نحن الشرقيين هذه الكلمة : اخلاقنا قبل مدنيتهم].

في أهداف
المغازي والفتوحات الاسلامية

لقد تناول بالكتابة موضوع الفتوحات الاسلامية بما تميزت به من سرعة أذهلت العالم وقادته العسكريين قديمهم وحديثهم عدد لا حصر له من الكتاب شرقيين وغربيين مسلمين وغير مسلمين ، وكان تناولهم له إما تأييداً لفكرة الفتح وتبريراً لهـا واما اثارة للشكوك حولها وبلبلة الفكر في مغزاها كانوا يكتبون بعقولهم تارة وبأهوائهم اخرى مستأنسين بحوادث التاريخ وظروف الحياة السياسية او الاجتماعية او الدينية .

ولكن نقرأ للرافعي في فلسفة ما كتب عن هذه الفتوحات فنحس مع العقل وفلسفة التعليل والمنطق وجدان الرافعي واحساسه نحـو الاسلام (كاشراق الهي) قد استحال مقومات فنية أخاذة تجلو أثر الاسلام في نفوس المجاهدين والفاتحين مما يجعل الفتح الاسلامي معجزة المعجزات .

فباسلوب القصة بفنيتها قد فلسف الفتح الاسلامي لمصر واستقى مادتها التاريخية من تاريخ الواقدي وادار حوارها على لسان أبرز شخصياتهـا (ارمانوسة) بنت المقوقس عظيم القبط في مصر واستاذتها مارية التي اختارها المقوقس كنيسة حية لابنته ، والراهب شطا ، والقائد العربي عمرو بن العاص الفاتح لمصر ، وقيس بن ابي العاص السهمي قائد كوكبة من فرسان العرب .

(يقول الرافعي) : في قصة الفتح الاسلامي لمصر .

(اما الأبواب الرومية فبقيت مستغلقة حصينة لا تذعن الا للتحطيم وراءها نحو مائة الف رومي يقاتلون المعجزة الاسلامية التي جاءتهم من بلاد العرب اول ما جاءت بأربعة الاف رجل ثم لم يزيدوا آخر ما زادوا على اثني عشر الفاً .

(وكان الروم مائة الف مقاتل باسلحتهم ولم تكن المدافع معروفة ولكن روح الاسلام جعلت الجيش العربي كأنه اثني عشر الف مدفع بقنابلها لا يقاتلون بقوة الانسان بل بقوة الروح الدينية التي جعلها الاسلام مادة متفجرة تشبه الديناميت قبل ان يعرف الديناميت ولما نزل عمرو بجيشه على بلبيس جزعت مارية جزعاً شديداً ، اذ كان الروم قد ارجفوا أن هؤلاء العرب قوم جياع ينفضهم الجدب على البلاد نفض الرمال على الاعين في الريح العاصف وانهم جراد انساني لا يغزو إلا لبطنه وانهم غلاظ الاكباد كالابل التي يمتطونها وان النساء عندهم كالدواب يرتبضن على خسف وانهم لا عهد لهم ولا وفاء ثقلت مطامعهم وخفت امانتهم وأن قائدهم عمرو بن العاص كان جزاراً في الجاهلية فما تدعه روح الجزار ولا طبيعته ، وقد جاء الى مصر باربعة الاف سالخ من اخلاط الناس وشذاذهم لا اربعة الاف مقاتل من جيش له نظام الجيش وتوهمت مارية اوهامها وكانت شاعرة وقد درست هي (وارمانوسه) ادب اليونان وفلسفتهم وكان لها خيال مشبوب متوقد يشعرها كل عاطفة اكبر مما هي ويضاعف الاشياء في نفسها وينزع الى طبيعته المؤنثة فيبالغ في تهويل الحزن خاصة ويجعل من بعض الالفاظ وقوداً على الدم ...

ومن ذلك استطير قلب مارية وافزعتها الوساوس فجعلت تندب نفسها ووضعت في ذلك شعراً هذا ترجمته :

---

(١) وحي القلم (جزء اول) ص ١٠

(جاءك أربعة الاف جزار أيتها المسكينة

ستذوق كل شعرة منك ألم الذبح قبل أنْ تذبحي

جاءك اربعة الآف خاطف ايتها العذراء المسكينة

ستموتين أربعة الآف ميتة قبل الموت

قوّني يا إلهي لأغمد في صدري سكيناً يرد عني الجزارين

يا الهي قوّ هذه العذراء لتتزوج الموت ، قبل أن يتزوجها العربي

وذهبت تتلو شعرها على ارمانوسه في صوت حزين يتوجع فضحكت هذه وقالت :

انت واهمة يا مارية أنسيت أن ابي قد أهدى الى نبيهم بنت (انصنا) فكانت عنده في مملكة بعضها السماء وبعضها القلب .

لقد اخبرني ابي انه قد بعث بها لتكشف له عن حقيقة هذا الدين وحقيقة هذا النبي وانها أنفذت اليه دسيسا يعلمها أن هؤلاء المسلمين هم العقل الجديد الذي سيضع في العالم تمييزه بين الحق والباطل وأن نبيهم أطهر من السحابة في سمائها وانهم جميعاً ينبعثون من حدود دينهم وفضائله لا من حدود انفسهم وشهواتها واذا سلوا السيف سلوه بقانون واذا أغمدوه أغمدوه بقانون وقالت عن النساء : لأن تخاف المرأة على عفتها من أبيها أقرب من أن تخاف عليها من أصحاب هذا النبي ، فانهم جميعاً في واجبات القلب وواجبات العقل ويكاد الضمير الاسلامي في الرجل منهم يكون حاملاً سلاحاً يضرب صاحبه اذا هم بمخالفته .

وقال أبي : انهم لا يغيرون على الأمم ولا يحاربونها حرب الملك وانما تلك طبيعة الحركة للشريعة الجديدة تتقدم في الدنيا حاملة السلاح والاخلاق وبذلك تكون اسلحتهم نفسها ذات اخلاق) .

ويسترسل الرافعي في سرد قصة الفتح الاسلامي وتعريب مصر الاسلامية فيقول ايضاً : على لسان ارمانوسه بنت المقوقس عظيم القبط في مصر .

(وقال ابي : إن هذا الدين سيندفع باخلاقه في العالم اندفاع العصارة الحية في الشجرة الجرداء ، طبيعة تعمل في طبيعة فليس نمضي غير بعيد حتى تخضر الدنيا وترمي ظلالها وهو بذلك فوق السياسات التي تشبه في عملها الظاهر الملفق ما يُعد كطلاء الشجرة الميتة الجرداء بلون اخضر ...

شتان بين عمل وعمل وان كان لون يشبه لوناً

فاستروحت مارية واطمأنت باطمئنان ارمانوسه وقالت : فلا ضير علينا اذا فتحوا البلد ولا يكون ما نستضربه ؟ .

قالت ارمانوسه: لا ضير يا مارية ولا يكون إلا ما نحب لأنفسنا فالمسلمون ليسوا كهؤلاء العلوج من الروم يفهمون متاع الدنيا بفكرة الحرص عليه والحاجة الى حلاله وحرامه فهم القساة الغلاظ المستكلبون كالبهائم ولكنهم يفهمون متاع الدنيا بفكرة الاستغناء عنه والتمييز بين حلاله وحرامه فهم الانسانيون الرحماء المتعففون .

قالت مارية : وأبيك يا أرمانوسه إن هذا لعجيب ، فقد مات سقراط وأفلاطون وأرسطو وغيرهم من الفلاسفة والحكماء وما استطاعوا أن يؤدبوا بحكمتهم وفلسفتهم إلا الكتب التي كتبوها فلم يخرجوا للدنيا جماعة تامة الانسانية فضلاً عن أمة كما وصفت أنتِ من أمر المسلمين فكيف استطاع نبيهم أن يخرج هذه الأمة وهم يقولون . إنه كان أمياً أفتسخر الحقيقة من كلام الفلاسفة والحكماء وأهل السياسة والتدبير فتدعهم يعملون عبثاً أو كالعبث ثم تستسلم للرجل الأميّ الذي لم يكتب ولم يقرأ ولم يدرس ولم يتعلم ؟

قالت ارمانوسه : ان العلماء بهيئة السماء واجرامها وحساب أفلاكها ليسوا هم الذين يشقون الفجر ويطلعون الشمس وأنا أرى أنه لا بد من أمة طبيعية

بفطرتها يكون عملها في الحياة إيجاد الافكار العملية الصحيحة التي يسير بها العالم وقد درست المسيح وعمله وزمنه فكان طيلة عمره يحاول أن يوجد هذه الأمة غير أنه أوجدها مصغرة في نفسه وحوارييه .

وظهور الحقيقة من هذا الرجل الامي هو تنبيه الحقيقة الى نفسها وبرهانها القاطع أنها بذلك بمظهرها الإلهي) ...] .

ويسير بنا الرافعي الهوينا على هذا الاسلوب القصصي الحواري الأخاذ مفلسفاً هذا الدين الفطري الانساني على لسان ارمانوسه ابنة المقوقس حتى يصل بهذا الحوار الى فلسفة الفتح العربي لمصر ومغزاه .

(فيقول الرافعي) : على لسانها .

[(أما هذا الدين فعلمت من أبي أنه ثلاث عبادات يشد بعضها بعضاً : احداها للأعضاء ، والثانية للقلب ، والثالثة للنفس ، فعبادة الأعضاء طهارتها واعتيادها الضبط وعبادة القلب طهارته وحبه للخير وعبادة النفس طهارتها وبذلها في سبيل انسانية ، وعند أبي أنهم بهذه الأخيرة سيملكون الدنيا ، ولن تقهر أمة عقيدتها ان كان الموت أوسع الجانبين وأسعدهما .

* * *

قال الراوي :

وانهزم الروم عن بلبيس وارتدوا الى المقوقس في (منف) وكان وحي ارمانوسه في ماريــة مدة الحصار – وهو نحو الشهر – كأنه فكر سكن فكراً وتمدد فيه فقد مر ذلك الكلام بما في عقلها من حقائق النظر في الأدب والفلسفة وصنع ما يصنع المؤلف بكتاب ينقحه وأنشأ لها اخيلة تجادلها وتدفعها الى التسليم بالصحيح لانه صحيح والمؤكد لانه مؤكد

---

(١) وحي القلم ص ١٣ جزء أول .

ومن طبيعة الكلام اذا أثر في النفس ان ينتظم في مثل الحقائب الصغيرة التي تلقى للحفظ ، فكان بدء كلام ارمانوسة في عقل مارية هكذا : « المسيح بدء وللبدء تكملة ما من ذلك بد ؛ لا تكون خدمة الانسانية إلا بذات عالية لا تبالي غير سموها . الأمة التي تبذل كل شيء وتتمسك بالحياة جبناً وحرصاً لا تأخذ شيئاً ، والتي تبذل ارواحها فقط تأخذ كل شيء) .. وجعلت هذه هذه الحقائق الاسلامية وأمثالها تعرب هذا العقل اليوناني ، فلما أراد عمرو ابن العاص توجيه ارمانوسة الى أبيها ، وانتهى ذلك الى مارية قالت لها : لا يجمل بمن كان مثلك في شرفها وعقلها أن تكون كالأخيذة ، تتوجه حيث يسار بها ، والرأي ان تبدئي هذا القائد قبل ان يبدأك فارسلي اليه فاعلميه انك راجعة الى ابيك ، واسأليه ان يصحبك بعض رجاله فتكوني الآمرة حتى في الأسر ، وتصنعي صنع بنات الملوك .

قالت ارمانوسة : فلا أجد لذلك خيراً منك في لسانك ودهائك فاذهبي اليه من قبلي وسيصحبك الراهب (شطا) وخذي معك كوكبة من فرساننا .

* * *

قالت مارية ، وهي تقص على سيدتها : لقد أديت اليه رسالتك فقال : كيف ظنها بنا ؟ قلت : ظنها بفعل رجل كريم يأمره اثنان كرمه ودينه . فقال : أبلغيها أن نبينا ﷺ قال : (استوصوا بالقبط خيراً فإن لهم فيكم صهراً وذمة) واعلميها أننا لسنا على غارة نغيرها بل على نفوس نغيّرها .

قالت ارمانوسة : فصفيه لي يا مارية .

قالت : كان آتياً في جماعة من فرسانه على خيولهم العراب كأنها شياطين تحمل شياطين من جنس آخر ، فلما صار بحيث أتبينه أومأ اليه الترجمان وهو (وردان) مولاه فنظرت فاذا هو على فرس كميت أحمّ لم يخلص للاسود ولا

للاحمر ، طويل العنق مشرف له ذؤابـــة أعلى ناصيته كطرة المرأة ، يتبختر بفارسه ويحمحم كأنه يريد ان يتكلم مطهم ..

فقطعت ارمانوسة عليها وقالت : ما سألتك صفة جواده ..

قالت مارية . أما سلاحه ..

قالت : ولا سلاحه .. صفيه كيف رأيته (هو) ؟

قالت : رأيته قصير القامة علامة قوة وصلابة .. وافر الهامة علامة عقل وإرادة .. أدعج العينين ..

فضحكت ارمانوسة وقالت : علامة ماذا ؟

أبلج يشرق وجهه كأنه فيه لألاء الذهب على الضوء أبداً ، اجتمعت فيه القوة حتى لتكاد عيناه تأمران بنظرهما أمراً .. داهية كتب دهاؤه على جبهته العريضة يجعل فيه معنى يأخذ من يراه ، وكلما حاولت ان اتفرس في وجهه رأيت وجهه لا يفسره إلا تكرار النظر اليه .

* * *

ورجعت بنت المقوقس الى ابيها في صحبة قيس ، فلما كانوا في الطريق وجبت الظهر فنزل قيس يصلي بمن معه والفتاتان تنظران . فلمـــا صاحوا ؛ الله أكبر ... ارتعش قلب مارية ، وسألت الراهب (شطا) : ماذا يقولون قال : ان هذه كلمة يدخلون بها صلاتهم كأنما يخاطبون بهـــا الزمن انهم الساعة في وقت ليس منه ولا من دنياهم وكانهم يعلنون انهم بين يدي من هو أكبر من الوجود .

قال الراهب شطا : ولكن هؤلاء المسلمين متى فتحت عليهم الدنياوافتتنوا بها وانغمسوا فيها - فستكون هذه الصلاة بعينها ليس فيها صلاة يومئذ .

قالت مارية وهل تفتح عليهم الدنيا، وهل لهم قواد كثيرون كعمرو ..؟

قال كيف لا تفتح الدنيا على قوم لا يحاربون الأمم بل يحاربون ما فيها من الظلم والكفر والرذيلة ، وهم خارجون من الصحراء بطبيعة قوية كطبيعة الموج في المدّ المرتفع ليس في داخلها الا أنفس مندفعة الى الخارج عنهائم يقاتلون بهذه الطبيعة أمماً ليس في الداخل منها الا النفوس المستعدة لأن تهرب الى الداخل ...

قالت مارية : والله لكأننا ثلاثتنا على دين عمرو ...

ثم قالت للراهب شطا : سله : ما أربهم من هذه الحرب وهل في سياستهم أن يكون القائد الذي يفتح بلداً حاكماً على هذا البلد ...؟

قال قيس : حسبك ان تعلمي ان الرجل المسلم ليس الا رجلاً عاملا في تحقيق كلمة الله أما حظ نفسه فهو في غير هذه الدنيا .

وترجم الراهب كلامه هكذا : أما الفاتح فهو في الاكثر الحاكم المقيم ، واما الحرب فهي عندنا الفكرة المصلحة تريد أن تضرب في الأرض وتعمل وليس حظ النفس شيئاً يكون منه الدنيا وبهذا تكون النفس أكبر من غرائزها ، وتنقلب معها الدنيا برعونتها وحماقتها وشهواتها كالطفل بين يدي رجل فيها قوة ضبطه وتصريفه ولو كان في عقيدتنا أن ثواب اعمالنا في الدنيا لا نعكس الأمر .

قالت مارية : فسله : كيف يصنع (عمرو) بهذه القلة التي معه والروم لا يحصى عددهم : فاذا أخفق (عمرو) فمن عسى أن يستبدلون منه ؟ وهل هو أكبر قوادهم أو فيهم أكبر منه ؟

قال الراوي ولكن فرس قيس تمطر وأسرع في لحاق الخيل على المقدمة كأنه يقول : لسنا في هذا ..

وفتحت مصر صلحاً بين عمرووالقبط ، وولى الروم مصعدين الى الاسكندرية وكانت مارية في ذلك تستقريء اخبار الفـــاتح تطوف منها على أطلال من شخص بعيد ، كان عمرو من نفسها كالملكة الحصينة من فاتح لا يملك إلا حبة ان يأخذها وجعلت تذوى وشحب لونها وبدأت تنظر النظرة التائهة ، وبان عليها أثر الروح الظمأى وحاطها اليأس بجوه الذي يحرق الدم وبدت مجروحة المعاني ، اذ كان يتقاتل في نفسها الشعور ان العدوان شعور أنها عاشقةوشعور أنها يائسة .

ورقت لها إرمانوسة وكانت هي أيضاً تتعلق فتى رومانياً فسهرتا ليـــلة تديران الرأى في رسالة تحملها مارية من قبلها إلى عمرو كي تصل اليـــه فاذا وصلت بلغت بعينيها رسالة نفسها ...

واستقر الأمر ان تكون المسألة عن مارية القبطية وخبرها وتسلمها وما يتعلق بها مما يطول الاخبار به اذا كان السؤال من امرأة عن امرأة

فلما أصبحتا وقع اليها ان عمروا قد سار الى الاسكندرية لقتـــال الروم وشاع الخبر أنه لما أمر بفسطاطه أن يقوّض اصابوا يمامة قد باضت في اعلاه فأخبروه فقال :

(قد تحرمت في جوارنا، اقروا الفسطاط حتى تطير فراخها) فأقروه ..

* * *

ولم يمض غير طويل حتى قضت مارية نحبها . حفظت عنها ارمانوسه هذا الشعر الذي اسمته نشيد اليمامة :

على الفسطاط الامير يمامة جاثمة تحضن بيضها .

تركها الامير تصنع الحياة ، وذهب هو يصنع الموت

هي كأسعد امرأة ترى وتلمس احلامها .

إن سعادة المرأة أولها وآخرها بعض حقائق صغيرة كهذا البيض .

* * *

على فسطاط الامير يمامة جاثمة تحضن بيضها .

الشمس والقمر والنجوم كلها أصغر في عينها من هذا البيض .

هي كأرق امرأة عرفت الرقة مرتين في الحب والولادة هل أكلف الوجود شيئاً كثيراً اذا أردت أن أكون كهذه اليمامة :

على فسطاط الامير يمامة جاثمة تحضن بيضها ...

تقول اليمامة : إن الوجود يحب ان يرى بلونين في عين الأنثى مرة حبيباً كبيراً في رجلها ومرة حبيباً صغيراً في أولادها

كل شيء خاضع لقانونه ، والانثى لا تريد ان تخضع الا لقانونها ...

* * *

أيتها اليمامة ، لم تعرفي الامير وترك لك فسطاطه هكذا الحظ :

عدل مضاعف من ناحية ، وظلم مضاعف في ناحية اخرى احمدي الله أيتها اليمامة ان ليس عندكم لغات وأديان... عندكم فقط الحب والطبيعة والحياة.

* * *

على فسطاط الامير يمامة جاثمة تحضن بيضها .

يمامة سعيدة ستكون في التاريخ كهدهد سليمان .

نسب الهدهد الى سليمان وستنسب اليمامة الى عمرو .

واها لك يا عمرو ما ضر لو عرفت « اليمامة الاخرى »)

في معاني الهجرة من مكة الى المدينة

« إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم قـالوا كنا مستضعفين في الارض قالوا ألم تكن ارض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً » .

« ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الارض مراغماً كثيراً وسعة ومن يخرج من بيته مهاجراً الى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقـد وقع أجره على الله ، وكان الله غفوراً رحيما » .

قرآن كريم

في ضوء آي الله البينات نرى الاسلام في ثورته العارمة ضد العبودية والظلم ، لا يعرف موطناً مسوراً بحدود جغرافية على ظهر الارض عندما تُلجىءُ المسلم ضرورة الهجرة من إقليم الى آخر فراراً بعقيدته الدينية قد ضيق عليهـا في مناخ طاغٍ لا يؤمن بالله ولا بقيم رسله ، أو إبقاء على حرية الانسان الذي قد خلقه الله حراً أن تسلب منه هذه النزعة الانسانية التي هي ملاك وجوده ، او انطلاقاً لحياة أرغد عيشاً وأرحب متنفساً للانسانية .

في هذا الضوء ضرب لنا رسولنـا الأعظم – صلوات الله عليه – المثل الأعلى الذي يحتذى ، عنـدما هاجر من مكة مسقط رأسه ومدرج طفولته ومرتع شبابه والبلد الأثير لدى قلبه .

وعلى خطى محمد ﷺ سار صحبه والعرب الأول ضاربين في فجاج الأرض فاتحين مؤسسين لا شرق عندهم ولا غرب ، ولا بعد ولا قرب ، لا يألون تأريباً ولا إدلاجاً ، ولا يشكون نصباً ولا كلالا ، ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله .. حتى وقف القائد العربي عقبة بن نافع بعد أن فتح شمال افريقيا وأسس مدينة القيروان وقف على شاطىء المحيط قائلا قولته التاريخية :

(أيها البحر ، والله لو أعلم أن وراءك خلقاً لخضتك بفرسي هـذا مجاهداً في سبيل الله) .

ولقد كتب الرافعي في (فلسفة الهجرة النبوية) بروح أسمى من أن تعبر عنه قوالب اللغة فيما تحمل من معانٍ وما توحي به من عظمة الهجرة في التاريخ. فأنت تقرأ هذا الحدث الاسلامي التاريخي الأعظم بأسلوب الرافعي المسلم فينقلك في جو هذا الحدث الإلهي المعجز بروحك وحواسك وعواطفك وفكرك معاً ثم يرتفع بك محلقاً في آفاق روحية أسمى وعالم قدسي أنقى وأعظم .

ففي مقالة (وحي الهجرة) تقرأ إلهاماً إلهياً وفيضاً ربانيـاً أجراه القدر على قلم (مصطفى صادق الرافعي) في هذا الحدث الذي غـيّر مجرى التاريخ البشري وفتح باباً جديداً في سعادة البشرية .

قال الرافعي :

(ان التاريخ ليتكلم بلغة أوسع من ألفاظه اذا قرأه من يقرؤه على أنـه بعض نواميس الوجود صورت فيها النفس الانسانية كيف اعتورت أغراضها ، وكيف بترت في حدّت في نسقها وكيف تغلغلت في مالكها وما تأتى لهـا فجرت به مجراها وما دفعها فانحدرت منه الى مقارهـا ، فهو ليس بكلام تستقبله تقرأ فيه ، ولكنه أحوال من الوجود تعترضها فتغير عليك بإلهامهـا واحلامها ، وتتناولها من ناحية فتتناولك من ناحية اخرى ، فإذا الكلمة من ورائها معنى من ورائه طبيعة من ورائها سبب وحكمة ، واذا كل حادثة فيها

انسانيتها والهيتها معاً واذا الوجود في ذهنك كالساعة يرسم 'لك حد الثانية بخطرتين حد الدقيقة من عدد محدود من الثواني ثم حد الساعة إلى حدّ اليوم واذا البيان في نفسك من كل هذه الحواس، واذا التاريخ فيما تقرؤه 'سنَنٌ' في ظاهره وباطنه يضيء عليك من ألفاظه ومعانيه بظلال هي صلتك انت أيها الحي الموجود بأسرار ما كان موجوداً من قبل .

كذلك قرأت بالأمس تاريخ الهجرة النبوية في كتاب أبي جعفر الطبري لأكتب عنه هذه الكلمة .فلم أكن –علم الله– في كتاب ولا في حكاية ، بل في عالم انبثق في نفس مخلوقاً تاماً بأهله وحوادث أهله وأسرار أهله جميعاً كما يرى المحب حبيبته لا يكون الجميل في محل إلا امتلأ مكانه بعاشقته فهو مكان من النفس والدنيا ، لا من الدنيا وحدها وفيه الحياة كما هي في الوجود بمظهر المادة ، وكما هي في الحب بمظهر الرّوح . وتلك حالة القراءة بالروح والكتابة متى أنت سموت اليها رأيت فيها غير المعنى يخرج معنى ومن لا شيء تخلق أشياء لأنك منها اتصلت باسرار فوقها فيصبح التاريخ معك فنّ الوجود الانساني ! على الوجه الذي افضت به الحكمة الى الحياة لتستمر بالنفس الانسانية لا فنّ علم الناس على الوجه الذي أفضتْ به الحوادث مما بين الحياة والموت] .

ويقف الرافعي بروحه وقفة المؤمن المتأمل الخاشع والفيلسوف المتعمق أمام هذه الفترة التي قضاها محمد الرسول – صلوات الله عليه – في مكة داعياً الى التوحيد وتحطيم آلهة الكفر وتحرير البشر من ربقة العبودية وإقامة موازين العدالة والمساواة بين الناس (كلكم لآدم وآدم من تراب لا فضل لعربي على اعجمي إلا بالتقوى)

فيصمد لأذى قريش ويصبر على المشركين وحقدهم والاسلام بعد لم يزل في بدأته ، واسرته الاولى تعد على اصابع اليد . رجل وامرأة وغلام وحر وعبد وما اجمل واعذب وأدق أن يصف الرافعي هذه الفترة العصيبة في تاريخ

الاسلام ، بان التاريخ كان واقفاً لا يتزحزح وأن محمد كان أخا الشمس يطلع كلاهما وحده كل يوم... حتى كانت الهجرة فبدأت الدنيا تتقلقل كأنما مر — ﷺ — بقدمه على مركزها فحركها ...

وللرافعي فلسفة عميقة أيضاً في هؤلاء النفر الخمسة الذين بنوا للانسانية هذا الصرح الشامخ الخالد من عقيدة الإسلام ونظمه وتشريعاته وحضارته التي وسعت أهل الأرض جميعاً وفي هذه الحقبة التي قضاها الرسول بين ظهراني قومه في مكة وهي ثلاثة عشر عاماً قبل هجرته ، ويعقد الرافعي مقارنة فلسفية بين محمد الرسول ودهاة السياسة وطلاب الحكم وكراسي الملك فيقارن بين نفس ونفس واسلوب واسلوب وغاية وغاية ولندع الآن المجال للرافعي ينضر ارواحنا بنفثات قلمه الملهم ..

يقول الرافعي [1] (نشأ النبي — ﷺ — في مكة واستنبىء على رأس الاربعين من سنه وغبر ثلاث عشرة سنة يدعو إلى الله قبل أن يهاجر إلى المدينة فلم يكن فى الإسلام أول بدأته الا رجل وامرأة وغلام أما الرجل فهو (ﷺ) وأما المرأة فزوجته خديجة وأما الغلام فعلي ابن عمه ابي طالب .

ثم كان أول النمو في الاسلام بحر وعبد : أما الحر فأبو بكر وأما العبد فبلال ، ثم اتسق النمو قليلاً قليلا ببطء الهموم في سيرها وصبر الحر في تجلده. وكأن التاريخ واقف لا يتزحزح ضيق لا يتسع جامد لا ينمو وكأن النبي — ﷺ — أخو الشمس يطلع كلاهما وحده كل يوم حتى اذا كانت الهجرة من بعد ، فانتقل الرسول إلى المدينة ، بدأت الدنيا تتقلقل كأنما مر بقدمه على مركزها فحركها ، وكانت خطواته في هجرته تخط في الأرض ومعانيها تخط في التاريخ وكانت المسافة بين مكة والمدينة ،ومعناها بين المشرق والمغرب.

لقد كان في مكة يعرض الاسلام على العرب كما يعرض الذهب على

---

(١) وحي القلم جزء ثان ص ١٨

المتوحشين يرونه بريقاً وشعاعا ثم لا قيمة له وما بهم حاجة اليه وهو حاجة بني آدم الا المتوحشين ، وكانوا في الحادة والمخالفة الحمقاء والبلوغ بدعوته مبلغ الاوهام والاساطير كما يكون المريض بذات صدر مع الذي يدعوه في ليلة قارة إلى مداواة جسمه بأشعة الكواكب وكانت مكة هذه صخرا حفرافياً يتحطم ولا يلين ، وكأن الشيطان نفسه وضع هذا الصخر في مجرى الزمن ليصد به التاريخ الإسلامي عن الدنيا واهلها .

وأوذي رسول الله (ﷺ) وكذب وأهين ورجف به الوادي يخطو فيه على زلازل تتقلب ، ونابذه قومه وتذامروا فيه ، وحض بعضهم بعضاً عليه وانصفق عنه عامة الناس وتركوه إلا من حفظ الله منهم ، فأصيب كبيراً باليتم من قومه كما أصيب صغيراً باليتم من أبويه .

وكان لا يسمع بقادم يقدم من العرب له اسم وشرف إلا تصدى له فدعاه إلى الله وعرض نفسه عليه ومع ذلك بقيت الدعوة تلوح وتختفي كما يشق البرق من سحابة على السماء : ليس الا ان يرى ثم لا شيء بعد ان يرى .

فهذا تاريخ ما قبل الهجرة في جملة معناه غير أني لم أقرأه تاريخاً بل قرأت فيه فصلاً رائعاً من حكمة الهية وضعه الله كالمقدمة لتاريخ الاسلام في الارض مقدمة من الحوادث والايام تحيا وتمر في نسق الرواية الالهية المنطوية على رموزها واسرارها وتظهر فيها رحمة الله تعمل بقسوة وحكمة الله تتجلى في غموض فلو انت حققت النظر لرأيت تاريخ الاسلام يتأله في هذه الحقبة بحيث لا تقرأه النفس المؤمنة الا خاشعة لانها تصلي ولا تتدبره الا خاضعة كأنها تتعبد .

بدأ الاسلام في رجل وامرأة وغلام ثم زاد حرا وعبدا أليست هذه الخمس هي كل أطوار البشرية في وجودها مخلوقة في الانسانية والطبيعة ومصنوعة في السياسة والاجتماع فها هنا مطلع القصيدة واول الرمز في شعر التاريخ .

ولبث النبي (ﷺ) ثلاثة عشرة سنة لا يبغيه قومه الا شراً على انه دائب يطلب ثم لا يجد ويعرض ثم لا يقبل منه ويخفق ثم لا يعتريه اليأس ويجهد ثم لا يتخونه الملل واستمر ماضياً لا ينحرف، ومعتزماً لا يتحول أليست هذه هي أسمى معاني التربية الانسانية اظهرها الله كلها في نبيه فعمل بها وثبت عليها وكانت ثلاثة عشرة سنة بهذا المعنى كعمر طفل ولد ونشأ وأحكم تهذيبه بالحوادث حتى تسلمته الرجولة الكاملة بمعانيها من الطفولة الكاملة بوسائلها أفليس هذا فصلاً فلسفياً دقيقاً يعلم المسلمين كيف يجب أن ينشأ المسلم غناه في قلبه وقوته في ايمانه وموضعه في الحياة موضع النافع قبل المنتفع والمصلح قبل المقلد وفي نفسه من قوة الحياة ما يموت به في هذه النفس اكثر ما في الارض والناس من شهوات ومطامع ؟.

ثم أليست تلك العوامل الاخلاقية هي هي التي ألقيت في منبع التاريخ الاسلامي ليعب منها تياره فتدفعه في مجراه بين الامم وتجعل من أخص الخصائص الاسلامية في هذه الدنيا — الثبات على الخطوة المتقدمة وان لم تتقدم وعلى الحق وان لم يتحقق والتبرؤ من الاثم، وان شحت عليها النفس واحتقار الضعف وان حكم وتسلط ومقاومة الباطل وان ساد وغلب، وحمل الناس على محض الخير وان ردوا بالشر والعمل للعمل وان لم يأت بشيء والواجب للواجب وان لم يكن فيه كبير فائدة وبقاء الرجل رجلاً وان حطمه كل ما حوله ؟.

ثم هي هي البرهانات القائمة للدهر قيام المنارة في الساحل على نبوة محمد (ﷺ) تثبت ببرهان الفلسفة وعلوم النفس انه روح وغاياتها المحتومة بالقدر لا جسم ووسائله المتغلبة بالطبيعة فلو كان رجلاً أبعثته نفسه لتمحل الحيل السياسية ولا حدث طمعاً من كل مطمع ولركد مع الحوادث وهب ولما استمر طوال هذه المدة لا يتجه وهو فرد إلا اتجاه الانسانية كلها كأنما هو هي .)

بين الرسالة الالهية
والملك والزعامة الأرضية

ويسترسل الرافعي (رضوان الله عليه) في فلسفته هذا الحدث التاريخي الأعظم وما تمخض عنه من مبادىء وقيم وان الرسول (ﷺ) في سنى النبوة الأولى قـد وقف من قومه موقف الراسخ الأشم لا يتزحزح ولا تلين له قناة فيما وجه اليه من ضروب الأذى وألوان السخرية والعداء ، وانه كذلك قد سما بروحه الكبير على كل مساومة عرضها قومه أن يسودوه عليهم حتى لا يُقْتَطَع أمر دون رأيـه ، أو يملكوه عليهم ، أو يجمعو له الأموال حتى يكون اكثرهم مالاً وأوسعهم ثراء ، كل هذه المقومات التي يتصارع عليها طلاب الملك والزعامة في الأرض وتراق الدماء في سبيلها وتصطنع الحيل ، كانت كلها دون غبار قدمه (ﷺ) .

وفي هذا المعنى يقول الرافعي :

[ولو هو[1] كان رجل الملك أو رجل السياسة لاستقام والتوى ولادرك ما يبتغي في سنوات قليلة ولا وجد الحوادث يتعلق عليها ولما أفلت ما كان موجوداً منه يتعلق به ولما انتزع نفسه من محله في قومه وكان واسطة فيهم ولا ترك عوامل الزمن تبعده وهي كانت تدنيه .

(١) وحي القلم جزء ثان ص ٢١ .

قالوا : إن عمه ابا طالب بعث اليـــه حين كلمته قريش فقال له : يا ابن اخي ان قومك قد جاؤني فقالوا لي كذا و كذا فابق عليّ وعلى نفسك ولا تحملني ما لا أطيق وظن رسول الله (ﷺ) أنه قد بدا لعمه فيه بداء وانه خاذله ومسلمه وانه قد ضعف عن نصرته والقيام معه فقال: يا عماه لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن اترك هـــذا الامر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته ثم استعبر (ﷺ) -- فبكى .

يا دموع النبوة لقد أثبت ان النفس العظيمة لن تتعزى عن شيء منهـــا بشيء من غيرها كائناً من كان ، لا من ذهب الارض وفضتها ولا من ذهب السماء وفضتها اذا وضعت الشمس في يد والقمر في الاخرى .

وكل حوادث المدة قبل الهجرة على طولها ليست إلا دليل الزمن على أنه زمن نبي ، لا زمن مَلِكَ أو سياسي أو زعيم ، ودليل الحقيقة على أن هذا اليقين الثابت ليس يقين الانسان الاجتماعي من جهة قوته ، بل يقين الانسان الإلهي من جهـــة قلبه ، ودليل الحكمة على أن هذا الدين ليس من العقائد الموضوعة التي تنشرها عدوى النفس للنفس ، فها هو ذا لا يبلغ أهله في ثلاث عشرة سنة أكثر مما تبلغ أسرة تتوالد في هذه الحقبة ودليل الانسانية على أنه وحي الله بايجاد الاخاء العالمي والوحدة الانسانية – أفلم يكن خروجه عن موطنه هو تحققه في العالم ؟

ثلاث عشرة سنة ، كانت ثلاثة عشر دليلاً تثبت ان النبي (ﷺ) ليس رجل ملك ، ولا سياسة ، ولا زعامة ، ولو كان واحداً من هؤلاء لادرك في قليل ، وليس مبتدع شريعة من نفسه ، والا لما غبر في قومه وكأنه لم يجدهم وهم حوله ، وليس صاحب فكرة تعمل اساليب النفس في انتشارهـــا ، ولو كانت لحملهم على محضها ومزوجها ، وليس رجلا متعلقاً بالمصادفات الاجتماعية ، ولو هو كان لجعل ايمان يوم كفر يوم ، وليس مصلح عشيرة يهذب منهـا على قدر ما تقبل منه سياسةً ومخادعة ، ولا رجل وطن تكون غايته ان يشمخ

في أرضه شموخ جبل فيها دون ان يحاول ما بلغ اليه من اطلاله على الدنيا اطلال السماء على الأرض ولا رجل حاضرة إذ كان واثقاً دائماً ان معه الغد وآتيه وان أدبر عنه اليوم وذاهبه ، ولا رجل طبيعته البشرية يلتمس لها ما يلتمس لها ما يلتمس الجائع لبطنه ولا رجل ضد شخصيته يستهوي بها ويصحب ولا رجل بطشه يغلب به ويتسلط ولا رجل الأرض في الأرض ولكن رجل السماء في الأرض .

هذه هي حكمة الله في تدبيره لنبيه قبل الهجرة : قبض عنه أطراف الزمن وحصره من ثلاث عشرة سنة في مثل سنة واحدة لا تصدر به الامور مصادرها كي تثبت أنها لا تصدر به ، ولا تستحق به الحقيقة لتدل على أنها ليست من قوته وعمله .

وكان (ﷺ) على ذلك – وهو في حدود نفسه وضيق مكانه – يتسع في الزمن من حيث لا يرى ذلك أحد ولا يعلمه وكأنما كانت شمس اليوم الذي سينتصر فيه – قبل ان تشرق على الدنيا بثلاث عشرة سنة – مشرقة في قلبه ، (ﷺ) .

والفصل من السنة لا يقدمه الناس ولا يؤخرونه ، لانه من سير الكون كله والسحابة لا يشعلون برقها بالمصابيح ، ومع النبي من مثل ذلك برهان الله على رسالته الى ان نزل قوله تعالى : (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله) فحل الفصل وانطلقت الصاعقة وكانت الهجرة .

تلك هي المقدمة الآلهية للتاريخ ، وكان طبيعياً ان يطّرد التاريخ بعدها ، حتى قال الرشيد للسحابة وقد مرت به : امطري حيث شئت فسيأتيني خراجك] .

البَابُ الثَاني

في

اعجاز القرآن

والجمال الفني في البلاغة النبوية

في إعجاز القرآن وسمو البلاغة النبوية

لعل أبرز طابع اسلامي يتسم به أدب الرافعي ويميزه بالسبق والتفرد بين ادباء عصره بل بين أدباء العربية وفقهائها والثقات من علمائها هو ما كتبه الرافعي « في اعجاز القرآن والبلاغة النبوية » وهو كتاب جامع مانع في فصوله وأبوابه المترعة وان كثيراً من ادباء العربية وعلمائها لا يعترفون بصنيع الرافعي على الأدب يستحق الخلود وأياد له على العربية والدراسات الاسلامية بوأته مكانة لا ينافسه فيها منافس ممن كتبوا في اعجاز القرآن والبلاغة النبوية وحسبه ما كتبه رائد الوطنية سعد زغلول تقريظاً لكتابه هذا بقوله « بيان كأنه تنزيل من التنزيل أو قبس من نور الذكر الحكيم » .

ولقد علل الأديب الراحل صديق الرافعي الاستاذ العريان في كتابه « حياة الرافعي » سر هذا النبوغ العبقري في كتابة الرافعي في هذا اللون بقوله ..

وكانت له [1] عناية واحتفال بموسيقية القول حتى ليقف عند بعض الجمل من انشائه برهة طويلة يحرك بها لسانه حتى يبلغ بها سمعه الباطن ثم لا يجد لها موقعاً من نفسه فيردها وما بها من عيب يبدل بها جملة تكون اكثر رنيناً وموسيقى . وكان له ذوق فني خاص في اختيار كلماته يحسه القارىء في

(١) حياة الرافعي للعريان ص ١٨٤

جملة ما يقرأ من منشآته وكنت أجد الاحساس به في نفسي عند كل كلمة وهو يملي علي، هذا الذوق الفني الذي اختص به هو الذي هيأه إلى أن يفهم القرآن ويعرف اسرار اعجازه في كل آية وكل كلمة من آية وكل حرف من كلمة، وحسب القارىء أن يعود إلى تفسير الرافعي لقوله تعالى (وراودته [1] الذي هو في بيتها عن نفسه ليرى نموذجاً من هذا الذوق في اختيار الفاظه عند الانشاء وكان المامه بمتن اللغة واحاطته بأساليب العربية ومعرفته بالفروق اللغوية في مترادف الكلام – معينة له عوناً كبيراً على البلوغ بعبارته هذا المبلغ من البيان الرفيع .

ومع حرصه على أن يكون قوي العبارة عربي الديباجة قلما كان يستعمل عبارة من عبارات الأولين وكم أجدّ على العربية من اساليبه ومعانيه وكان له في انشاء (الكتابة) إحساس دقيق واحسب لو أن واحداً من أهل البيان أراد أن يتتبع ما اجدّ الرافعي على العربية من اساليب القول لاخرج قاموساً من التعبير الجميل يعجز أن يجد مثله لكاتب من كتاب العربية الأولين اذ كان مذهب « الرافعي » في الكتابة هو أن يعطي العربية أكبر قسط من المعاني ويضيف ثروة جديدة الى اللغة وقد بلغ ما اراد) .

وحسبي ان اسجل بايجاز للقراء – لوناً من تفسير الرافعي لبعض آيات الله المحكمات جاءت شتاتاً في مقالات متفرقة في مؤلفات الرافعي في حينها وبإسبابها ، وهي بكيفها لا بكمها تكشف عن مدى العمق العبقري والإلهام الإلهي والاصالة البلاغية في بيان أسرار القرآن وجلاء اعجازه وسحره واستنباط أجل أحكامه وعلى من أراد الاستزادة من هذه الروافد الرافعية فليرجع اليها في مستقرها من المصادر الأصلية لا سيما كتاب الرافعي (إعجاز القرآن والبلاغة النبوية) والرافعي منهجه في تفسير آي الله سبحانه وحديث رسوله الكريم منهج العالم

---

(١) « سورة يوسف عليه السلام »

اللغوي المجتهد والفقيه الملهم المستنبط والأديب الفيلسوف النافـــذ بحساسيته البيانية الى ما وراء المنظور ..

وبكل هذه الملكات متضافرة متعاونة مسيطراً عليها ضابط الايمان المتغلغل في أعماق نفسه وأغوار روحه بلغ الرافعي ما بلغ من معـاني السمو في التربية والأدب الديني الهادف الى التهذيب والايمان القوي .

وهاكم بعض هذه النصوص كنماذج من منهج الرافعي في التفسير أوردها نجوماً في بعض مقالاته حسب مقتضياتها وأسبابها فيما عالج من تربيـــة ضمير أمته والبلوغ بها الى الكمال البشري . ففي قصة (سمو الحب) وهي احدى قصصه الديني التي انتظمها كتابه وحي القلم أجرى تفسيراً على لسان احد ابطالها وهو عطاء بن أبي رياح مفتي مكة والذي قام بدوره في القصة تأثـيراً على بعض شخصياتها عبد الرحمن بن عمار الملقب بالقسّ الذي أحب (سلامه) المغنية الشاعرة في العصر الأموي حباً سجله التاريخ في دنيا المحبين العذريين.. فيقول الرافعي وقد أجرى تفسير هذه الآية في قصة يوسف عليه السلام .

يوسف وامرأة العزيز في الأدب الديني الرافعي

يقول الرافعي :

(ولما كان غد جاء الناس أرسالاً الى المسجد حتى اجتمع منهم الجمع الكثير قال عبدالرحمن بن ابي عمار : وكنت رجلاً شاباً من فتيان المدينة وفي نفس من الدنيا ومن هوى الشباب ، فغدوت مع الناس وجئت وقد تكلم ابو محمد وأفاض قال « وكان مجلسه في قصة يوسف عليه السلام ووافقته وهو يتكلم في تأويل قوله تعالى .. وراودته التي هو في بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت : هيت لك . قال : معـــاذ الله انه ربي أحسن مثواي انه لا يفلح الظالمون ، ولقد همّت به وهمّ بها لولا ان رأى برهان ربه ، كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء »

قال عبدالرحمن : فسمعت كلاماً قدسياً تضع له الملائكة أجنحتهـــا من رضىً وإعجاب بفقيه الحجاز حفظت منه قوله[1] :

عجباً للحب . هذه ملكة تعشق فتاها الذي ابتاعه زوجها بثمن بخس . ولكن أين ملكها في تصوير الآيـــة الكريمة ؟ لم تزد الآية على أن قالت (وروادته التي) و (التي) هذه كلمة تدل على كل امرأة كائنة من كانت . فلم يبق على الحب ملك ولا منزلة وزالت الملكة من الانثى .

وأعجب من هذا كلمة (وراودته) وهي بصيغتها المفردة حكاية طويلة تشير إلى أن هذه المرأة جعلت تعترض يوسف بألوان من انوثتها لون بعد لون ذاهبة الى فن راجعة الى فن لان الكلمة مأخوذة من « رودان » الابل في مشيتها تذهب وتجيء في رفق وهذا يصور حيرة المرأة العاشقة واضطرابها في حبها ومحاولتها أن تنفذ الى غايتها كما يصور كبرياء الأنثى اذ تختال وتترفق في عرض ضعفها الطبيعي كأنما الكبرياء شيء آخر غير طبيعتها فمهما تتهالك على من تحب وجب أن يكون لهذا (الشيء الآخر) مظهر امتناع أو مظهر تحرر أو مظهر اضطراب وان كانت الطبيعة من وراء ذلك مندفعة ماضية مصممة . ثم قال : (عن نفسه ليدلّ على انها لا تطمع فيه ولكن في طبيعته البشرية فهي تعرض ما تعرض لهذه الطبيعة وحدها وكأن الآية مصرحة في أدب سامٍ كل السمو منزه غاية التنزيه بما معناه « أن المرأة بذلت كل مـــا تستطيع في إغوائه وتصبيه مقبلة عليه ومتدللة ومبتذلة ومنصبة مر كل جهة بمـــا في جسمها وجمالها على طبيعته البشرية وعارضة كل ذلك عرض امرأة خلعت - أول ما خلعت امام عينيه ثوب الملك) .

ثم قال (وغلقت) ولم يقل (أغلقت) وهذا يشعر انها لما يئست ورأت منه محاولة الانصراف اسرعت في ثورة نفسها مهتاجة تتخيل القفل الواحد اقفالاً عدة وتجرب من باب الى باب وتضطرب يدها في الاغلاق كأنما تحاول سدّ الابواب لا إغلاقها فقط « وقالت هيت لك » ومعناها في هذا الموقف

(١) وحي القلم ج ١ ص ١٠٦

أنّ اليأس قد دفع بهذه المرأة الى آخر حدوده فانتهت الى حالة من الجنون بفكرتهـــا الشهوانية ولم تعد لا ملكة ولا امرأة بل انوثة حيوانية صرفة متكشفة مصرحة كما تكون انثى الحيوان في أشد اهتياجها وغليانها .

هذه ثلاثة أطوار يترقى بعضها من بعض وفيها طبيعة الانوثة نازلة من اعلاها الى اسفلها فاذا انتهت المرأة الى نهايتهـــا ولم يبق وراء ذلك شيء تستطيعه أو تعرضه بدأت من ثم عظمة الرجولة السامية المتمكنّة في معانيها فقال يوسف (معاذ الله) ثم قال : (إنه ربي احسن مثواي) ثم قال (إنه لا يفلح الظالمون). وهذه أسمى طريقة الى تنبيه ضمير المرأة في المرأة إذ كان اساس ضميرها في كل عصر هو اليقين بالله ومعرفة الجميل وكراهة الظلم ولكن هذا التنبيه المترادف ثلاث مرات لم يكسر من نزوتها ولم يفتأ تلك الحِدّة فان حبها كان قد انحصر في فكرة واحدة اجتمعت بكل اسبابها في زمن في مكان في رجل فهي فكرة محتبسة كأن الابواب مغلقة عليهـــا أيضاً . ولهذا بقيت المرأة ثائرة ثورة نفسها وهنا يعود الأدب الالهي السامـــي الى تعبيره المعجز فيقول (ولقد همّت به) كأنما يومىء بهذه العبارة الى أنها ترامت عليه وتعلقت به والتجأت الى وسيلتها الأخيرة وهي لمس الطبيعة بالطبيعـة لإلقاء الجمرة في الهشيم ..

جاءت العاشقة في قضيتها ببرهان الشيطان الذي يقذف به في آخر محاولة، وهنا يقع ليوسف عليه السلام برهان ربه كما وقع لها برهان شيطانهـــا فلولا برهان ربه لكان هم بها ولكان رجلا من البشر في ضعفه الطبيعي .

قال أبو محمد : وهاهنا هاهنا المعجزة الكبرى لأن الآية الكريمة تريـد الا تنفي عن يوسف عليه السلام فحولة الرجولة حتى لا يُظَنّ به ثم هي تريد من ذلك أنْ يتعلم الرجال وخاصة الشبان منهم كيف يتسامون بهذه الرجولة فوق الشهوات حتى في الحالة التي هي نهاية قدرة الطبيعة حالة ملكة مطاعة فاتنة عاشقة مختلية متعرضة متكشفة متهالكة . هنا لا ينبغي أن ييأس الرجل فان

الوسيلة التي تجعله لا يرى شيئاً من هذا هي أن يرى برهان ربه ، وهذا البرهان يؤوله كل انسان بما شاء فهو كالمفتاح الذي يوضع في الأقفال كلها فيفضها كلها . فإذا مثل الرجل لنفسه في تلك الساعة أنه هو وهذه المرأة منتصبان أمام الله يراهما وأن أماني القلب تهجس فيه فيه ويظنها خافية إنما هي صوت عال يسمعه الله واذا تذكر انه سيموت ويقبر وفكر فيا يصنع الثرى في جسمه هذا أو فكر في موقفه يوم تشهد عليه أعضاؤه بما كان يعمل أو فكّر في أن الاثم الذي يقترفه الآن سيكون مرجعه عليه في اخته أو بنته اذا فكر في هذا ونحوه رأى برهان ربه يطالعه فجأة كما يكون السائر في الطريق غافلاً مندفعاً الىهاوية ثم ينظر فجأة فيرى برهان عينه أترونه يتردى في الهاوية حينئذ أم يقف دونها وينجو ؟ احفظوا هذه الكلمة الواحدة التي فيها أكثر الكلام وأكثر الموعظة وأكثر التربية والتي هي كالدرع في المعركة بين الرجل والمرأة والشيطان، كلمة.. (رأى برهان ربه) ...

قال عبد الرحمن بن عبدالله وهو يتحدث الى صاحبه سهيل بن عبد الرحمن. ولازمت الامام بعد ذلك واجمعت ان اتشبه به واسلك في طريقه من الزهد والمعرفة ثم رجعت الى المدينة وقد حفظت الرجل في نفسي كما احفظ الكلام وجعل شعاري في كل نزعة من نزعات النفس هذه الكلمة العظيمة (رأي برهان ربه) فما ألممت بأثم قط ولا دانيت معصية ولا رهقني مطلب من مطالب النفس الى يوم الناس هذا . وأرجو أن يعصمني الله فيما بقي . فان هذه الكلمة ليست كلمة وإنما هي كأمر من السماء تحمله تمر به آمناً على كل معاصي الارض فما يعترضك شيء منها ان معك خاتم الملك تجوز به .

قال سهيل : فلهذا لقبك أهل المدينة «بالقس» لعبادتك وزهدك وعزوفك عن النساء وقليل لك — والله — يا أبا عبدالله فلو قالوا : ما هذا بشراً إن هذا الا ملك لصدقوا) .

والرافعي عالم أديب يعيش في القرن العشرين ولكن روحه المسلم القوي يتصل بما وراء القرون فيعيش مع التابعين في صدر الاسلام فيتكلم بروحهم

ويتحدث بحديثهم وكانما هو ترب للامام سعيد بن المسيب والامـــام الحسن البصري وهؤلاء الأعـــلام من رجـــالات الاسلام في عصره الذهبي . استمع الى الرافعي يفسر باسلوبه على لسان الامام سعيد بن المسيب (في قصة زواج وفلسفة المهر) قوله تعالى : « وما لنا الا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ولنصبرنّ على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون) فيقول الرافعي:

(إذا هدى [1] المرء سبيله كانت السبل الاخرى في الحياة اما عداء له واما معارضة واما رداً ، فهو منها في الأذى أو معنى الاذى أو عُرضـــة للاذى ولقد وجد الطريق ولكنه اصاب العقبات أيضاً وهذه حالة لا يمضي فيها الموفق الى غايته الا اذا أعانه الله بطبيعتين . أولاهما العزم الثابت وهذا هو التوكل على الله والاخرى اليقين المستبصر وهذا هو الصبر على الأذى .

ومتى عزم الانسان ذلك العزم وأيقن ذلك اليقين – تحولت العقبات التي تصده عن غايته فآل معناه أن تكون زيادة في عزمه ويقينه بعد ان وضعه ليكون نقصاً منهما فترجع العقبات بعد ذلك وإنها لوسائل تعين على الغاية وبهذا يبسط المؤمن روحه على الطريق فما بد ان يغلب على الطريق وما فيها. ينظر الى الدنيا بنور الله فلا يجد الدنيا شيئاً على سعتها وتناقضها – الا سبيله وما حول سبيله فهو ماض قُدُماً لا يتراد ولا يفتر ولا يكل وهذه حقيقة العزم وحقيقة الصبر جميعاً فمن ثم لا تكون الحياة لهذا المؤمن مهما تقلبت واختلفت – الا نفاذاً من طريق واحدة دون التخبط في الطرق الاخرى ثم لا يكون العمر مهما طال الا مدة صبر في رأي المؤمن . وعزيمة النفاذ وعزيمة الصبر هما الضوء الروحاني القوي الذي يكتسح ظلمات النفس مما يسميه الناس خمولاً ودعة وتهاوناً وغفلة وضجراً ونحوها .

قال : ولكن كيف يعان المؤمن على هذه المعجزات النفسية ؟ هنا يتبين

---

(١) وحي القلم جزء أول ص ٢

اعجاز الآية الكريمة فقد ذكر فيها التوكل ثلاث مرات وافتتحت به وختمت والتوكل هو العزم الثابت كما أوضحنا وذكرت في الآية بعد ذلك هداية المرء سبيله وهذه الاضافة (سبلنا) تعين انها هداية الانسان إلى سبيله الباطني الذي هو مناط السعادة ثم ذكر الصبر على أذى الناس والاذى لا يقع الا في حيوانيـــة الانسان ولايؤثر فيها فكأن الآية مصرحة أن نجاح المؤمن ونفاذه في الحياة لا يكونان اولى الاشياء واخرها الا بثلاث : العزم الثابت ثم العزم الثابت ثم العزم الثابت وان الصبر ليس شيئاً يذكر . او شيئاً يجدي ان لم يكن صبراً على أذى الحيوانية في أفظع وحشيتهـــا فالروح لا تؤذي الروح ولكن الحيوان يؤذي الحيوان وان ما يقع من هذه الحيوانية فيسمى اعتداء من غيرك ويسمى أذىً ذلك هو شيء يجعله العزم فخراً لقوة الاحتمال فيك كما جعله البطش فخراً للقدرة على المعتدي . وبهـــذا يكون العزم قد فصل بين نفسك الروحية وبين شخصك الحيواني ووهبك حقيقة الشعور وصحح بمعاني روحانيتك معاني حيوانيتك وحينئذ ترى السعادة حق السعادة ما كان هداية لنفسك أو هداية بها ولو انقلب في الشخص الحيواني منك أذى وألماً ذلك عزم أولي العزم من الرسل] .

هجمات الرافعي على الملحدين والمارقين في عصره

ولعل القدر العادل هو الذى أعد الرافعي هـــذا الإعداد المحكم للذود عن حياض الاسلام والعربية في هذا العصر الذي استهدف فيه الاسلام لغمزات المارقين والملحدين والهدّامين ممن بلغت بهم الجرأة على الله سبحانه والأديان أن يجعلوا نصوص القرآن في موضع الشك أو المقارنة البلاغية بين الذكر الحكيم المنزل والأساليب العربية . ومن أراد أن يعرف الكثير من أمثـــال هذه المهاترات والزيغ والالحاد من بعض ادبائنا وكتابنا فليرجع الى حياة الرافعى للأديب الراحل (الأستاذ سعيد العريان) . وليعلم بالتفصيل الأسبـــاب التي

دعته الى تأليف (تحت راية القرآن[1]) (وإعجاز القرآن) والمعارك التي خاضها مع المنحلين والمتحللين من ادباء جيله ... ولقد بلغ بأحد الكتاب ان يعقد مقارنة بين قوله تعالى (ولكم في القصاص حياة) وبين عبارة (القتل انفى للقتل) ... وهذا نص ما كتبه العريان في حياة الرافعي .

(لقد كان السيد حسين القاياتي يكتب في جريدة « كوكب الشرق » كلمات في موضوعات شتى من وحي الساعة وخواطر الحياة فبدا له يوماً أن يكتب في الموازنة بين قوله تعالى (ولكم في القصاص حياة) وقول العرب «القتل انفى للقتل» ... فانزلق الى رأي ولم يكن الرافعي يواظب يومئذ على قراءة كوكب الشرق وجاء البريد ذات صباح الى «الرافعي» برسالة من صديقه الاستاذ محمد محمود شاكر يلفت نظره الى ما كتب الاستاذ القاياتي والى ضلاله في تفضيل الكلمة الجاهلية على آية القرآن، ورفع (الرافعي) برسالة شاكر الي وهو يقول أتصدق هذا أيجرؤ أحد أن يقولها ثم بعث (الرافعي) في طلب الجريدة التي نشرت هذه الضلالة فجيء بها فما كاد يقرأها حتى اربدّ وجهه وبدا عليه الغيظ والانفعال ودار لسانه بين شدقيه بكلام .

ثم أنشأ مقاله الذي نشر في جريدة البلاغ في الصفحة الادبية بعنوان

« كلمة مؤمنة في رد كلمة كافرة » [1]

والتي نشرت فيما بعد في كتاب وحي القلم الجزء الثالث . ولقد رأيت من الامانة العلمية والادبية نقل ما كتبه القاياتي نصاً في هذه الضلالة قال :

قالت العرب قديماً في معنى القصاص : (القتل انفى للقتل) ثم أقبل القرآن الكريم على آثار العرب (هكذا) فقال : « ولكم في القصاص حياة

---

(١) ألفه رداً على الدكتور طه حسين عندما قال رأيه في الشعر الجاهلي والقرآن وجعل نصاً من نصوص القرآن في موضع الشك ، حياة الرافعي ، فصل : بين الدكتور طه والرافعي .

(١) وحي القلم جزء ثالث ص ٤٦٧

يا أولى الألباب لعلـكم تتقون » وقد مضت سنة العلماء من أساطين البيان ان يعقدوا الموازنة بين مقالة العرب وبين الآية الحكيمة أيتهما أشبه بالفصاحة (هكذا) ثم يخلصون منها الى تقديم الآية والبيان القرآني ثم قال : من رأي كاتب هذه الكلمة تقديم الكلمة العربية على الآية الغراء (اللهم غفرا) على ثلج الصدر بإعجاز القرآن (كلمة للوقاية من النيابة ... والا فماذا بقي من الاعجاز وقد عجزت الآية ؟ زه زه يا رجل ...)

ثم قال : « ان فيما تقدم به الكلمة العربيةعلى الآية الحكيمة (اللهمغفرا) مزايا ثلاثاً : أولى هذه المزايا الثلاث هذا الايجاز الساحر فيها : ذلك أن (القتل أنفى للقتل) ثلاث كلمات لا أكثر اما الآية فانها سبع كلمات(كذا) وعلى تلك فهي أقدم عهداً وأسبق ميلاداً من آية التنزيل (تأمل) حاشا كلام الله القديم والايجاز ميزة أية ميزة . الميزة الثانيـــة للكلمة الاستقلال الكتابي وفقد التعاقد بينها وبين شيء آخر سابق عليها حتى أن التمثل بها المستشهد بها جديثاً مستتماً ويختتمه في غير مزيد ولا فضل فلا يتوقف ولا يستعين بغيرها : أما الآية فانها منسوقة مع ما قبلهـــا بالواو فهي متعاقدة مترابطة معه . لا يتمثل بها المتمثل حتى يستعين بشيء سواها وليس الذي يعتمد على غيره فلا يستقل كالذي يعتمد على نفسه فيستقل . الميزة الثالثة ان الكلمة ليست متصلة في آخرتها بفضل من القول تغنى عنه على حين تتصـــل الآية بما تغنى عنه من القول ويعتد كالفصل وهو كلمتا « يا أولى الألبــاب » و « لعلـكم تتقون » وان كان لا زيادة في القرآن ولا فضول .

وانتضى (الرافعي) المؤمن قلمه الملهم ليدمغ هذا الزيغ في العقيدة وهذا الثلـم في التفكير وهذا الخلل في المنطق ورد بهذا .. فيقول الرافعي :

« ونحن نستغفر الله ونستعينه ونقول[1] قولنا ولكنا نقدم بين يديذلك

---

(١) وحي القلم جزء ثالث ص ٤٦٧

مسئلة فمن أين للكاتب أن كلمة (القتل أنفى للقتل) مما صحت نسبته الى عرب الجاهلية ، وكيف له أن يثبت اسنادها اليهم وأن يوثق هـذا الاسناد حتى يستقيم قوله أن القرآن أقبل على آثار العرب .

أنا أقرر أن هذه الكلمة مولدة وضعت بعد نزول القرآن الكريم وأخذت من الآية والتوليد بيّن فيها وأثر الصنعة ظاهر عليها ، فعلى الكاتب ان يدفع هذا مما يثبت أنها مما صح نقله عن الجاهلية ، ولقد جاء أبو تمام بأبدع وأبلغ من هذه الكلمة في قوله :

وأخافكم كي تغمدوا أسيافكم   إن الدم المغبرّ يحرسه الدم

(الدم يحرسه الدم) هذه هي الصناعة وهذه هي البلاغة لا تلك . ومع هذا فكلمة الشاعر مولدة من الآية ، يدل عليها البيت كله وكأن أبا تمام لم يكن سمع قولهم (القتل أنفى للقتل) ، وأنا متيقن أن الكلمة لم تكن وُضعت الى يومئذ .

ولو أن متمثلاً أراد ان يتمثل بقول أبي تمام فانتزع منه هذا المثل (الدم يحرسه الدم) أيكون حتماً من الحتم ان يقال له : كلا يا هذا فان البيت سبع كلمات فلا يصح انتزاع المثل منه ، ولا بد من قراءة البيت بمصراعيه كما يقول كاتب الكوكب في الآية الكريمة ليزعم انها لا تقابل الكلمة العربية في الايجاز ؟

إن الذي في معاني الآية القرآنية مما ينظر الى معنى قولهم (القتل أنفى للقتل) كلمتان ليس غير وهما (القصاص ، حياة) والمقابلة في المماثلة انما تكون بالالفاظ التي تؤدي هذه المعاني دون ما تعلقت به او تعلق بها مما يصل المعنى بغيره او يصل غيره به . اذ الموازنة بين معنيين لا تكون إلا في صناعة تركيبها ، ويخيل إليّ أن الكاتب يريد أن يقول ان باقي الآية الكريمة لغو وحشو فهو حيلة على الكلمتين : القصاص حياة ، يريد ان يقولها ولكنه غص

بها وإلا فلماذا يلح في انه لا بد في التمثل أي لا بد في المقابلة من رد الآيـة بألفاظها جميعها ؟

فاذا قيل انه لا يجوز ان يتغير الاعراب في الآية ويجب ان يكون المثل منتزعاً منها على التلاوة قلنا : فان ما يقابل الكلمة منها حينئذ هو هـذا . « وفي القصاص حياة » وجملتها اثنا عشر حرفاً مع ان الكلمة العربية اربعة عشر . فالايجاز عند المقابلة هو في الآية دون الكلمة . واما قوله تعـالى : «يا أولي الألباب لعلكم تتقون» فلو كان الكاتب منأولي الألباب لفهمها وعرف موقعها وحكمتها وان اعجاز الآية لا يتم إلا بها إذ أريد ان تكون معجزة زمنية كما سيشير اليه . ولكن انى له وهو من الفن البياني على هـذا البعد السحيق لا يعلم ن آيات القرآن الكريم كالزمن في نسقها ما فيه من شيء يظهره الاومن ورائه سر يحققه .

ثم إن الايجاز في الكلمة العربية ليس من « الايجـاز الساحر » كما يصفه الكاتب بل هو عندنا من الايجاز الساقط وليس من قبيل ايجاز الآية الكريمة ولا يتعلق به فضلاً عن ان يشبهه إذ لا بد في فهم صيغة التفضيل من تقدير المفضل عليه فيكون المعنى (القتل أكثر نفيا من كذا « فما هو هذا الكذا » ايها الكاتب المتعثر ؟

بهذا الرد الموجز بطلت الميزات الثلاث التي زعمها الكاتب لتلك الكلمة وان الكلمة نفسها لتبرأ إلى الله من أن تكون لها على الآية ميزة واحـدة فضلا عن ثلاث .

ولنفرض « فرضاً » أن الكلمة وثيقة الاسناد إلى عرب الجاهلية وانهـا من بيانهم فما الذي فيها ؟

١ — انها تشبه قول من يقول لك : إن قتلت خصمك لم يقتلك . وهل هذا الا هذا ؟ وهل هو الا بلاغة من الهذيان ؟

٢ – أنها تشبه ان تكون لغة قاطع طريق عارم يتوثب على الحلال والحرام لا يخرج لشأنه الا مقرراً في نفسه أنه اما قاتل أو مقتول . ولذلك تكرر فيها القتل على طرفيها فهو من اشنع التكرار وأفظعه

٣ – إن فيها الجهل والظلم والهمجية اذ كان من شأن العرب ان لا تسلم القبيلة الجاهلية قاتلا منها بل تحميه وتمنعه فتنقلب القبيلة كلها قاتلة بهذه العصبية فمن ثم لا ينفي عار القتل عن قبيلة المقتول الا الحرب والاستئصال قتلا قتلا وأكل الحياة للحياة فهذا من معاني الكلمة : أي القتل أنفى لعار (القتل) فلا قصاص ولا قضاء كما يزعم الكاتب .

٤ – ان القتل في هذه الكلمة لا يمكن ان يخصص بمعنى القصاص الا اذا خصصته الآية فيجيء مقترنا بها فهو مفتقر اليها في هذا المعنى وهي تلبسه الانسانية كما ترى ولن يدخله العقل الا من معانيها وهذا وحده إعجاز في الآية وعجز من الكلمة .

هذا نقد (للرافعي) للكلمة (القتل انفى للقتل) تناوله رداً على الكاتب المارق « القاياتي » وتلمس في هذا الكلام نقداً بصيراً بأساليب العربية ذوقاً ودراسة وعلماً بمواطن الاعجاز في آي (القرآن الكريم) المعجز ، كما تلمس كذلك احاطة (الرافعي) في فهم الاساليب العربية وردها الى عصورها وجوها النفسي الأدبي من الزمان والمكان بوحي السليقة وحاسة الإلهام (والرافعي بعد يكشف لنا عن مواطن الاعجاز في الآية الكريمة وسمو التعبير الدقيق الذي تتقاصر دونه عقول البشر ، فيقول وفي قوله فلسفة البلاغة على نحو غالب من انحائها واسرارها العليا ، يقول (الرافعي) :

(وقبل أن نبين وجوه الاعجاز في الآية الكريمة ونستخرج اسرارها نقول لهذا الطفيلي: انه ليس كل من استطاع ان يطير في الجوورقة في قصبة في خيط - جاز له أن يقول في تفضيل ورقته على منطاد زبلين وان فيما تتقدم به على

المنطاد الكريم مميزات ثلاثاً الذيل والورق الملون والخيط ...

يقول الله تعالى (ولكم في القصاص حياة)

١ – بدأ الآية بقوله (ولكم) وهذا قيد يجعل هذه الآية خاصة بالانسانية المؤمنة التي تطلب كمالها في الايمان وتلتمس في كمالها نظام النفس وتقرر نظام الحياة فإذا لم يكن هذا متحققاً في الناس فلا حيـــاة في القصاص بل تصلح حينئذ كلمة الهمجية . القتل انفى للقتل . اي اقتلوا اعداءكم ولا تدعوا منهم احداً فهذا هو الذي يبقيكم أحياء وينفي عنكم القتل : فالآية الكريمة بدلالة كلمتها الأولى موجهة الى الانسانية العالية لتوجه هذه الانسانية في بعض معانيها الى حقيقة من حقائق الحياة

٢ – قال « في القصاص » ولم يقل في القتل فقيده بهـذه الصيغة التي تدل على انه جزاء ومؤاخذة فلا يمكن ان يكون منه المبادأة بالعدوان ولا ان يكون منه ما يخرج عن قدر المجازاة قل أو كثر .

٣ – تفيد هذه الكلمة (القصاص) بصيغتها (صيغة المفاعلة) مــا يشعر بوجوب التحقيق وتمكين القاتل من المنازعة والدفاع والا يكون قصاص الا باستحقاق وعدل ولذا لم يأت بالكلمة من اقتص مع انها اكثر استعمالاً لأن الاقتصاص شريعة الفرد والقصاص شريعة المجتمع .

٤ – من اعجاز لفظة القصاص هذه ان الله تعالى سمى بها قتل القاتل فلم يسمه قتلاً كما فعلت الكلمة العربية لأن أحد القتلين هو جريـمة واعتداء فنزه سبحانه العدل الشرعي حتى شبهه بلفظ الجريمة : وهذا منتهى السمو الأدبي في التعبير .

٥ – ومن اعجاز هذه اللفظة أنها باختيارها دون كلمة القتل تشير الى أنه سيأتي في عصور الانسانية العالمة المتحضرة عصر لا يرى فيه قتل القاتل بجنايته إلا شراً من قتل المقتول: لان المقتول يهلك بأسباب كثيرة مختلفة على حين أن

أخذ القاتل لقتله ليس فيه الا نية قتلة فعبرت الآية باللغة التي تلائم هذاالعصر القانوني الفلسفي وجاءت بالكلمة التي لن تجد في هذه اللغة ما يجزىء عنها في الاتساع لكل ما يراد بها من فلسفة العقوبة .

٦ – ومن اعجاز اللفطة انها كدلك تحمل كل ضروب القصاص من القتل فما دون وعجيب ان تكون بهذا الاطلاق مع تقييدها بالقيود التي مرت بك فهي بذلك لغة شريعة آلهية على الحقيقة في حين أن كلمة القتل في المثل العربي تنطق في صراحةانها لغة الغريزة البشرية باقبح معانيها. ولذلك كان تكرارها في المثل كتكرار الغلطة ، فالآية بلفظة (القصاص) تضعك أمام الالوهية بعدلها وكالها والمثلبلفظة (القتل) يضعك أمام البشرية بنقصها وظلمها .

٧ – ولا تنس أن التعبير بالقصاص تعبير يـــدع الانسانية محلها اذا هي تخلصت من وحشيتها الأولى وجاهليتها القديمة فيشمل القصاص أخذ الديـــة والعفو وغيرهما : اما المثل فليس فيه إلا حالة واحدة بعينها كأنه وحش ليس من طبعه إلا أن يفترس .

٨ – جـــاءت لفظة القصاص معرفة بأداة التعريف لتدل على أنه مقيد بقيوده الكثيرة إذ هو في الحقيقة قوة من قوى التدمير الانسانية فلا تصلح الانسانية بغير تقييدها .

٩ – جاءت كلمة (حياةٌ) منونة لتدل على أن ههنا ليست حياة بعينها مقيدة باصطلاح معين فقد يكون في القصاص حياة اجتماعية وقد يكون فيه حياة سياسية وقد تكون الحياة أدبية وقد تعظم في بعض الأحوال على أن تكون حياة .

١٠ – ان لفظ(حياة) هو في حقيقته الفلسفية اعم منالتعبير (بنفيالقتل) لأن نفي القتل انما هو حياة واحدة أي تترك الروح في الجسم فلا يحتمل شيئاً من المعاني السامية وليس فيه غير هذا المعنى الطبيعي الساذج وتعبير الكلمة

العربية عن الحياة (بنفي القتل) تعبير غليظ عامي يدل على جهل مطبق لا محل فيه لعلم ولا تفكير كالذي يقول لك ان الحرارة هي نفس البرودة .

١١ – جعْلُ نتيجة القتل حياة تعبير من اعجب ما في حياة البشر من تعابير يسمو الى الغاية من الخيال ولكن اعجب ما فيه انه ليس خيالاً بل يتحول الى تعبير علمي يسمو الى الغاية من الدقة كأنه يقول بلسان العلم : في نوع من سلب الحياة نوع من ايجاب الحياة .

١٢ – فاذا تأملت ما تقدم وأنعمت فيه تحققت ان الآية الكريمة لا يتم إعجازها إلا بما تمت به من قوله (يا أولي الألباب) فهذا نداء عجيب يسجد له من يفهمه إذ هو موجه للعرب في ظاهره على قدر ما بلغوا من معاني اللب ولكنه في حقيقته موجه لاقامة البرهان على طائفة من فلاسفة القانون والاجتماع هم هؤلاء الذين يرون اجرام المجرم شذوذاً في التركيب العصبي أو وراثة محتومة أو حالة نفسية قاهرة الى ما يجري هذا المجرى . فمن ثم يرون أن لا عقاب على جريمة لأن المجرم عندهم مريض له حكم المرض وهذه فلسفة تحتملها الادمغة والكتب وهي تحول القلب الى مصلحة الفرد وتصرفه عن مصلحة المجتمع فنبههم الله الى البابهم دون عقولهم كأنه يقرر لهم ان حقيقة العلم ليست بالعقل والرأي بل هي قبل ذلك باللب والبصيرة وفلسفة اللب هذه هي آخر ما انتهت اليه فلسفة الدنيا .

١٣ – وانتهت الآية بقوله تعالى (لعلكم تتقون) وهي كلمة من لغة كل زمن ومعناها في زمننا نحن : يا أولى الالباب انه برهان الحياة في حكمه القصاص تسوقه لكم لعلكم تتقون على الحياة الاجتماعية عاقبة خلافه فاجعلوا وجهتكم الى وقاية المجتمع لا الى وقاية الفرد .

وبعد فاذا كان في الآية الكريمة – على ما رأيت – ثلاثة عشر وجهاً من وجوه البيان المعجز فمعنى ذلك من ناحية اخرى انها اسقطت الكلمة العربية ثلاث عشرة مرة .

السر الروحي
والجمال الفني في البلاغة النبوية

انما أُتيت الكتاب ومثله معه « محمد رسول الله » .

في هذا الايجاز المعجز – من قول المصلح الاعظم – صلوات الله عليه – كل الايضاح والتبيان عن مدى منزلة الحديث الشريف من مراتب البلاغة العليا وسمو الاشراق البياني والتصوير الفني الآخذ بزمام النفس البشرية سحراً واعجاباً والمالك بأعنة الالباب فناً وجمالاً ، ولا غرو ان يبلغ جوامع كلمه ﷺ هذا المبلغ من الاعجاز والسمو فهي نفثات الروح القدس نبض بها قلب (محمد الرسول العربي الانساني) فترجمها للانسانية معـــان خالدة من أدب النفس والروح مصوغة في قالب الفن الاعظم . وكتاب (الرافعي) (إعجاز القرآن والبلاغة النبوية) نسيج وحده فيما كتبه جهابذة البلاغــة وعباقرة النقد الأدبي.. فعلى من أراد أن ينهل بعد عَلَلٍ الرجوع الى هذا المصدر، وكما أشرت آنفاً وانا أقدم لاعجاز القرآن في أدب الرافعي فان الهدف من الدراسة في هذا الكتيب إنما هو المنهج التطبيقي نقدم منه نماذج مختارة لتكشف لنا « بالكيف » الموجز مدى الإلهام والنفاذ لفهم (الرافعي) للبلاغة النبوية ... ولقد قدم (الرافعي) في كتابه « إعجاز القرآن والبلاغة النبوية » بهـــذه الكلمات التي حرصت على أن أقدمها للقارىء قبل ان اقدم النصوص الرافعية لما لها من حلاوة وطلاوة وعذوبة وأصالة قال :

(الرافعي) : (١) هذه هي البلاغة الانسانية التي سجدت الافكار لآيتها وحسرت العقول دون غايتها لم تصنع وهي من الاحكام كانهـــا مصنوعة ولم يتكلف لها وهي على السهولة بعيدة ممنوعة . الفاظ نبوية يعمرهـــا قلب متصل بجلال خالقه ويصقلها لسان نزل عليه القرآن بحقائقه فهي ان لم

---

(١) كتاب الرافعي « اعجاز القرآن والبلاغة النبوية » ص ٢٩٤

تكن من الوحي ولكنها جاءت من سبيلـه ، وان لم يكن لها منه دليل فقد كانت هي دليله محكمة الفصول حتى ليس فيها عروة مفصولة محذوفة الفضول حتى ليس فيها كلمة مفضولة وكأنما هي في اختصارها وافادتها نبض قلب يتكلم وإنما هي في سموها واجادتها مظهر من خواطره (ﷺ) .

ان خرجت في الموعظة قلت أنين من فؤاد مجروح وإن راعت بالحكمة قلت صورة بشرية من الروح في منزع يلين فينفر بالدموع ويشتد فينزو بالدماء واذا أراك القرآن أنـه خطاب السماء للأرض أراك هذا أنه كلام الأرض بعد السماء .]

والرافعي الأديب المسلم مأخوذ بسحر بلاغته (ﷺ) ورأيه في ذلك « ان ذلك الجمال الفني في بلاغته ﷺ إنما هو أثر على الكلام من روحه النبوية الجديدة على الدنيا وتاريخها » .

وعندما كان الرافعي يكتب في البلاغة النبوية كان يعيش في جو نفسي ينقله الى روضة تتنفس على قلبه بظلالها الوارفة من الهدى والمعاني والثمار الانسانية الجميلة وكان يقف أمام سحر الحديث النبوى الشريف موقف الخاشع المتحنث في محرابه متمثلا إياه مرسلاً بتلك الفصاحة العالية من فم النبي ﷺ ، [حيث يمر اعجاز الوحي اول مايخرج بـه الصوت البشري الى العالم يرى شيئاً آلهيـاً عظيماً متصلاً بروح الكون كله اتصال بعض السر ببعض السر بكلام انساني هو هذا الحديث الذي يجيء في كلمات قوية رائعة فنها بلاغتها كالشباب الدائم .]

وحسبنا ما نقدمه الآن من بلاغة تطبيقية للجمال الفني في البلاغـة النبوية كمنوان لهذا الباب يفصح عن الهام في تعرف الرافعي لأسرار الحديث النبوي مما ذخرت به صفحات مشرقة من الأدب الديني في أدب (الرافعي)

يقول الرافعي (وقد وقف أمام هذا الحديث الشريف مستلهما هديه « عن

عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ : انطلق ثلاثة رهط ممن كان قبلكم حتى أووا المبيت الى غار فدخلوه فانحدرت صخرة من الجبل فسدت عليهم . فقالوا : انه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعو الله بصالح اعمالكم فقال رجل منهم : اللهم كان لي ابوان شيخان كبيران. وكنت لا اغبق قبلهما أهلاً ولا مالاً فنأى بي في طلب شيء يوماً فلم ارح عليهما حتى ناما فحلبت لهما غبوقهما فوجدتهما نائمين فكرهت ان اغبق قبلهما أهلا أو مالا فلبثت والقدح على يدي انتظر استيقاظهما حتى برق الفجر فاستيقظا فشربا غبوقهما اللهم ان كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة فانفرجت شيئاً لا يستطيعون الخروج . قال النبي ﷺ : وقال الآخر : اللهم كانت لي بنت عم كانت أحب الناس إليّ فاردتها عن نفسها فامتنعت مني حتي ألمّت بها ستة من السنين فجاءتني فاعطيتها عشرين ومائة دينار على أن تخلي بينها وبين نفسها ففعلت حتى اذا قدرت عليها قالت : لا أحل لك أن تفض الخاتم الا بحقه فتحرجت من الوقوع عليها فانصرفت عنها وهي أحب الناس اليّ وتركت الذهب الذي اعطيتها اللهم ان كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه فانفرجت الصخرة غير انهم لا يستطيعون الخروج منها .

قال النبي ﷺ : وقال الثالث : اللهم اني استأجرت أُجراء فاعطيتهم أجرهم غير رجل واحد ترك الذي له وذهب فثمرت أجره حتى كثرت منه الأموال فجاءني بعد حين فقال : يا عبدالله أدِّ اليّ أجري فقلت له : كل ما ترى من أجرك من الابل والبقر والغنم والرقيق فقال : يا عبدالله لا تستهزيء بي فقلت : إني لا استهزيء بك فاخذه كله فاستاقه فلم يترك شيئاً. اللهم فان كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه فانفرجت الصخرة فخرجوا يمشون . انتهى الحديث .

(الرافعي) وانا فلست ادري ، أهذا هو النبي ﷺ يتكلم في الانسانية

وحقوقها بكلام بيّن صريح لا فلسفة فيه يجعل ما بين الانسان والانسان من النية فهو ما بين الانسان وربه من الدين أم هي الانسانية تنطق على لسانه بهذا البيان العالي في شعر من شعرها ضاربة فيه الامثال مشيرة فيه إلى الرموز واضعة إنسانها بين شدة الطبيعة ورحمة الله محكمة عناصر روايتها الشعرية محققة في بيانها المكشوف اغمض معانيها في فلسفة الحاسة الانسانية حين تتصل باشيائها فتظهر الضرورة البشرية وتختفي الحكمة وفلسفة الروح حين تتصل بهذه الاشياء ذاتها فتظهر الحكمة وتختفى الضرورة مبينة أثر هذه وتلك في طبيعة الكون مقررة أن الحقيقة الانسانية العالية لن تكون فيما ينال الانسان من لذته ولا فيما ينجح من اغراضه . ولا فيما يقنعه من منطقه ولا فيما يلوح من خياله . ولا فيما ينتظم من قوانينه بل هي السمو على هذه الحقائق الكاذبه كلها وهي الرحمة التي تغلب على الأثرة فيسميها الناس براً . والرحمة التي تغلب على الشهوة فيسميها الناس عفة والرحمة التي تغلب على الطمع فيسميها الناس امانة . وهي في ضبط الروح لثلاث من الحراس : حاسة الدعة التي يقوم بها حظ الخمول وحاسة اللذة التي يقوم بها حظ الهوى وحاسة التملك التي يقوم بها حظ القوة .

وتزيد الانسانية على ذلك في نسق شعرها انها تثبت أن البر من العفة والامانة هو على اطلاقه كالاساس لهما فمن نشأ على بر أبويه كان خليقاً أن يتحقق بالعفة والامانة وان العفة من الامانة والبر هي مساكها وجامعتها في النفس وان الامانة من البر والعفة هي كال هذه الفضائل وكلهن درجات لحقيقة واحدة غير ان بعضها أمس من بعض في الشأن والمنزلة وبعضها طريق لبعض يجر سبب منها وان الرحمة الانسانية التي هي وحدها الحقيقة الكبرى انما هي هذا الحب بادئاً من الولد لأبويه وهو الحب الخاص ، ثم من المحب لحبيبته وهو الحب الأخص ، ثم من الانسان للإنسانية وهو الحب مطلقاً بعمومه وبغير أسبابه الملجئة من الحاجة والغريزة وهي درجات كدرجات الحياة نفسها من طفولتها

الى شبابها الى الشيخوخة ومن العاطفة الى الرغبة الى العقل .

ثم انه ما دام كمال الفضيلة هو الأمانة فما قبلها انواع منها غير الولد أمانة الطبع المتأدب وعفة الحب أمانة القلب الكريم والثالثة أمانة الخلق العالي وهي أسماهن لأنها لن تكون خلقاً ثابتاً إلا وقد خضع لقانونها الطبع والقلب ودخل فيأسبابها الأدبوالكرم ، فالأمانة الكاملة في هذه الفلسفة هي الأمانة الانسانية العامة المتصلة بالمرء من أبعد جهاته دونالانسانية الخاصة بكلشخص من أب وأم أو قريب ودون التي هي أخص وهي إنسانية الحب .

ونرى في لفظ الحديث أن كل رجل من هؤلاء الذين مثلوا رواية الانسانية الفاضلة في فصولها الثلاثة لا يقول إنه فعل ما فعل من صالحأعماله إلا (ابتغاء وجه الله) وقد تطابقوا جميعاً على هذه الكلمة وهى من أدق ما في فلسفة الانسانية في شعرها ذلك فان معناها ان الرجل في صالح عمله إنما كان مجاهداً نفسه ، يمنعها ما تحرص عليه من حظها او لذتها او منفعتها أى متخلصاً من طبيعته الارضية المنازعة لسواها المفردة بذاتها متحققاً بالطبيعة السماوية التي لا يرحم الله عبداً إلا بها . وهي رحمة الانسان غيره أي اندماجه باستطاعته وقوته واعطاؤه من ذات نفسه ومعاونته كف أذاه .

والحديث كالنص على ان هذه الرحمة في النفس هي الدين عند الله لا يصلح دين بغيرها ولا يقبل الله صرفاً ولا عدلاً من نفس تخلو منها : وإذا كانت بهذه المنزلة وكانت أساس ما يفرض على الانسان من الخير والحق فهي من ذلك في معنى الحديث أساس ما يصلح هذه الانسانية من الشر والباطل ، وبهذا كله تكون الغاية الفلسفية التي ينتهي اليها كلامه ﷺ ان تنشئة الناس على البر والعفة والأمانة للإنسانية هي وحدها الطريقة العملية الممكنة لحل معضلة الشر والجريمة في الاجتماع البشري . وانظر كيف جعل نهاية السمو في رحمة المال الذي يصفونه بأنه شقيق الروح فكأن الانسان لا يخرج فيها لغيره من بعض ماله ، بل ينخلع من بعضروحه ، وهذا يقرر لك فلسفةأخرى أن

السعادة الانسانية الصحيحة في العطاء دون الأخذ ، وان الزائفة هي في الأخذ دون العطاء وذلك آخر ما انتهت اليه فلسفة الأخلاق: فما المرء إلا ثمرة تنضح بموادها وما دمنا قد وصفنا رحمة المال فانا نتم الكلام فيها بهذا الحديث العجيب في فن تمثيله وبلاغة فنه : (عن ابي هريرة رضي الله عنه انه سمع رسول الله ﷺ يقول : مثل البخيل والمنفق كمثل رجلين عليهما جبتان من حديد من ثديهما الى تراقيهما : فأما المنفق فلا ينفق إلا سبغت أو وفرت على جلدة حتى تخفى بنانه وتعفو أثره وأمـــا البخيل فلا يريد أن ينفق شيئاً إلا لزقت كل حلقة مكانها فهو يوسعها فلا تتسع انتهى) .

فأنت ترى ظاهر الحديث ولكن فنه العجيب في هذا الحديد الذي يراد به طبيعة الخير والرحمة في الانسان فهي من أشد الطبائع جموداً وصلابة واستعصاء متى اعترضتها حظوظ النفس الحريصة وأهواؤها ومع ذلك فان السخاء بالمال يبسط منها وينتهي في الطبع الى أن يجعلها لينة فلا تزال تمتد وتسبغ حتى يكون كمال طبع السخاء هو كمال طبع الخير في النفس الكريمة فمن ألزم نفسه الجود والانفاق راضها رياضة عملية كرياضة العضل باثقال الحديد ومعاناة القوة في الصراع ونحوه . أما الشح فلا يناقض تلك الطبيعة ولكنه يدعها جامدة مستعصية لا تلين ولا تستجيب ولا تتيسر .

وقد جعل الجبة من الثدي الى التراقي وهذا من ابدع ما في الحديث : لان كل انسان فهو منفق على ضروراته يستوى في ذلك الكريم والبخيل . فهما على قدر سواء من هذه الناحية وانمـــا التفاوت فيما زاد وسبغ من وراء هذا الحد فهنا يبسط الكريم بسطة الانساني أما البخيل فهو (يريد) لانه انسان والارادة عمـــل عقلي لا أكثر فاذا هو حاول تحقيق هذه الارادة وقع من طبيعة نفسه الكزّة فيما يعانيه من يوسع جبة من الحديد لزقت كل حلقة من حلقاتها في مكانها فهي مستعصية متماسكة فهو يوسعها فلا تتسع .

ألا ترى كيف تتوجه الحجة . وكيف تدق الفلسفة وهي في أظهر البيان

وأوضحه وهل تحسب طبيعة البخيل في دقائقها النفسية لو هي نطقت بالغةمن وصف نفسها هذا المبلغ من جمال الفن وإبداعه ؟ وهو بعد وصف لو نقل الى كل لغات الأرض لزانها جميعاً . ولكان في جميعها كالانسان نفسه : لا يختلف تركيبه فلن يكون بثلاثة أعين لا في بلاد شكسبير ولا في بلاد الزنوج) .

فن التمثيل في بلاغته ﷺ

أما فن التمثيل في بلاغته ﷺ فقد بلغ فيه اديب الانسانية الاعظم شأواً لم يقاربه أو يدانيه فيه ذوبيان أو قلم أشرقت عليه شمس منذ كانت البشرية لأن فنه الأدبي ﷺ قد حقق للانسانية سموها الروحي والخلقي ورقق من حواشيها وشذب من طباعها بما يتسق والمثل العليا وقد صدق امير الشعراء (شوقي) في قوله :

فما عرف البلاغة ذو بيان[1]   اذا لم يتخـــذك له كتابا

ولقد وقف أديبنا (الرافعي) امام رسول الانسانية واديبها مسحوراً بفن التمثيل في بلاغته وهاكم نموذجاً من هذا اللون البلاغي .

(روى البخاري عن رسول الله ﷺ انه قال : « مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا : لو انا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا فان تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً . وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً).

فكان لهذا الحديث في نفسي كلام طويل عن هؤلاء الذين يخوضون معنا البحر ويسمون أنفسهم بالمجددين وينتحلون ضروباً من الأوصاف كحرية الفكر والغيرة والاصلاح ولا يزال أحدهم ينقر موضعه من سفينة ديننا واخلاقنـــا وآدابنا بفأسه أي بقلمه ... زاعماً انه موضعه من الحياة الاجتماعية يصنع فيه

ما يشاء ويتولاه كيف اراد موجهاً لحماقته وجوهاً من المعاذير والحجج من المدنية والفلسفة جاهلاً ان القانون في السفينة إنما هو قانون العاقبة دون غيرها فالحكم لا يكون على العمل بعد وقوعه كما يحكم على الاعمال الاخرى بل قبل وقوعه والعقاب لا يكون على الجرم يقترفه المجرم كما يعاقب اللص والقاتل وغيرهما بل على الشروع فيه بل على توجه النية اليه فلا حرية هنا في عمل يفسد خشب السفينة أو يمسه من قرب أو بعد ما دامت ملججة في بحرها سائرة الى غايتها اذ كلمة (الخرق) لا تحمل في السفينة معناها الارضي وهناك لفظة (أصغر خرق) ليس لها الا معنى واحد وهو (أوسع قبر)

ففكر في أعظم فلاسفة الدنيا مهما يكن من حريته وانطلاقه فهو ههنا محدود علي رغم انفه بحدود من الخشب والحديد تفسيرها في لغة البحر حدود الحياة والمصلحة وكما ان لفظة (الخرق) يكون من معانيها في البحر القبر والغرق والهلاك فكلمة (الفلسفة) يكون من بعض معانيها في الاجتماع الحماقة والغفلة والبلاهة وكلمة الحرية يكون من معانيها الجناية والزيغ والفساد وعلى هذا القياس اللغوي فالقلم في أيدي بعض الكتاب من معانيه الفأس والكاتب من معانيه المخرب والكتابة من معانيها الخيانة قال لي الحديث : أفهمت ؟).

ويقف (الرافعي) من فن التمثيل البالغ في النفس والعقل مبلغ الايمان المتمكن من القلوب المؤمنة ليبلغ باصحابه وحواريه في التضحية بالنفس في سبيل العقيدة والدين ما جعلهم يحققون المعجزات في الفتوحات والمغازي .

يقول (الرافعي) .

[وناهيك من رجال يمثل لهم بهذا المثل الذي يضربه لهم في الايمان ليبلغوه أو يقاربوه فعن خباب بن الارت رضي الله عنه قال : شكونا الى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة قلنا : الا تستنصر لنا ؟ الا تدعو الله لنا ؟ قال : كان الرجل فيمن قبلكم يُحفر له في الأرض فيجعل فيجاء

بالمنشار فيوضع على رأسه فيشق باثنين وما يصده ذلك عن دينه ويمشط بأمشاط الحديد مادون لحمه من عظم او عصب وما يصده ذلك عن دينه .

فانظر يا هذا فانه لو اجتمعت قوى الكون فجاءت يشد بعضها بعضاً فنزلت في عبارة من الكلام لتملأ نفوس المؤمنين بقوتها لما وضعت إلا هذا الوضع من هذا التمثيل بأمشاط المسامير وأسنان المنشار في عظم الانسان الحي ولحمه وظاهر التمثيل على سا رأيت من العجب ولكن له باطناً أعجب من ظاهره وهو البلاغة كل البلاغة والبيان حق البيان فإنما يريد ﷺ أن الحديد لا يأكل ولا يمرع من اولئك الاقوياء بإيمانهم عظماً ولحما وعصباً بل هو حديد يأكل حديداً مثله أو أشد منه فان للروح المؤمنة المسلطة على جسمها قوة تصنع هذه المعجزة فيمر الحديد في العظم واللحم والعصب يسلبها الحياة ولكنها تسلبه شدته وجلده وصبره وكل ما جاء من التمثيل في كلامه ﷺ يتطوى فيه من إبداع الفن البياني وإعجازه ما يفوت حدود البلغاء حتى لا تشك إذا أنت تدبرته بحقه من النظر والعلم ان بلاغته انما هي شيء كبلاغة الحياة في الحي : هي البلاغة ولكنها ابدع مما هي لانها الحياة ايضاً] .

التجربة الشعورية أو الذاتية في بلاغته ﷺ

إذا كانت المقاييس البلاغية المعاصرة في تقويم الفن البلاغي الخالد الدائر مع النفس الانسانية دوران الجديدين تركز كل اهتمامها على هذا العنصر في الاسلوب الخالد وانه يقوم من العناصر الأخرى مقام القلب النابض من الجسم أو المحرك من الآلة وانه يتجاوز حدود الزمان والمكان والجنس والعصر (فالرافعي) يتناول هذه التجربة بقوله (فالفن في هذه البلاغة هو في دقائقه أثر تلك الروح بكل خصائصها العظيمة التي يحتاج اليها الوجود الروحاني على هذه الأرض ولذا ترى (ﷺ) يخرج من حدود الزمان فكل عصر واجد فيه ما يقال له وهو بذلك نبوة لا تنقضي وهو حيّ بالحياة ذاتها وكأنما هو

لون على وجـه منها كما ترى البياض مثلا هو الون على وجه طائفة من الجنس البشري ...)

ويعلل (الرافعي) سر خلود البلاغة النبوية وسموها على الفن البيـاني ذاته بانها تحمل تجربته الالهية ﷺ التي هي سر معجزة الروح العظيمة التي كانت تحقق للنبي صلوات الله عليه عند نزول الوحي وجوداً آخر غـير وجوده المحدود بجسمه وطبائعه ودنياه فمن ثم تجيء التجربة الشعرية في بيانه وعليها طابع الاعجاز من الاشراق الالهي .

يقول (الرافعي) وانت خبير ان هذا النبي الكريم ﷺ كانت تأخذه عند نزول الوحي عليه أحوال وصفت في كتب الحديث : قالت عائشة رضى الله عنها[1] : ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً . وفي حديث آخر عنها قالت : فأخذه ما كان يأخذه من البر حاء حتى انه ليتحدر عنه مثل الجمان من العرق في يوم شات . وفي حديث زيد بن ثابت : فانزل الله عز وجل على رسوله ﷺ وفخذه على فخذي فثقلت علي حتى خفت أن ترض فخذي وفي حديث يعلى بن امية حين قال لعمر : إرني النبي ﷺ حين يوحي اليه : فأشار عمر الي فجئت وعلى رأس رسول الله ﷺ ثوب قد أظل به فأدخلت رأسي فاذا رسول الله ﷺ محمر الوجه وهو يغط أي يردد نفسه من شدة ثقل الوحي. فهذه كلها احوال تصف عمل الدماغ بكل ما فيه من جهد القوى العصبية : ليرتفع بالحياة الى مـا فوقها ويتركها لوعي الروح وحدها لا يشاركها في هـذا الوعي فكر ولا يتصل به شيء من حياة الحي فيتحقق للنبي ﷺ وجود اخر غـير وجوده المحدود بجسمه وطباعه ودنياه ويخرج بوعيه من هذه الجاذبية الارضية إلى ما وراء حدود الطبيعة من قوى الغيب : وبذلك يتلقى عن روع الكون ثم

(١) صفوة صحيح البخاري ، تحقيق عبد الجليل عيسى .

يفصم عنه وقد وعي ما أوحى أليه وما وصفه زيد بن ثابت من أن فخـــذه كادت ترض – برهـــان قاطع على أن روحه ﷺ تنسرح من جسمه ساعة الوحى فيثقل الجسم لأنه انما يخف بالروح وتبقى وظائف الحياة عاملة بعسر وبطء لاتصالها بشعاع من الروح دون الروح بجملتها ولسنا هنا بصدد الكلام عن الوحي فله موضع ان شاء الله في كتابنا (أسرار الأعجاز) وانما نريد أن ندل على ان هذه التهيئة الالهية لذلك الجهاز العصبي لها اثرها العظيم في فن بلاغته ﷺ وبها امتاز عن كل بلغاء الدنيا فانالملهم من افذاذالعبقريينعلىهذه الارض انمايبلغمايبلغهببعض هذا الذي رأيت وفيبعضهذا ابدعماورثتالدنيا من فنون البيان وكأن في الدماغ مادة في موضع منه يميزبها من تختارهم السماء لحكمتها وإلهامها واذا كان فن العبقريين هو اسمى الكلام الانساني لما خصوا به من هذه التهيئة فان فنه ﷺ يكون ولا جرم من بات الاكبر مما هو اكبر في إلهامالانسانية كلها .

ولهذه القوة النادرة كان بيانه قوياً على مزج معانيه بالنفس بمـا فيه من صنعة الحياة وإنمـــا فلسفة البيان الفني ان تمتد الحياة من النفس الى اللفظ فتصنع فيه صنعها فتفصل العبارة الفنية عن كاتبها أو قائلها وهي قطعة مـــن كلامه لتستحيل عند قارئها أو سامعها قطعة منالحياة في صورة من الادراك. فالبيان الفني هو الوسيلة لحمل الوجود وبعثرته في مواضع غير مواضعه وخلقه خلقاً آخر في النفس الانسانية وبذلك يؤول قوله ﷺ إن من البيان لسحراً. جعل نوعاً من البيان هو السحر لا البيان كله فالحديث كالنص على ما تسميه الفلسفة الأوربية اليوم (بالبيان الفني) كأنه قال : إن من البيان فناً هو سحر من عمل النفس في اللغة تغير بـــه الأشياء وله عجب السحر وتأثيره وتصرفه . وهذا معنى لم ينتبه اليه احد ولا يذكر معه كل ما قالوه في تفسير الحديث وبذلـــك التأويل يكون هذا الحديث قد احتوى اسمى حقيقة فلسفية للفن) .

بين بلاغة الأدب النبوي وبلاغة ادباء العالم

واذا كان الأدب وبلاغته هو التعبير الفني الساحر عما يجيش بأعماق النفس الانسانية في أغوارها البعيدة ونزعاتهـــا المختلفة ورغباتها المتشابكة ومدى الانفعال كذلك بما يحيط بنا من مظاهر هذا الكون المعجز واسرار طبيعته ومعالم جماله تعبيراً فنياً منبعثاً من خلال رؤية الشاعر أو الاديب لعالم النفس والكون من خلال وجدانه . فان الحقيقة في ذاتها لا تختلف اذن اختلاف تباين البشر في افكارهم ومدى حدة امزجتهم وانفعالاتهم وخصوبة التصوير الفني في خيالهم . ومن ثم فعالم المرأة قد أخذ من الادب شطره إذ أن جمالها وفلسفته يقوم على مادة التخيل في النفس والعقل وكذلك الطبيعة قد وجد منها الأدب وبلاغته حقلاً واسعاً خصباً لمادته وفنونه واغراضه .

ولكن البلاغة النبوية المنبثقة من مصادر الالهام العليا والمستمدة روافدها من الروح الامين لتسمو في أهدافها العليا وجمالها الفني على طريقة الأساليب البيانية في وصف الطبيعة والمرأة والحب إذ أن الكلام في هذه الابواب باب من الاحلام فلا به فيه من عيش شاعر متخيل أو نظرة عاشق صب .

والبلاغة النبوية في أدبها الانساني وراءها قلب نبي يوحى اليه فما ينطق عن الهوى ومبمنها عقل رسول يشرع فلا مجال لنظرة خاصه ولا موضـــع للخيال في امره الا ما كان تمثيلاً يراد به تقوية الشعور .

يقول الرافعي :

وهنا معنى نريد ان ننبه اليه ونتكلم [1] في سره وحقيقته فانك تقرأ كما جمع من الكلام النبوي فلا تصيب فيه ما تصيبه في بلاغة ادباء العالم ممـا فيه الكلام في المرأة والحب وجمال الطبيعة وهو في بلاغة الناس كالقلب في الجسم لا تخلو منه ولا تقوم الا به حتى تجد الكلام في المرأة وحدها شطر الادب الانساني كما ان المرأة هي شطر الانسانية ولا يعرف له ﷺ في هذه

---

(١) وحي القلم جـ ٣ ص ٢٢ .

الأغراض الا كلمات بيانية جاءت بما يفوق الوصف من الجمال والدقة متناهية في الحسن ظاهرة في الدلالة يظهر في وجه بلاغتها ما يظهر في وجه العذراء من طبيعة الحياء والخفر كقوله في النساء « رفقاً بالقوارير » وقوله لاسامة بن زيد وقد كساه قبطية فكساها امرأته اخاف ان تصف حجم عظامها . قال الشريف الرضي في شرح هذه الكلمة وهذه استعارة والمراد ان القبطية برقتها تلصق بالجسم فتبين حجم الثديين والرادفتين وما يشتد من لحم العضدين والفخذين فيعرف الناظر اليها مقادير هذه الاعضاء حتى تكون كالظاهرة للحظة والممكنة للمسة فجعلها عليه الصلاة والسلام لهذه الحال كالواصفة لما خلفها والمخبرة عما استقر بها وهذه من أحسن العبارات عن هذا المعنى ولهذا الغرض رمى عمر بن الخطاب في قوله إياكم ولبس القباطي فإنها إلا تشف تصف فكان رسول الله ﷺ أبا عذرة هذا المعنى ومن تبعه فانما سلك فجه.

قلنا : وهذا كلام حسن ولكن في عبارة الحديث سراً هو من معجزات البلاغة النبوية لم يهتد اليه الشريف على انه هو حقيقة الفن في هذه الكلمة بخاصتها . ولا نظن ان بليغاً من بلغاء العالم يتأتى لمثله فانه عليه الصلاة والسلام لم يقل : أخاف ان تصف حجم اعضائها بل قال : حجم عظامها مع ان المراد لحم الاعضاء في حجمه وتكوينه وذلك منتهى السمو بالادب اذ ذكر (اعضاء) المرأة في هذا السياق وبهذا المعرض هو في الادب الكامل أشبه بالرفث ولفظة (الاعضاء) تحت الثوب الرقيق الابيض تنبه الى صور ذهنية كثيرة هي التي عدها الرضى في شرحه وهي تومىء الى صور أخرى من ورائها فتنزه النبي ﷺ عن كل ذلك وضرب الحجاب اللغوي على هذه المعاني السافرة .. وجاء بكلمة (العظام) لانها اللفظة الطبيعية المبرأة من كل نزعة لا تقبل ان تلتوي ولا تثير معنى ولا تحمل غرضاً إذ تكون في الحي والميت بل هي بها أخص وفي الجميل والقبيح ، بل هي هنا أليق، وفي الشباب والهرم

بل هي في هـذا أوضح ، والأعضاء لا تقوم إلا بالعظام فالمجاز على ما ترى والحقيقة على ما علمت)

الطبيعة في بلاغة أدبه ﷺ كما يصور هذا الادب «الرافعي»

قدمت آنفاً الفرق البيّن بين بلاغة أدبه ﷺ وأدباء العـالم فيما يتصل بتصوير المرأة والطبيعة وهما حقلان خصبان ينمو فيها خيال الأدباء ويحلق في سماء عالية . وأشير وأنا أقدم بإيجاز للطبيعـة في أدبه ﷺ كما يصورها الرافعي بريشة فنه الانساني ان رسول البيان – صلوات الله عليه – كان يتصل بمصدر الطبيعة الأزلي ليملي عليها لا ليأخذ منها كما يأخذ الأدباء في العـالم . فمن ثم كانت الفروق في التصوير بين أدب ينبض به قلب رسول يوحى اليه من السماء فهو في تصويره وبلاغته فن إلهي معجز ، وبين أدب ينفعـل به وجدان شاعر متخيل قد يشتط به الهوى وقد يجمح به الخيال .

فيقول (الرافعي) في هذا :

الفن في نظر النبي ﷺ آية الحكمة لا آية الفن ومنظر المستيقن لا منظر المتخيل ومادة العبودية لله لا مادة التأله للانسان ، وبذلك حرم الاسلام أشياء وكره أشياء لا يكون الفن بغيرها فناً في ضروب من الشعر والتصوير والموسيقى والحب لأنه إنما ينظر للانسان واحداً وجمعاً وحاضراً وآتياً ، وواجباً ومنفعةً ولذة وألماً ، وهذه كلها لا إطلاق فيهـا إلا من أجل القيد ، على حين ان الفن لا قيد فيه إلا من أجل الاطلاق. وأساس الدين حظ الجماعة وقيودها وأساس الفن حظ الفرد وحريته ، وهذه الحيـاة لا تبدو في حالة تركيب وانتظام إلا اذا كانت للكل ، فاذا كانت لفرد ظهرت في هيئة انحلال وانتقاص واصبحت في الكون كله كأنها عمر انسان واحد .

ثم ان للفن ألواناً لا بد منها لتصويره الجميل التي تعجب به النفس والشيطان هو اللون الأحمر فيها .

ثم هو ﷺ ليس كغيره من بلغاء الناس يتصل بالطبيعة ليستملي منها بل هو نبي مرسل متصل بمصدرها الأزلي ليملي فيها »

ومن كلماته في الوصف الطبيعي قوله ﷺ وهو يذكر اوقات الصلاة (العصر اذا كان ظل كل شيء مثله وكذلك ما دامت الشمس حية والعشاء اذا غاب الشفق الى ان تمضي كواهل الليل) وكواهل الليل اوائله وفروعه المتقدمة منه كالذي تقدم المطايا من اعناقها الممتدة بعض الامتداد وقوله : وقد سأله رجل متى يصلي العشاء الآخرة ؟ وقال عليه الصلاة والسلام (إذا ملأ الليل بطن كل واد) وقوله (اذا طلع حاجب الشمس فاخروا الصلاة حتى ترتفع) وقوله (بينا رجل يمشي فاشتد عليه العطش فنزل بئراً فشرب منها ثم خرج فإذا بكلب يلهث يأكل الثرى من العطش فقال : لقد بلغ هذا مثل الذي بلغ بي فملأ خفه ثم أمسكه بفيه ثم رقى فسقى الكلب فشكر الله له فغفر له فقالوا يا رسول الله وان لنا في البهائم أجرا ، قال (في كل كبد رطبة اجر) وكقوله ﷺ : (ان المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف ان يقع عليه ، وان الفاجر يرى ذنوبه كذباب مر على أنفه !) وهذا كلام أبلغ ما أنت واجد من تفسيره تلك النفس المؤمنة باحساسها الرقيق كأنه حاسة من النور ركبت في شعورها وتلك النفس الفاجرة باحساسها الغليظ كأنه حاسة من التراب... ويكأن المؤمن الذي يسمع هذا الوصف يذكر ذنوبه – أن يحس بحركة جبل يهم ان ينقلع فيميل عليه ، أما الفاجر فيسمع يذكره ذنوبه فإذا هي في خياله نقط سود تمر مرور الذباب ليس منه الا الحس به كما يحس من يضرب على أنفه برجل ذبابه ... وجعل الذباب يمر على أنفه دون عينه أو فمه وذلك منتهى الجمال في التصوير بأن الذباب اذا وقع على الفم أو العين ثبت وألح فإذا وقع على قصبة الأنف لم يكد يقف ومر مرورة

فهذا ونحوه من الفن البديع النادر وهو مع ذلك لا يتأتى في كلامه ﷺ) إلا في مثل ما رأيت، فلا يراد منه استجلاب العبارة ولا صناعة الخيال فيظن من لا يميز ولا يحقق أن خلو البلاغة النبوية من فن وصف الطبيعة والجمال والحب دليل على ما ينكره أو يستجفيه ويقول: بداوة وسذاجة بنحو ذلك مما تشبه الغفلة على جهلة المستشرقين ومن في حكمهم من ضعاف أدبائنا وجهلة كتابنا، وإنما انتفى ذلك عن النبي ﷺ لانتفاء الشعر وكونه لا ينبغي له كما بسطناه في موضعه فعمله ان يهدي الانسانية لا ان يزين لها وان يدلها على ما يجب في العمل لا ما يحسن في صناعة الكلام وان يهديها الى ما تفعله لتسمو به لا الى ما تتخيله لتلهو به. والخيال هو الشيء الحقيقي عند النفس في ساعة الانفعال به والتأثر به فقط، ومعنى هذا أنه لا يكون ابداً حقيقة ثابتة فلا يكون إلا كذبا على الحقيقة)

ولما كان النبي ﷺ متساوقا مع الحقيقة متصلاً بها محدوداً بربه ولا بنفسه كان لذلك خارجاً من حاضر ما نحن فيه، ممتداً بمعناه الانساني الكامل الى المستقبل الذي وراء الحياة فما نحصره نحن بطبيعتنا في بعض الأسماء لا يلتفت هو اليه بطبيعته ومن ذلك أوصاف الغنى والحلية والنعيم والمتاع والجمال والمطعم والمشرب وما داخل الطبيعة من مثل معانيها، وما جرى هذا المجرى فهذا كله يراه الناس من جهة الحاجة إليه والمطمع فيه إذ كان ضعف ادراكهم وضيق وعيهم مما يبدع لهم أكاذيب الخيال فتجيء من ذلك أوصافهم وفنون أوصافهم أما النبي ﷺ فيرى ذلك من ناحية الغنى عنه والسمو عليه إذ كان لا ينظر بطبيعة روحه العظيمة الا على النظرين وأطهرهما، فآخر ادراكنا للحقيقة والطبيعة أول ادراكه هو للطبيعة والحقيقة، وما تعجز عنه الانسانية تبدأ منه النبوة.

وعلى هذا فان من اقوى البراهين على كماله ﷺ ونبوته واتساع روحه

ونفاذ ادراكه لحقائق الكون انه لم يتبسط في تلك الفنون كما يصنع البلغاء ولم يأخذ مأخذهم فيها اذا كانت كلها من أكاذيب القلب والفكر والعين .

وفي قانون الحقيقة ان الاشياء هي كل الاشياء وهي كما هي ، اما في قانون الكذب فالاشياء كلها هي ما يختاره انت ، وكما تختاره .

بحسب الدنيا من جمـــال فنه ﷺ ما يضيف الى الحياة عظمة الاشياء العظيمة ويدفع الانسانية في طريقها الواحد الذي هو بين الاب والام طريق الاخ الى اخيه ، ويكون في الدنيـــا بين الرجلين كما هو في الدم بين القلبين رحمة ومودة ، وبحسبنا من جمال هذا الفن ما يهدي الانسان الى حقيقة نفسه فيقره في الحقيقي من وجوده الانساني ويجعل الفضائل كلها تربية للقلب يكبر بها ثم يكبر ثم لا يزال يكبر حتى يتسع لحقيقة هذه الكلمة الكبرى : الله اكبر) .

الباب الثالث

في فلسفة العبادات

بسم الله الرحمن الرحيم

في فلسفة العبادات

لعل العبادات في ديننا الحنيف من أجلّ وأبرز مظاهره ، فالصلاة مثلاً سَبَحات روحية تصل انسان الارض بعوالم السماء ومصادر الاشعاعات السماوية في غمرات من الفكر الساجي العميق وطقوس تتبلور في سياقها قداسة المعنى الديني الرهيب الخاشع على طهارة في النفس والجسم .

وفي الصيام الصادق تترجم معاني الروح الصائم الخاشع على مُحَيا المؤمن وتبدو ظاهرة ساكنة على كل جوارحه لا سيما عفة نظره ولسانه ·

والعبادات في الاسلام بجملتها حرية بأن تدرس دراسة قائمة على اساس النفس والروح والتعليل الفلسفي ، وان يتناول معناها الديني على هذه الأسس الحديثة في الدراسات العميقة وكتب الفقه في الاسلام في اسلوبها الاصطلاحي والعلمي يعتورها هذا القصور في إبراز هذه الجوانب المشرقة والنواحي المشعة في جوهر العبادات .

فالصلاة مثلاً قرأناها في كتب الفقه على النحو التالي : (هي أقوال وأفعال مفتتحة بالتكبير ومختتمة بالتسليم بشروط مخصوصة) . فجفــاف الاسلوب العلمي ، والمصطلحات الفقهية واضحان في سمات الدراسات الفقهية في العبادات الاسلامية في كتبنا الى اليوم .

فمن ثم كان ولا بـد أن نساير التطور الذي هو جوهر الخلود في اسلامنا وأن نجلو العبادات في ثوبها القشيب اللائق بمكانتها السامية في الدين .

ولعل الرافعي هو نسيج وحده في هذه الدراسات الإسلامية على هـــذا النحو المرجو فقد فلسف الوضوء والصلاة والصيام بهذا الشمول الفلسفي والنفسي واكتنه اسرارها بحماسة البيان الملهم وسحره النفـّاذ .

الوضوء مسحة سماوية

ففي فلسفة الوضوء الذي هو مدخل للصلاة .. يقول الرافعي على لسان الامام سعيد بن المسيب [قم [1] فتوضأ وأسبغ الوضوء وسأعلمك امرأ تنتفع به في دينك ودنياك فإذا قمت إلى وضوئك فأيقن في نفسك واعزم في خاطرك على ان في هذا الماء سراً روحانياً – من اسرار الغيب والحياة وانه رمز للسماء عندك وانك إنما تتطهر به من ظلمات نفسك التي امتدت على أطرافك ثم سمّ الله تعالى مفيضاً اسمه القادر الكريم على الماء وعلى نفسك معاً ثم تمثل أنك غسلت يديك مما فيها ومما تتعاطاه بهما من اعمال الدنيا وأنك آخذ فيهما من السماء لوجهك وأعضائك وقرر على نفسك أن الوضوء ليس شيئاً إلا مسحة سماوية تسبغها على كل أطرافك ليشعر بها جسمك وعقلك وانك بهذه المسحة السماوية تستقبل الله في صلاتك سماويا لا أرضياً فإذا أنت استشعرت هـذا وعملت به وصار عادة لك فإن الوضوء ينزل من النفس منزلة الدواء كلما اغتممت أو تكرهت أو تسخـّطـْتَ أو غشيك حزن أو عرض لك وسواس فما تتوضأ على تلك النية إلا غسلت الحياة وغسلت الساعة التي أنت فيها من الحياة وترى الماء تحسبه هدوءا لينا لين الرضى وإذا هو ينساب في شعورك وفي احوالك جميعاً قال المسيب : وقمت أنا فجددت وضوئي على هذه الصفة بتلك النية فإذا انا عند

---

(١) وحي القلم جزء ثان ص ١٠٨ « قتال الانتحار » .

نفسي مستضيء بروح نجمية لها إشراق وسناء وإذا الوضوء في أضعف معانيه هو ما علمنا من انه الطهارة والنظافة أما في أقوى معانيه فهو افاضة من السماء فيها التقديس والتزكية وغسل الوقت الإنساني مما يخالطه كلما مرت ساعات وابتداؤه للروح كالنبات الأخضر ناضراً مطلولا مترطبا بالماء .

قال الرجل تالله ما أعرف الوضوء بعد اليوم الا ملامسة بين السماء والنفس وما أعرف وقته من الروح إلا كساعة الفجر على النبات الأخضر .

« نشيد السماء » الله أكبر

« الله اكبر » هذا النشيد العلوي المقدس هذا النداء السحري ، هـذا النغم الذي تتجاوب أصداؤه بين الجوانح المؤمنة فتهتزله حبات القلوب الخاشعة من كل صلاة بل مع كل خفقة من خفقات الافئدة .

« الله أكبر » نشيد الإسلام المترنم من فوق هامات المآذن حين تصبح وحين تظهر وحين تمسى معلناً جبروت الله في كونه وتحـــديه لظلم الظالمين والمتكبرين المتجبرين في أرضه .

« الله اكبر » أغرودة المسلم ولحن دينه الشجي قد اهتز لها قلب الأديب المسلم (مصطفى صادق الرافعي) رضوان الله عليه فترجمها للقلوب الواجبة بمعاني الإسلام ترجمة روح وشعر وفن .

ففي مقاله « الله أكبر » [١] يسوق الرافعي في أسلوب حواري قصصي أثر هذا اللحن السماوي في قلب فتاة كان لها تبرج وتهتك فيقول :

---

(١) وحي القلم جـ أول ص ٣٤٥ .

فاذا أوشكت الفتاةّ أن تصرع تلك الصرعة دوّى في الجو صوت المؤذن: « الله أكبر » .

وتلسع الفتاة في قلبها وتتصل بهذا القلب روحانية الكلمة فتقع الحياة السماوية في الحياة الأرضية « الله أكبر » صوت رهيب ليس من لغة صاحبها ولا من صوته ولا من خسته كأنما تفرغ السماء فيه ملء سحابة على رجس قلبها فتنقيه حتى ليس به ذرة من دنسه الذي ركبه الساعة ..

كان للمؤذن صوت آخر في روحها ، صوت أحمر مشتعل كمعمعة الحريق مجلجل كالرعد ، واضح كالحقيقة فيه قوة الله .

ويسترسل الرافعي فيحدو بهذا النشيد في بيانه مترنماً في حدائه مستلهماً أحلى النغم من أعذب أوتاره فيقول في نفس مقاله :

[بين الوقت والوقت من اليوم تدق ساعة الإسلام بهذا الرنين « الله أكبر .. الله أكبر » كما تدق الساعة في موضع يتكلم الوقت برنينها « الله أكبر » .

بين ساعات وساعات من اليوم ترسل الحياة في هذه الكلمة نداءها تهتف: أيها المسلم إن كنت أصبت في الساعات التي مضت ، فاجتهد في الساعات التي تتلو ، وإن كنت أخطأت فكفّر وامح ساعة بساعة ، الزمن يمحو الزمن والعمل يغير العمل ، ودقيقة باقية في العمر هي أمل كبير في رحمة الله .

بين ساعات وساعات يتناول المؤمن ميزان نفسه حين يسمع « الله أكبر » ليعرف الصحة والمرض من نيته كما يضع الطبيب لمريضه بين ساعات وساعات ميزان الحرارة . اليوم الواحد في طبيعة هذه الأرض عمر طويل للشر ، تكاد كل دقيقة بشرها تكون يوماً مختوماً بليل أسود ، فيجب ان تقسم الانسانية يومها بعدد قارات الدنيا الخمس لأن يوم الأرض صورة من الأرض ، وعند كل قسم من الفجر والظهر والعصر والمغرب والعشاء تصيح الانسانية المؤمنة منبهة نفسها : « الله أكبر .. الله أكبر » .

بين ساعات وساعات من اليوم يعرض كل مؤمن حسابه بين يدي الله ويرفعه اليه . وكيف يكون من لا يزال ينتظر طول عمره فيما بين ساعات : « الله أكبر » ؟

بين الوقت والوقت من النهار والليل تدوّي كلمة الروح « الله أكبر » ، ويجيبها الناس « الله أكبر » ليعتاد الجماهير كيف يقادون الى الخير بسهولة ، وكيف يحققون في الانسانية معنى اجتماع أهل البيت الواحد فتكون الاستجابة الى كل نداء اجتماعي مغروسة في طبيعتهم بغير استكراه .

* * *

النفس أسمى من المادة الدنيئة وأقوى من الزمن المخرب ، ولا دين لمن لا تشمئز نفسه من الدناءة بأنفة طبيعية وتحمل هموم الحياة بقوة ثابتة .

لا تضطربوا هذا هو النظام ، لا تنحرفوا هذا هو النهج ، لا تتراجعوا هذا هو النداء ، لن يكبر عليكم شيء ما دامت كلمتكم « الله اكبر » ...!!]

* * *

ويربط الرافعي بين نشيد السماء « الله اكبر » والصلاة على انه المدخل الساحر لهذه العبادة الروحية التي تتيح للمسلم مثولا لا حجاب فيه بين يدي بارئه (جلّ وعلا) خمس مرات كل يوم مثولا يصحو في سياقه الضمير الحي فيعاهد الرحمن الرحيم على توبة نصوح فيكون بارىء الكون سبحانه أقرب اليه من حبل الوريد غافراً ذنبه وقابلاً توبته ومستجيباً دعاءه ثم يمضي مفلسفاً للصلاة في حوار قصص دار على لسان أرمانوسه بنت المقوقس عظيم القبط في مصر وأستاذتها مارية والراهب شطا عند الفتح الاسلامي لمصر وكانوا قد وقعوا أسرى في يد عمرو ، فتلطف بأرمانوسه ومن معها وأرسلها إلى أبيها معززة مكرمة في جميع ما لها مع قيس بن أبي العاص السهمي. يقول الرافعي:

(ورجعت بنت المقوقس إلى أبيها في صحبة (قيس) فلما كانوا في الطريق وجبت الظهر فنزل قيس يصلي بمن معه والفتاتان تنظران فلما صاحوا «الله اكبر» ارتعش قلب مارية وسألت الراهب « شطا » ماذا يقولون ؟ قال : إن هذه كلمة يدخلون بها صلاتهم كأنما يخاطبون بها الزمن أنهم الساعة في وقت ليس منه ولا من دنياهم وكأنهم يعلنون انهم بين يدي من هو اكبر من الوجود فإذا أعلنوا انصرافهم عن الوقت ونزاع الوقت وشهوات الوقت فذلك هو دخولهم في الصلاة كأنهم يمحون الدنيا من النفس ساعة أو بعض ساعة ومحوها من أنفسهم هو ارتفاعهم بانفسهم عليها . انظري ألا ترين هذه الكلمة قد سحرتهم سحراً فهم لا يلتفتون في صلاتهم الى شيء ، وقد شملتهم السكينة ورجعوا غير من كانوا ، وخشعوا خشوع أعظم الفلاسفة في تأملهم).

في جو المسجد

هذه البقاع الارضية التي تُنضّرها السماء وترفُّ عليها الملائكة على تعاقب الجديدين واختلاف الملوين بأجنحة من نور ... هذه الأماكن المقدسة التي تشهد تربتها كل يوم خمس مرات هذه الجباه الساجدة الضارعة لبارئها وهذه الأصلاب الراكعة المنحنية على التسبيح لخالقها (جلّ وعلا) وهذه المساجد بمآذنها السامقة رمزاً لعلو هامة المسلم وشموخه على الزمان والمكان ... هذه المهابط لرحمة الله ورضوانه على ظهر هـذا الكوكب الذي تنتنت أجواؤه بخطايا البشرية وخُضّبتْ أرضه بالدماء المسفوحة ظلماً وعدواناً . هذه المعابد التي يهرع إليها من مادية الزمان والمكان فيخلع الإنسان أرسانه على أبوابها ويجد السكينة والطمأنينة بين رحابها .

هذه المساجد المهللة الذاكرة باسم الله دائماً..انفعل بقدسيتها أديب الفكر الإسلامي الملهم (صادق الرافعي) فترجم هذا الإيمان مصوراً بريشة الفن مجلواً بظلال الأدب والبيان مخامراً النفس المؤمنة بصدق الشعور والتجربة التي عاشها الرافعي بين قدسيه المساجد .

ففي مقاله « الله أكبر »[1] يقول :-

[« وعرفت الله من معنى المسجد ما لم أعرف ، حتى كأني لم أدخله من قبل فكان هذا الجالس إلى جانبي كضوء المصباح في المصباح فانكشف لي المسجد في نوره الروحي عن معان أدخلتني من الدنيا في دنيا على حدة ، فما المسجد بناء ولا مكان كغيره من البناء والمكان ، بل هو تصحيح للعالم الذي يموج من حوله ويضطرب فإن في الحياة أسباب الزيغ والباطل والمنافسة والعداوة والكيد ونحوها ، وهذه كلها يمحوها المسجد إذ يجمع الناس مراراً في كل يوم على سلامة الصدر وبراءة القلب وروحانية النفس ولا تدخله إنسانية الإنسان إلا طاهرة منزهة مسبغة على حدود جسمها من أعلاه وأسفله شعار الطهر الذي يسمى الوضوء كأنما يغسل الانسان آثار الدنيا عن أعضائه قبل دخوله المسجد . ثم يستوي الجميع في هذا المسجد استواء واحداً ويقفون موقفاً واحداً ويخشعون خشوعاً واحداً ويكونون جميعاً في نفسية واحدة ، وليس هذا وحده بل يخرون إلى الأرض جميعاً ساجدين لله فليس لرأس على رأس ارتفاع ، ولا لوجه على وجه تمييز ، ومن ثم فليس لذات على ذات سلطان وهل تحقق الإنسانية وحدتها في الناس بأبدع من هذا ؟ ولعمري أين يجد العالم صوابه إلا هاهنا ؟ فالمسجد هو في حقيقته موضع الفكرة الواحدة الطاهرة المصححة لكل ما يزيغ به الاجتماع . هو فكر واحد لكل الرؤوس ومن ثم فهو حل واحد لكل المشاكل ، وكما يشق النهر فتقف الأرض عند شاطئيه لا تتقدم يقام المسجد فتقف الأرض بمعانيها الترابية خلف جدرانه لا تدخله » .]

* * *

(١) وحي القلم جزء اول صفحة ٣٤٨

في جو المسجد قرآن الفجر

وفي هدأة الليل وسكونه والكون ساج والحياة نائمة والطبيعة حـــالمة والشياطين نشطة ساهرة تعقد على رؤوس العباد عقدها الثلاث « أن عليهـا ليلاً طويلاً فلترقد » في هذه اللحظات الطاهرة من عمر الزمان يتجلى لبـاب الدين وروحانية المسلم حين تتجافى الجنوب المسلمة عن مضاجعها داعية ربها خوفاً وطمعاً .. فيهرع المؤمنون الصادقون إلى بيوت الله والكون يغشيه نور الله الغامر ووسط هذه الاجواء المفعمة بالصفاء والرجـــاء يسجل لنا قـــلم « الرافعي » هذه النفحات الروحية فيقول تحت عنوان « قرآن الفجر »[1]:

فيقول الرافعي :

ثم يشعر المسلم بالفجر في ذلك الغبش عند اختلاط آخر الظلام بأول الضوء شعوراً ندياً كأن الملائكة قد هبطت تحمل سحابة رقيقــة تسح بها على قلبه لينضر من يُبْس ويرقّ من غلظة وكأنما جاؤه مع الفجر ليتناول النهار من أيديهم مبدوءاً بالرحمة مفتتحاً بالجمال ، فإذا كان شاعر النفس التقى فيه النور السماوي بالنور الإنساني فإذا هو يتلألأ في روحه تحت الفجر . فكأن الجالس في المسجد وقت السحر يشعر بالحياة كأنها مخبوءة ويحس في المكان بقـــايا أحلام ويسري حوله ذلك المجهول الذي يخرج منه الغد . وفي هـــذا الظلام النوراني تنكشف له أعماقه منسكباً فيها روح المسجد فتعتريه حالة روحانية تستكين فيها للقدر هادئاً وادعاً راجعاً الى نفسه مجتمعاً في حواسه منفرداً في صفاته منعكساً عليه نور قلبه كأنه خرج من سلطان ما يضيء عليه النهار أو كأن تلك الظلمة قد طمست فيه على ألوان الأرض ...

لا أنسى أبداً تلك الساعة ونحن في جو المسجد والقناديل معلقة كالنجوم

---

(١) وحي القلم جزء ثالث صفحة ٣١

في مناطها من الفلك وتلك السُّرُج ترتعش فيها ارتعاش خواطر الحب والناس جالسون عليهم وقار أرواحهم ومن حول كل إنسان هـــدوء قلبه وقد استبهمت الاشياء في نظر العين ليلبسها الإحساس الروحاني في النفس فيكون لكل شيء معناه الذي هو منه ومعناه الذي ليس منه فيخلق فيــه الجمال الشعري كما يخلق للنظر المتخيل . لا أنسى أبداً تلك الساعة وقــد انبعث في جو المسجد صوت َغرِد رخيم يشق سدفــة الليل في مثل رنين الجرس تحت الأفق العالي وهو يرتل هذه الآيات من آخر سورة النحل :

« أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي احسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين ، وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين واصبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ، ولا تك في ضيق مما يمكرون . ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون » .] ثم يسترسل الرافعي فيصور لنا بلغة القلوب المؤمنة عذوبة القرآن ممثلة في إحكام معانيه وموسيقى الفاظه ترتل ترتيلاً فيقول :

* * *

[وكان هذا القارىء يملك صوته أتمَ ما يملك ذو الصوت المطرب فكان يتصرف به أحلى مما يتصرف القمري وهو ينوح في أنغامه ، كان صوته في ترتيب عجيب في نغماته يجمع بين قوة الرقة وبين رقةالقوة ويضطرب اضطرابا روحانياً كالحزن اعتراه الفرح على فجأة يصيح الصيحة تترجـــح في الجو وفي النفس وتتردد في المكان وفي القلب ويتحول بها الكلام الإلهي إلى شيء حقيقي يلمس الروح فينفض عليها بمثل الندى، فإذا هي ترف رفيفاً وإذا هي كالزهرة التي مسحها الطل .

وسمعنا القرآن غضاً طرياً كأول ما نزل به الوحي فكان هـــذا الصوت الجميل يدور في النفس كأنه بعض السر الذي يدور في نظام العالم وكان القلب

وهو يتلقى الآيات كقلب الشجرة يتناول الماء ويكسوها منه . واهتز المكان والزمان كأنما تجلى المتكلم سبحانه وتعالى في كلامه وبدأ الفجر كأنه واقف يستأذن الله أن يُضيء من هذا النور !. وكنا نسمع قرآن الفجر وكأنما محيت الدنيا التي في الخارج من المسجد وبطل باطلها فلم يبق على الأرض إلا الإنسانية الطاهرة ومكان العبادة وهذه هي معجزة الروح متى كان الانسان في لذة روحه مرتفعاً على طبيعته الأرضية .

فأنا في كل حالة أخضع لهذا الصوت : « أدع إلى سبيل ربك » وأنا في كل ضائقة أخشع لهذا الصوت : « واصبر وما صبرك إلا بالله »].

* * *

في معاني صلاة الجمعة
والخطبة والسيف والمنبر

وفي مقالات الرافعي الهادفة للإصلاح الديني نقد بناء لوزارة الاوقاف وخطبائها المتوكئين على السيوف الخشبية ويرى الرافعي أن هذا التهالك من الخطباء كذب صريح على الإسلام في قوته وثورته كهيئة السيوف الخشبية في كذبها على السيوف ومعدنها وأعمالها كما أن الرافعي يشير إلى فلسفة المنابر في الإسلام وصلاة الجمعة ، ويرى أن الإسلام يريد أن تكون المنابر كمحطات الإذاعة فيلقط كل منبر القضايا البارزة في حياة المسلمين في حينها ويذيعها في صيغة الخطاب إلى الروح والعقل والقلب ومن ثم يكون بين المنبر والحياة صلة وعمل .

ولعل وزارة الاوقاف في كل قطر إسلامي وعربي ، وهي وزارة حساسة في إقرار المعنى الديني بين المواطنين أن تستجيب استجابة كاملة في عصرنا هذا الذي نحن أحوج ما نكون فيه إلى الرجوع إلى حظيرة الإسلام فتتوخى

أن يكون السواد من الخطباء شباباً فيهم من الشباب ثورته ومن الدين قوته وحماسته وأنْ تثبت هؤلاء الخطباء من الشباب في كل مسجد وفي كل مكان ديني حتى لا يُقْحَم على مقام النبوة والخلفاء الراشدين من ليسوا أهلاً لهذا الميدان . ففي مقال الرافعي قصة « الأيدى المتوضئة »[1] إشارة إلى فلسفة المعنى الإنساني في « ديمقراطية الإسلام الممثلة في صلاة الجمعة وفيه هجوم وسخرية من هذه الخشبة » المسماة تزويراً سيفا وفيه ... وفيه ... ولندع الرافعي يتحدث بروحه القوي .

الرافعي : [ذهبت إلى المسجد لصلاة الجمعة والمسجد يجمع الناس بقلوبهم ليخرج كل إنسان من دنيا ذاته فلا يفكر أحد أنه أسمى من أحد وقد يكون جانبك الصانع أو الأجير أوْ الفقير أو الجاهل وأنت الرئيس أو العظيم أو الغني أو العالم فتنظر اليه وإلى نفسك فتحس كأن خواطرك متوضئة متطهرة وترى كلمة الكبرياء قد فقدت روحها وكلمة التواضع قد وجدت روحها وتشعر بالنفس المجتمعة قد نصبت الحرب للنفس المنفردة ولو خطر لك شيء بخلاف ذلك رأيت الفقير إلى جانبك توبيخاً لك ، ونظرت اليه ساكتاً وهو يتكلم في قلبك وشعرت بالله من فوقكما واستعلنت لك روح المسجد كأنها تهم بطردك منه وخيل إليك أن الأرض ستلطم وجهك إذا سجدت عليها وأيقنت من ذات نفسك أن لست هناك في دنياك وليس صاحبك في دنياه وإنما أنتما هناك في إنسانية ميزانها بيد الله وحده فلا تدري أيكما الذي يخف وأيكما الذي يثقل .

قال الراوي : وصعد الخطيب المنبر وفي يده سيفه الخشبي يتوكأ عليه فما استقر في الذروة حتى خيل إليّ أن الرجل قد دخل في سر هذه الخشبة فهو يبدو كالمريض تقيمه عصاه وكالهرم يمسكه ما يتوكأ عليه ونظرت فإذا هو

---

(١) وحي القلم جزء ٢ ص ٢٧٣

كذب صريح على الإسلام والمسلمين كهيأة سيفه الخشبي في كذبها على السيوف ومعدنها وأعمالها .

وتالله ما أدري كيف يستحل عالم من علماء الدين الإسلامي في هذا العصر أن يخطب المسلمين خطبة جمعتهم وفي يده هذا السيف علامة الذل والضعة والتراجع والانقلاب والإدبار والهزل والسخرية والفضيحة والإضحاك . ومتى كان الإسلام يأمر بنجر السيوف من الخشب ونحتها وتسويتها وإرهاف حدّها الذي لا يقطع شيئاً ثم وضعها في أيدي العلماء يعتلون بها ذؤابة كل منبر لتتعلق بها العيون وتشهد فيها الرمز والعلامة، وتستوحي منها المعنوية الدينية التي يجب أن تتجسم لترى ؟.

أي سيف من الخشب معنوية غير معنوية الهزل والسخافة وبلاهة العقل وذلة الحياة ومسخ التاريخ الفاتح المنتصر والرمز لخضوع الكلمة وصبيانية الإرادة ؟.

قال : وكان تمام الهزء بهذا السيف الخشبي الذي صنعته وزارة أوقاف المسلمين أنه في طول صمصامة (عمرو بن معديكرب الزبيدي) فارس الجاهلية والإسلام فكان إلى صدر الخطيب ولولا أنه في يده لظهر مقبضه في صدر الرجل كأنه وسام من الخشب !...

قال : وكان الخطيب إذا تكلف وتصنع وظهر منه أنه قد حميَ وثار ثائره ارتج وغفل عن يده وتضطرب فيها قبضة السيف فتلكزه في صدره كأنما تذكره ان في يده خشبة لا تصلح لهذه الحماسة .

* * *

قال : وخطب العالم على الناس وكان سيفه الخشبي يخطب خطبة أخرى فأما الاولى فهي محفوظة معروفة ولا تنتهي حتى ينتهي أثرها اذ هي كالقراءة لإقامة الصلاة وكانت في عهدها الاول كالدرس لاقامة شأن من شؤون الاجتماع

والسياسة فبينها وبين حقيقتها الإسلامية مثل ما بين هذا السيف من الخشب وبين حقيقته الأولى وأما الخطبة الثانية فقد عقلتها انا عن تلك الخشبة وكتبتها وهذه عبارتها : ويحكم أيها المسلمون لو كنت بقية من خشب سفينة نوح الذي أنقذ فيها الجنس البشري لما كان لكم أن تضعوني هذا الموضع وما جعلكم الله حيث أنتم إلا بعد أن جعلتموني حيث أنا .

تكاد شرارة تذهب بي وبكم معاً لأن فيّ وفيكم المادة الخشبية والمادة المتخشبة ويحكم إنه لو كان لخطيبكم شيء من الكلام الناري المضطرم لما بقيت الخشبة في يده خشبة وكيف يمتلىء الرجل إيماناً بإيمانه وكيف يصعد المنبر ليقول كلمة الدين من الحق الغالب وكلمة الحياة من الحق الواجب وهو كما ترونه قد انتهى من الذل إلى فقد السيف روحه في يده ؟

أيها المسلمون لن تفلحوا وهذا خطيبكم المتكلم فيكم ، إلا إذا أفلحتم وأنا سيفكم المدافع عنكم أيها المسلمون غيروه وغيروني] .

* * *

في فلسفة الخطبة

ويرى الرافعي أن الخطبة يجب أن تكون بلسم الساعة وطبها فيما يعرض للمسلمين من أحداث وأرزاء وأن تعلو في مكانتها الدينية عن النزول على أغراض السياسة المحدودة في حيزها الضيق وأن تحلّق في آفاق إسلامية رحيبة كما يجدر بالخطيب أن يكون ملء الأسماع والأبصار والقلوب معاً لينبعث منه التيار القوي المؤثر الموجه وإنه ليحضرني بهذه المناسبة – ذكريات خطيب قريتنا – وهو يعتلي درجات المنبر في وهن وشيخوخة متهالكة وثياب خلقة رثة وهو يردد هذه العبارة التقليدية في بيئة لم تر الخمر قط (نهاك عن الخمر فبالكاس والطاس شربت) ونلتفت غامزين ضاحكين إلى بعض ونحن في بواكير الشباب من طلاب الازهر المعمور آنذاك .

يقول الرافعي في فلسفة الخطبة : [1]

[قال راوي الخبر لما قضيت الصلاة ماج الناس إذ انبعث فيهم جماعة من الشبان يصيحون بهم يستوقفونهم ليخطبوهم ثم قـــام أحدهم فخطب فذكر فلسطين وما نزل بها وتغير احوال اهليها ونكبتهم واختلال أمرهم ثم استنجد واستعان ودعا الموسر والمخف إلى البذل والتبرع وإقراض الله تعالى .

قال : وكان إلى جانبي رجل قروي من هؤلاء الفلاحين الذين تعرف الخير في وجوههم والصبر في أجسامهم والقناعة في نفوسهم والفضل في سجاياهم اذ امتزجت بهم روح الطبيعة الخصبة فتخرج من أرضهم زروعـــاً ومن أنفسهم زروعاً أخرى – فقال لرجل كان معه : إن هذا الخطيب –خطيب المسجد– قد غشنا وهؤلاء الشبان قد فضحوه فما ينبغى ان تكون خطبة المسلمين إلا في أخص أحوال المسلمين . قال : ونبهني هذا الرجل الساذج الى معنى دقيق في حكمة هذه المنابر الإسلامية فما يريد الإسلام إلا ان تكون كمحطات الإذاعة يلتقط كل منبر أخبار الجهات الأخرى ويذيعها في صيغة الخطاب الى الروح والعقل والقلب فتكون خطبة الجمعة هي الكلمة الأسبوعية في سياسة الأسبوع أو مسألة الاسبوع وبهذا لايجيء الكلام علىالمنابر إلا حياً بحياة الوقت فيصبح الخطيب ينتظره الناس في كل جمعة انتظار الشيء الجـــديد ومن ثم يستطيع المنبر أن يكون بينه وبين الحياة عمل .

قال : وخيل إلي بعد هذا المعنى أن كل خطيب في هذه المساجد ناقص إلى النصف لأن السياسة تكرهه أن يخلع إسلاميته الواسعة قبل صعوده المنبر وألا يصعد إلا في إسلاميته الضيقة المحدودة بحدود الوعظ الذي هو مع ذلك نصف وعظ .. فالخطبة في الحقيقة نصف خطبة أو كأنها أثر خطبة .]

* * *

---

(١) وحي القلم جزء اول ص ٢٧٦

ويمضي « الرافعي » في تحليله لمعاني الصيام وفلسفاته في تربية النفس الإنسانية وتهذيبها ورأب التصدع الاجتماعي بين الطبقات المختلفة في ضوء هذا الألم الناشىء عن الرحمة التي ولدها الصيام في النفوس المؤمنة المسلمة . « فيقول الرافعي » :

(من قواعد النفس ان الرحمة تنشأ من الألم وهذا بعض السر الاجتماعي العظيم في الصوم إذ يبالغ أشد المبالغة ويدقق كل التدقيق في منع الغذاء وشبه الغذاء عن بطنه وحواشيه مدة آخرها آخر الطاقة فهذه طريقة عملية لتربية الرحمة في النفس ولا طريقة غيرها إلا النكبات والكوارث فهما طريقتان كما ترى مبصرة وعمياء وخاصة وعامة وعلى نظام وعلى فجأة .

ومتى تحققت رحمة الجائع الغني للجائع الفقير، أصبح للكلمة الإنسانية الداخلية سلطانها النافذ وحكم الوازع النفسي على المادة فيسمع الغني في ضميره صوت الفقير يقول : « أعطني » ثم لا يسمع منه طلباً من الرجاء بل طلباً من الأمر لا مفر من تلبيته والاستجابة لمعانيه ، كما يواسي المبتلى من كان في مثل بلائه .

أية معجزة إصلاحية أعجب من هذه المعجزة الإسلامية التي تقضي أن يحذف من الإنسانية كلها تاريخ البطن ثلاثين يوماً في كل سنة ليحل في محله تاريخ النفس[1] وأنا مستيقن أن هناك نسبة رياضية هي الحكمة في جعل هذا الصوم شهراً كاملاً من كل اثني عشر شهراً . وان هذه النسبة متحققة في أعمال النفس للجسم وأعمال الجسم للنفس كأنه الشهر الصحي الذي يفرضه الطب في كل سنة للراحة والاستجمام وتغيير المعيشة لإحداث الترميم العصبي في الجسم ولعل ذلك آت من العلاقة بين دورة الدم في الجسم الإنساني وبين القمر منذ يكون هلالاً إلى أن يدخل في المحاق إذ تنتفخ العروق وتربو في النصف الأول من الشهر كأنها في (مدّ) من نور القمر ما دام هذا النور إلى زيادة ثم يراجعها (الجزر) في النصف الثاني حتى كأن للدم إضاءة وظلاماً . وإذا ثبت أن للقمر أثراً في الأمراض العصبية وفي مد الدم وجزره [1] فهذا من أعجب الحكمة في أن يكون الصيام شهراً قمرياً دون غيره).



(١) في الحيوان للجاحظ « ولزيادة القمر حتى يصير بدراً أثر بين في زيادة الدماء والأدمغة وجميع الرطوبات » .

هلال رمضان
رمز لوحدة المسلمين

وفي مقال الرافعي (شهر للثورة) إيماء وإشارة إلى فلسفة ترائي هـلال رمضان وتوحيد ميقات الصوم في بقاع المعمورة قاطبة للمسلمين والعرب على على اختلاف ألوانهم وألسنتهم وديارهم فلعل هـذا أدعى إلى تقوية الوشائج الدينية التي لا تعلوها وشائج أخرى والتفافهم حول نداء الإسلام في شريعة من شرائعه في لحظة واحدة أو يوم واحد وفي هذا توحيد للمشاعر وتجميع للارادة وإحساس عملي لتقديس المعنى الديني للاسلام الذي ينتظم الجميع في إطار روحي متفاعل متعاون على البر والتقوى صامد ثائر على أعداءالإنسانية والحق والفضيلة ...

فيقول « الرافعي » في هذا المعنى :

[وفي ترائي الهلال ووجوب الصوم لرؤيته معنى دقيق آخر وهو مع إثبات رؤية الهلال واعلانها إثبات الارادة واعلانها كأنما انبعث أول الشعاع السماوي في التنبيه الإنساني العام لفروض الرحمة والإنسانية والبر. وهنا حكمة كبيرة من حكم الصوم وهي عمله في تربية الارادة وتقويتها بهذا الاسلوب العلمي العملي الذي يدرب الصائم على ان يمتنع باختياره من شهواته ولذة حيوانيته ويبقيه مصراً على الامتناع متهيئاً له بعزيمته صابراً عليه بأخلاق الصبر مزاولا في كل ذلك أفضل طريقة نفسية لاكتساب الفكرة الثابتة ترسخ لا تتغير ولا تتحول ولا تعدو عليها عوادي الغريزة .

وإدراك هذه القوة من الإرادة العملية منزلة اجتماعية سامية هي في الإنسانية فوق منزلة الذكاء والعلم ففي هذين تعرض الفكرة مارة مرورها ولكنها في الإرادة تعرض لتستقر وتتحقق فانظر في أي قانون من القوانين وفي أية أمة من الأمم تجد ثلاثين يوماً من كل سنة قد فرضت فرضاً لتربية

ارادة الشعب ومزاولته فكرة نفسية واحدة بخصائصها ومـــلابساتها حتى تستقر وترسخ وتعود جزءاً من عمل الإنسان لا خيالاً يمر برأسه مراً .

أليست هذه هي اتاحة الفرصة العملية التي جعلوها أساساً في تكوين الارادة؟ وهل تبلغ الإرادة فيما تبلغ أعلى من منزلتها حين تجعل شهوات المرء مذعنة لفكره ، منقـــادة للوازع النفسي فيـــه مصرفة بالحس الديني المسيطر على النفس ومشاعرها] .

* * *

القوة الروحية في شهر رمضان المعظم

ويفسر الرافعي معنى الثورة في الصوم بأنها ثورة الروح القويّ على الغرائز الحيوانية في الانسان ثورة مطهرة لمعاني العبودية الجدية فيـــه ، ثورة الروح بجيوشها وعتادها من معاني الارادة والصبر والتصميم فيقول :

[اما [1] والله لو عم هذا الصوم الإسلامي أهل الأرض جميعاً لآ ل معناه ان يكون اجماعاً من الانسانية كلها على اعلان الثورة شهراً كاملاً في السنة لتطهير العالم من رذائله وفساده ومحق الأثرة والبخل فيه وطرح المسألة النفسية ليتدارسها أهل الأرض دراسة عملية مدة هذا الشهر بطوله فيهبط كل رجـل وكل امرأة إلى أعماق نفسه ومكامنها ليختبر في مصنع فكره معنى الحاجـة ومعنى الفقر ويفهم في طبيعة جسمه لا في الكتب معـــاني الصبر والثبات والارادة وليبلغ من ذلك وذلك درجـــات الإنسانية والمواساة والإحسان فيحقق بهذه وتلك معاني الإخاء والحرية والمساواة .

شهر هو أيام قلبية في الزمن متى أشرقت على الدنيـا قال الزمن لأهله :

---

(١) وحي القلم جزء ثان ص ٧٥.

هذه أيام من أنفسكم لا من أيامي ومن طبيعتكم لا من طبيعتي فيقبل العالم كله على حالة نفسية بالغة السمو يتعهد فيها النفس برياضتها على معالي الأمور ومكارم الأخلاق ويفهم الحياة على وجه آخر غير وجهها الكالح ويراها كأنما أُجيعت من طعامها اليومي كما جاع هو وكأنما أُفرغت من خسائسها وشهواتها كما فرغ هو وكأنما ألزمت معاني التقوى كما الزمها هو وما أجمل وأبدع أن تظهر الحياة في العالم كله ولو يوماً واحداً – حاملة في يدها السبحة.. فكيف بها على ذلك شهراً كل سنة ؟

انها والله طريقة عملية لرسوخ فكرة الخير والحق في النفس وتطهير الاجتماع من خسائس العقل المادي ورد هذه الطبيعة الحيوانية المحكومة في ظاهرها بالقوانين والمحررة من القوانين في باطنها – إلى قانون من باطنها نفسه يطهر مشاعرها ويسمو بإحساسها ويصرفها إلى معاني إنسانيتها ويهذب من زياداتها ويحذف كثيراً من فضولها حتى يرجع بها إلى نحو من براءة الطفولة فيجعلها صافية مشرقة بما يجتذب إليها من معاني الخير والإشراق إذ كان من عمل الفكرة الثابتة في النفس ان تدعو إليها ما يلائمها ويتصل بطبيعتها من الفكر الأخرى والنفس في هذا الشهر محتبسة في فكرة الخير وحدها فهي تبني بناءها من ذلك ما استطاعت .

هذا على الحقيقة ليس شهراً من الأشهر بل هو فصل نفساني كفصول الطبيعة في دورانها ولهو «والله» أشبه بفصل الشتاء في حلوله على الدنيا بالجو الذي من طبيعته السحب والغيث ومن عمله إمداد الحياة بوسائل لها ما بعدها إلى آخر السنة ومن رياضته أن يكسبها الصلابة والانكماش والخفة ومن غايته إعداد الطبيعة للتفتح عن جمال باطنها في الربيع الذي يتلوه .

وعجيب جداً أن هذا الشهر الذي يدخر فيه من قواه المعنوية فيودعها مصرف روحانيته ليجد منها عند الشدائد مدد الصبر والثبات والعزم والجلد

والخشونة ، عجيب جداً ان هـــذا الشهر الاقتصادي هو من أيام السنة كفائدة ($8\frac{1}{3}$ ٪) في المائة فكأنه يسجل في أعصاب المؤمن حساب قوتـه وربحـــه فله في كل سنة زيادة $8\frac{1}{3}$ من قوته المعنوية الروحانية .

وسحر العظائم في هذه الدنيا إنما يكون في الأمة التي تعرف كيف تدخر هذه القوة وتوفرها لتستمدها عند الحاجة وذلك هو سر أسلافنا الأولين الذين كانوا يجدون على الفقر في دمائهم وأعصابهم مـا تجد الجيوش العظمى اليوم في مخازن العتاد والأسلحة والذخيرة .]

رأي جديد في آية الصوم

وللرافعي رأي جديد في آية الصوم ألهمه اياه صفاء إيمانه وتمكنه من اللغة وفلسفتها وأعانه عليه سبحات روحيـــة تتصل بالملأ الأعلى وأسراره يقول « الرافعي » في ذلك :

(كل ما ذكرته [1] في هذا المقال من فلسفة الصوم فإنمـا استخرجته من هذه الآية الكريمة (كتب عليكم الصيـــام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون) . ولقد فهمها العلماء جميعاً على أنها من التقوى أما أنا فأوّلتها من (الاتقاء) فبالصوم يتقي المرء على نفسه أن يكون كالحيوان الذي شريعته معدته وألا يعامل الدنيا إلا بمواد هذه الشريعة ويتقي المجتمع على إنسانيتـه وطبيعته مثل ذلك فلا يكون إنسان مع إنسان كحمار مع إنسان يبيعه القوة كلها بالقليل من العلف .

---

(١) وحي القلم جزء ثان ص ٧٨

وبالصوم يتقي هذا وهذا ما بين يديه وما خلفه فان ما بين يديـــه هو الحاضر من طباعه وأخلاقه وما خلفه هو الجيل الذي سيرث من هذه الطباع والأخلاق فيعمل بنفسه في الحاضر ويعمل بالحاضر في الآتي .

وكل ما شرحناه فهو اتقاء ضرر لجلب منفعة ، واتقاء رذيلة لجلب فضيلة وبهذا التأويل تتوجه الآية الكريمة جهة فلسفية عالية لا يأتي البيان ولا العلم ولا الفلسفة بأوجز ولا أكمل من لفظها ، ويتوجه الصيام على انه شريعـــة اجتماعية إنسانية عامة يتقي بها الاجتماع شرور نفسه ، ولن يتهذب العالم إلا إذا كان له مع القوانين النافذة هذا القانون العام الذي اسمه الصوم ومعنـــاه « قانون البطن » .

ألا ما أعظمك يا شهر رمضان لو عرفك العالم حق معرفتك لسماك ... مدرسة الثلاثين يوماً .]

البابُ الرابع

في

الاصلاح الديني

في الاصلاح الديني

قلت في تقديمي لهذا الكتاب : ان الرافعي نسيج وحده في دنيا الأدب وعالم الكتاب والادباء اذا ما انتضى قلمه المسلم الملهم فكتب في جوانب هذا الدين الحنيف وغاص في أسرار الاسلام أو وقف يمد نظره الى المجتمع ليزاوج بينه وبين حقائق الدين وآدابه العليـــا في السلوك الفردي والجماعي ، ولعل الرافعي قد نزعه عرقه الثائر الى جده الخليفة العادل الثائر أمير المؤمنين (عمر بن الخطاب) فمن ثم كان له من الزكانة والفراسة واستشفاف الغيب نصيب كبير من جده في هذا المضمار وفي الاصلاحات الدينية التي لا يصلح المجتمع إلا في ضوئها وكم اتخذ من قلمه المسلم سيفاً مصلتاً على المـــارقين في عصره والمفتونين بمادية الغرب .

« وللرافعي » معارك وصولات وصرخات كلها تهدف بحرارة الايمـــان الرافعي الى الاصلاح الديني ووقف موجات التحلل الخلقي الوافدة علينا من أرجاس الغرب . وكان «للرافعي» آراء نافذة في إصلاح جامعة الاسلام العتيقة « جامعة الأزهر » وجعل الأزهر من الاسلام بمثابة القلب النابض الذي اذا صلح صلح الجسد كله كما أنه جعل رسالة العلماء في القرن العشرين متممة لرسالة النبوة وأهاب بالعلمـــاء أن يكون فيهم أعصاب الأنبياء في الجهاد وارساء قواعد الحق والعدالة في المجتمعات البشرية ، كما كان له في تربية المرأة المسلمة تربية دائمة على السلوك الديني صرخات إصلاح مدوية بلغت حد الفوران في

الغيرة والحميـــة الإسلامية كما أنه في كثير من مقالاته قد ندد بالمرأة الشرقية حفيدة الأنبياء أن تخدع بتقاليد المرأة الأوربية فتسير على هذا الدرب المنحل في العادات والتقاليد .

وحسبي في هذا الباب أن أقدم للقارىء مقتطفات من « آراء الرافعي » في الإصلاح الديني كنموذج لهذا اللون من الأدب الرافعي في هذا الباب وعلى من أراد الاستزادة الرجوع إلى المصادر الرافعية في مستقرها .

* * *

في اصلاح الأزهر

لعـــل « الرافعي » كان يستشف حجب الغيب منذ ٣٥ عاماً انطلقت آراؤه الرائدة في إصلاح جامعتنا العتيقة ومنارة الاسلام عبر القرون الى عصرنا هذا فقد أضحت آراؤه في حيز التنفيذ وفي دنيا الواقع حين دبت روح الاصلاحات الحديثة في كيان هـــذا المعهد الشامخ فأخذ من أسباب التطور ومسايرة روح العصر بجوانب كثيرة . فاليوم هذه الألسنة الأزهرية المصقولة بأفصح ما ينطق به في لغة الضاد قد جمعت إلى هذه الذرابة اللسانية اللغات الحية آداء واستيعابا ، وهذه مدينة البعوث الإسلامية من جميع الاصقاع والبقاع تعمل وتنهل من هذا المورد الإسلامي الصافي الذي طالما كان المنهـــل العذب للعروبة والإسلام في أحقاب التاريخ المتلاحقة ، وهؤلاء أطباء جامعة الأزهر الحديثة ومهندسوها سوف ينسابون في أنحاء المعمورة يحملون مـــع مباضعهم وآلاتهم أضواء الإسلام وهدى محمد (ﷺ) ويخاطبون كل أمة بلغتهم وكل عصر بأسلوبه ... وهذا ما دعا اليـــه أديب الفكر الاسلامي المتطور (أبو السامي – الرافعي طيب الله ثراه) وهـــذه الجامعة الطريفة التليدة إنما كانت – والحق يقال – فكرة من آراء الرافعي ونواة استنبتها فصارت دوحة وارفة الظلال دانية القطوف والثمار .

ففي مقاله « تجديد الإسلام [1] ورسالة الأزهر في القرن العشرين » تبدو بطولة الفكر في الإصلاح الديني ونفاذ البصيرة في توجيه أعرق جـامعة في الإسلام إلى أداء رسالة الاسلام ، وفي المقال ترى «الرافعي» الفيلسوف المصلح والداعية المجدد في دينه وعصره . ولأفسح المجال « للرافعي » ليحدثنا :

[« الأزهر » هذه الكلمة التي لا يقابلها في خيال الأمة المصرية إلا كلمة « الهرم » وفي كلنا اللفظتين يكمن سر خفي من أسرار التاريخ التي تجعـل بعض الكلمات ميراثا عقلياً للأمة ينسى مادة اللغة فيها ولا يبقى منها إلا مادة النفس ، إذ تكون هذه الكلمات تعبيراً عن شيء ثابت ثبات الفكرة التي لا تتغير ، مستقر في الروح القومية استقراره في الزمن ، متجسم من معناه كأن الطبيعة قد أفردته بمادته دون ما يشاركه في هذه المادة ، فالحجر في الهرم الأكبر يكاد يكون في العقل زمانا لا حجراً ، وفناً لا جسماً ، والمـكان في الأزهر يغيب فيه معنى المكان وينقلب إلى قوة عقلية ساحرة توجـد في المنظور غير المنظور .

وعندي أن الأزهر في زماننا هذا يكاد يكون تفسيراً جديداً للحديث : « مصر كنانة الله في أرضه » فعلماؤه اليوم اسهم نافذة من أسهم الله يرمي بها من أراد دينه بالسوء فيمسكها للهيبة ، ويرمي بها للنصر ويجب أن يكون هذا المعنى أول معانيهم في هذا القرن العشرين الذي ابتلى بمـلء عشرين قرنا من الجرأة على الأديان وإهمالها والإلحاد فيها) .

---

(١) وحي القلم جزء ثالث ص ٤٢

ضمائر العلماء اولاً

هذه هي براعة الاستهلال في مقال الرافعي عن مكانة الأزهر حيث قرن الأزهر والهرم كليهما كعنوانين بارزين في الميراث التاريخي لهذه الأمة ، ثم يمضي بنا « الرافعي » نافذاً إلى اللبـــاب في تقويم رسالة الأزهر في القرن العشرين فيحدثنا عما يجدر بضمائر أهله فيقول الرافعي :

[أول شيء في رسالة الأزهر في القرن العشرين أن يكون أهله قوة إلهية معدة للنصر مهيأة للنضال مسددة للإصابة ، مقدرة في طبيعتها أحسن تقدير ، تشعر الناس بالاطمئنان إلى عملها وتوحي إلى كل من يراها الإيمـــان الثابت بمعناها ، ولن يأتي لهم هذا إلا إذا انقلبوا الى طبيعتهم الصحيحة ،فلا يكون العلم تحرفاً ولا مهنة ولا مكسبة ولا يكون فياوراق الكتب خيال « أوراق البنك » .. بل تظهر فيهم العظمة الروحانية آمرة ناهية فيالمادة ، لا مأمورة منهية بها ، ويرتفع كل منهم بنفسه فيكون مقرر خلق في الحياة قبل أن يكون معلم علم في الحياة لينبت منهم مغناطيس النبوة يجذب النفوس بهم أقوى مما تجذبها ضلالات العصر ، فما يحتاج الناس في هذا الزمن إلى العـــالم - وإن الكتب والعلوم لتملأ الدنيا - وإنما يحتاجون الى ضمير العالم .

وقد عجزت المدنية ان توجد هذا الضمير مع أن الاسلام في حقيقته ليس شيئاً إلا قانون هذا الضمير إذ هو دين قائم على أن الله لا ينظر من الانسان

إلى صورته ولكن الى عمـــله ، فأول ما ينبغي أن يحمله الأزهر من رسالته ضمائر اهله .

والناس خاضعون للمادة بقانون حياتهم وبقانون آخر هو قانون القرن العشرين . فهم من ثم في أشد الحاجة الى ان يجدوا بينهم المتسلط على المـادة بقانون حياته ليروا بأعينهم القوى الدنيئة مغلوبة ثم ليجدوا في هذا الإنسان أساس القدوة والاحتذاء ، فيتصلوا منه بقوتين : قوة التعليم وقوة التحويل. وهذا هو سر الاسلام الاول الذي نفذ به من أمـــة إلى أمة ولم يقم له شيء بعده يصده إذ كان ينفذ في الطبيعة الانسانية نفسها .

لقد اعتاد المسلمون من قديم أن يجعـلوا أبصارهم الى علماء الأزهر ، فهم يتبعونهم ويتأسون بهم ويمنحونهم الطاعة ، وينزلون على حكمهم ، ويلتمسون في سيرتهم التفسير لمشكلات النفس ، ويعرفون بهم معنى صغر الدنيا ومعنى كبر الأعمال العظيمة ، وكان غنى العالم الديني شيئاً غير المال بل شيئاً أعظم من المال ، إذ كان يجد حقيقة الغنى في إجلال الناس لفقره كأنه ملك لا فقير ، وكان زهده قوة حاكمة فيها الصلابة والشدة والهيبة والسمو وفيها كل سلطان الخير والشر لأن فيها كل النزعات الاستقلالية ، ويكاد الزهد الصحيح يكون هو وحده القوة التي تجعل علماء الدين حقائق مؤثرة عاملة في حيـــاة الناس أغنيائهم وفقرائهم لا حقائق متروكة لنفسها يوحش الناس منها أنها متروكة لنفسها.

وعلماء الأزهر في الحقيقة هم قوانين نفسية نافذة على الشعب وعملهم أردُّ على الناس من قوانين الحكومة بل هم التصحيح لهذه القوانين إذا جرت الامور على عللها وأسبابها فيجب عليهم أن يحققوا وجودهم وأن يتناولوا الأمة من ناحية قلوبها وأرواحها وأن يعدوا تلاميذهم في الأزهر كما يعدون القوانين الدقيقة لاطلاباً يرزقون بالعلم .

أين صوت الأزهر وعمله في هـــذه الحياة المائجة بما في السطح وما في القاع...؟ وأين وحي هذه القوة التي ميثاقها أن تجعل النبوة كأنها شيء واقع

في الحياة العصرية لا خبر تاريخي فيها ؟ العلماء ورثة الانبياء ، وليس النبي من الأنبياء إلا تاريخ شدائد ومحن ومجاهدة في هدايـــة الناس ومراغمة للوجود الفاسد ومكابدة التصحيح للحالة النفسية للأمة فهذا كله هو الذي يورث عن الأنبياء لا العلم وتعليمه فقط] .

تصحيح معنى الاسلام في المسلمين أنفسهم

وينتقل «الرافعي» الى الخطوة الثانية من رسالة الأزهر في القرن العشرين فبعد أن مهد لها بوضع حجر الأساس أو حجر الزاوية من اصلاح ضمائر أهله انتقل الى المرحلة التي تليها أهمية وخطورة في حياة الاسلام والمسلمين، ألا وهي إقرار معنى الاسلام الصحيح في نفوس أهله فالمسلمون اليوم أصبحوا وقد وهن فيهم جوهر الدين ولبابه وما منهم إلا من هو في حاجة الى تجديد إسلامه .

وقد أتيح لي أن أشاهد على الطبيعة وأنا في بعض البلاد العربية الإسلامية من الخلافات المذهبية بين المسلمين ما يتندى له جبين المسلم وتنقطع به وشائج الرحم الاسلامي بين المسلم وأخيه في البلد الواحد !! شاهدت صلاة الجمعة في مسجد قد قسم الى نصفين هذا للسنة وذاك للشيعة ويقام فيه صلاتان في آن واحد ، وشاهدت صياماً في رمضان العظيم في يومين مختلفين وكذلك شاهدت العيدين لهذه الدواعي والاسباب نفسها .

ليت شعري هل يكون الاسلام إسلاماً بجوهره الصافي وروحه الإلهي القوي إلا إذا جمع المسلمين قاطبة على اختلاف أجناسهم وألوانهم في عِقـْد نظيم من الروحية والايثار والتجاوب وصَهرَهم في بوتقة الوحدة في الشعور والمعنى الديني المقدس .. وهل انتصر الاسلام وساد المسلمون وفتحت عليهم الدنيا إلا بهذا الروح القوي والحس الديني الواحد ، وهل كان توجه المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها إلى القبلة والتفاهم روحياً بالكعبة إلا إيماء الى هذا المعنى !؟

فالرافعي يضرب بأوتار ادبه على هذا المعنى الحساس فيقول :

[ومن أخص واجبات الأزهر في هذا القرن العشرين أن يعمل أول شيء لإقرار معنى الإسلام الصحيح في المسلمين أنفسهم ، فإن أكثرهم اليوم قد أصبحوا مسلمين بالنسب لا غير .. وما منهم إلا من هو في حاجة الى تجديد إسلامه .

والحكومات الإسلامية عاجزة في هذا بل هي من أسباب هذا الشر لأن لها وجوداً سياسياً ووجوداً مدنياً أما الازهر فهو وحده الذي يصلح لإتمام نقص الحكومة في هذا الباب ، وهو وحده الذي يسعه ما تعجز عنه : وأسباب نجاحه مهيأة ثابتة إذ كان له بقوة التاريخ حكم الزعامة الإسلامية وكانت فيه عند المسلمين بقية الوحي على الأرض ثم كان هو صورة المزاج النفسي الإسلامي المحض ، بيد أنه فرط في واجب هذه الزعامة وفقد القوة التي كان يحكم بها وهي قوة المثل الأعلى التي كانت تجعل الرجل من علمائه كما قلنا مرة : إنساناً تتخيره المعاني السياسية تظهر فيه بأسلوب عملي ، فيكون في قومه ضرباً من التربية والتعليم بقاعدة منتزعة من مثالها مشروحة بهذا المثال نفسه .

لقد أصبح إيمان المسلمين كأنه عادة الايمان لا الايمان نفسه ، ورجع الاسلام في كتبه الفقهية وكأنه أديان مختلفة متناقضة لا دين واحد ، فرسالة الأزهر أن يجدّد عمل النبوة في الشعب وأن ينقي عمل التاريخ في الكتب ، وأن يبطل عمل الوثنية في العادات وأن يعطي الأمة دينها الواضح السمح الميسر وقانونها العملي الذي فيه سعادتها وقوتها .

ولا وسيلة الى ذلك إلا أن يكون الأزهر جريئاً في قيادة الحركة الروحية الإسلامية جريئاً في عمله لهذه القيادة ، آخذاً بأسباب هذا العمل ملحاً في طلب هذه الاسباب ، مصراً على هذا الطلب ، وكل هذا يكون عبثاً إن لم يكن رجال الازهر وطلبته أمثلة من الأمثلة القوية في الدين والخلق والصلابة

لتبدأ الحالة النفسية فيهم فإنها إن بدأت لا تقف والمثل الأعلى حاكم بطبيعته على الانسانية ، مطاع بحكمه فيها ، محبوب بطاعتها له .

والمادة المطهرة للدين والاخلاق لا تجدها الأمة إلا في الأزهر ، فعلى الأزهر أن يثبت أن فيه تلك المادة بإظهار عملها لا بإلصاق الورقة المكتوب فيها الاسم على الزجاجة] .

. . .

الأزهر والحكومة

«والرافعي» يشير في مقاله هذا الى أن ثمة تعاوناً وثيقاً يجب أن يكون محتماً بين الأزهر والحكومة وعلى الحكومة وهي إسلامية في دستورها وغاياتها أن تفسح للأزهر هذا المجال ما استطاعت إلى ذلك سبيلا ، فبهما معاً يتحقق للإسلام أكبر نصر في كثير مجالاته وميادينه التي تلائم الانتفاضات الإصلاحية في القرن العشرين ولعل المجلس الأعلى للشئون الإسلامية وأهدافه السامية صدى لدعوة الرافعي ويقيق لآرائه ، والله سبحانه الموفق ولاة الأمر للرجوع بأمتنا إلى حظيرة هذا الدين الحنيف العادل القويء

يقول الرافعي في هذا :

[ومن ثمّ يكون واجب الأزهر أن يطلب الإشراف على التعليم الإسلامي في المدارس وأن يدفع الحركة الدينية دفعاً بوسائل مختلفة أولها أن يحمل وزارة المعارف على إقامة فرض الصلاة في جميع مدارسها ، من مدرسة حرية الفكر فنازلاً ، والأمة الإسلامية كلها تشد رأى الأزهر في هذا وإذا نحن استخرجنا التفسير العملي لهذه الآية الكريمة : « أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة » دلتنا الآية بنفسها على تلك الوسائل فما الحكمة هنا إلا السياسة الاجتماعية في العمل وليست الموعظة الحسنة إلا الطريقة النفسية في الدعوة .

العلماء ورثة الانبياء وليس النبي من الأنبياء الا تاريخ شدائد ومحن ومجاهدة في هداية الناس ومراغمة للوجود الفاسد ، ومكابدة التصحيح للحالة النفسية للأمة فهذا كله هو الذي يورث عن الانبياء لا العلم وتعليمه فقط .

واذا قامت رسالة الأزهر على هـذه الحقائق وأصبح وجوده هو المعنى المتمم للحكومة المعاون لها في ضبط الحياة النفسية للشعب وحيطتها وأمنها ورفاهتها واستقرارهـا – اتجهت طبيعته الى أداء رسالته الكبرى للقرن العشرين بعد أن يكون قد حقق الذرائع إلى هذه الرسالة من فتح باب الاجتهاد وتنقية التاريخ الفقهي وتهذيب الروح الإسلامي والسمو به عن المعاني الكلامية الجدلية السخيفة ثم استخراج أسرار القرآن الكريم المكتبة فيه ، لهـذه العصور العلمية الأخيرة وبعد أن يكون قد أجتمعت فيـه القوة التي تمسك الإسلام على سنته بين القديم والجديد لا ينكره هذا ولا يغيره ذاك . وبعد أن يكون الأزهر قد استفاض على العالم العربي بكتبه ودعاته ومبعوثيه من حاملي علمه ورسل إلهامه] .

رسالة الأزهر الكبرى

وينتقل بنا « الرافعي » من رسالة الأزهر في القرن العشرين داخل الإطار الخاص من حدود العالم الإسلامي إلى دائرة العالم الإنساني اجمع في حـدوده الواسعة المترامية تطبيقاً لعموم رسالة الإسلام وشمولها للإنسانية جمعاء فيقول:

أما تلك الرسالة الكبرى فهي بث الدعوة الاسلامية في أوربا وأمريكا واليابان بلغات الأوربيين والامريكيين واليابانيين في ألسنة أزهرية مرهفة مصقولة لهـا بيان الادب ودقة العلم وإحاطة الفلسفة وإلهام الشعر وبصيرة الحكمة وقدرة السياسة ، ألسنة أزهريـة لا يوجد الآن منها لسان واحد في الأزهر، ولكنها لن توجد إلا في الازهر ، ولا قيمة لرسالته في القرن العشرين إذا هو لم يوجدها فتكون المتكلمة عنه والحاملة لرسالته وما هذه البعثات التي

قرر الازهر ابتعاثها إلى أوروبا إلا في أول تاريخ تلك الالسنة .

إن الوسيلة التي نشرت الإسلام من قبـــل لم تكن أجنحة الملائكة ولا كانت قوة من جهنم ولا تزال هي هي التي تنشره، فليس مستحيلاً ولا معتذراً أن يغزو هذا الدين أوربا وأمريكا واليابان كما غزا العالم القديم .

ولم يكن السلاح من قبـــل إلا طريقة لإيجاد إسلام في الامة الغربية عنه حتى اذا وجد تولى هو الدعوة لنفسه بقوة الناموس الطبيعي القـــائم على الاصلح هو الابقى ، وانحازت اليه الانسانية لأنه قانون طبيعتها السليمة ودين فطرتها القوية ، وقد ظل الاسلام ينتشر ولم يكن يحمله إلا التاجر ، كما كان ينشر وحامله الجيش ، فليس علينـــا إلا تغيير السلاح في هذا العصر وجعله سلاحاً من فلسفة الدين وأسرار حكمته فهذا الدين كما قلنا في بعض كلامنـــا أعمال مفصلة عن النفس أدق تفصيل وأوفاه بمصلحها فهو يعطي الحياة في كل عصر عقلها العملي الثابت المستقر تنظم به أحوال النفس على ميزة وبصيرة ويدع للحياة عقلها العلمي المتجدد المتغير تنظم به أحوال الطبيعة على قصد وهدى ، وهذه هي حقيقة الاسلام في أخص معانيه لا يغنى عنه في ذلك دين آخر ، ولا يؤدي تأديته في هذه الحاجة أدب ولا علم ولا فلسفة كأنما هو نبع في الارض لمعاني النور بإزاء الشمس نبع النور في السماء .

ليس على الازهر إلا أن يوجد من الإسلام في تلـــك الامم ما يستمر ثم الاستمرار هو يوجد ما يثبت والثبات يوجد ما يدوم وكان النبي ﷺ قد أشار الى هذا في قوله : «لقد نضّر الله أمرءً سمع مني شيئاً فبلغه ، كما سمعه فرب مبلغ أوعى له من سامع » .

أمـــا والله إن هذا المبلّغ الذي هو أوعى له من السامع لن يكون في التاريخ بأدق المعنى إلا أوربا وأمريكا فى هذا الزمن العلمي إذا نحن عرفنا كيف نبلّغ .

فلاسفة الاسلام اليوم
لن يكونوا إلا من الأزهر

ويسترسل الرافعي في حديثه عن رسالة في الأزهر في القرن العشرين فيرى بفراسته المؤمنة أن فلاسفة الاسلام لن يكونوا إلا من الأزهر وأنهم سيخرجون للأمم قوانين السعادة الاجتماعية من الإسلام وسط هذه الظلمات الاجتماعية التي تتخبط فيها البشرية اليوم من غواء الرأسمالية والشيوعية ، فيقول الرافعي في هذا الصدد :

[أنا مستيقن ان فيلسوف الاسلام الذي سينشر الدين على يده في أوروبا وأمريكا لن يخرج إلا من الأزهر ، وما كان الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده رحمه الله إلا أول التطور المنتهي الى هذه الغاية وسيكون عمل فلاسفة الأزهر استخراج قانون السعادة لتلك الأمم من آداب الاسلام وأعماله ، ثم مخاطبة الأمم بأفكارها وعواطفها والإفضاء متى ذلك الى ضميرها الاجتماعي فإن أول الدين هناك أسلوبه الذي يظهر به .

هذه هي رسالة الأزهر في القرن العشرين ويجب ان يتحقق بوسائلها من الآن ومن وسائلها أن يعلن بها لتكون موثقاً عليه. ويحسن بالأزهر في سبيل ذلك أن يضم اليه كل مفكر إسلامي ذي إلهام او بحث دقيق او إحاطة شاملة ، فتكون له ألقاب علمية يمنحهم إياها وإن لم يتخرجوا فيه ثم يستعين بعلمهم وإلهامهم وآرائهم .

وبهذه الألقاب يمتد الأزهر الى حدود فكرية بعيدة ويصبح أوسع في أثره على الحياة الاسلامية ويحقق لنفسه المعنى الجامعي » .

قرش الاسلام

ووسائل الدعاية لنشر الاسلام وتمويلها بالمال اللازم ينبغي ان تسهم فيه الشعوب الاسلامية على اختلاف أجناسها واوطانها مع الحكومات الاسلامية ، ويقترح الرافعي ان يجمع من كل فرد مسلم قرش الإسلام .

يقول الرافعي :

[وفي تلك السبيل يجب على الأزهر ان يختار أياماً في كل سنة يجمع فيها من المسلمين (قرش الاسلام) ليجد مادة الثقة الواسعة في نشر دين الله ، وليس على الارض مسلم ولا مسلمة لا يبسط يده ، فما يحتاج هذا التدبير لأكثر من إقراره وتنظيمه وإعلانه في الأمم الاسلامية ومواسمها الكبرى ، وخاصة موسم الحج .

وهذا العمل هو نفسه وسيلة من أقوى الوسائل في تنبيه الشعور الاسلامي وتحقيق المعاونة في نشر الدين وحياطته وعسى أن تكون له نتائج اجتماعية لا موضع لتفصيلها هنا ، وعسى ان يكون (قرش الاسلام) مادة لأعمال إسلامية ذات بال وهو على أي الأحوال صلة روحية ، تجعل الأزهر كأنه معطية لكل مسلم لا آخذه .

والخلاصة ان اول رسالة الازهر في القرن العشرين اهتداء الأزهر الى حقيقة موضعه في القرن العشرين : وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين] .

غيرة الرافعي على المرأة المسلمة

الغيرة المحمودة صفة الانسان الحر كائناً ما كان لاسيا العربي المسلم الذي وسم هذه الصفة بطابعه القومي العربي ، والغيرة بعامتها لا تتمثل في حياطة المرأة وشرفها فحسب بل تتجاوز كل حرم وحوزه ، ولكنها تتمثل في المرأة بخصوصيتها بصورة أدق .

ولقد كان للرافعي غيرة على المرأة المسلمة من جهـــة غيرته على الإسلام بعمومه ، وله في ميدان الغيرة على المرأة والحفاظ عليهـــا من تقاليد الغرب الوافدة صرخات تدوي ومعان تغلي غليان المرجل الفوار .

أتراني أربط ولا أكون متجاوزاً حدود المعقول بين غيرة الرافعي حفيد أمير المؤمنين الغيور عمر بن الخطاب وبين غيرة جده الأعظم على اختلاف الأساليب والظروف والميادين والزمن ؟

فجده هو الذي وصفه الرسول الأعظم ﷺ بهذا القول الخالد « ان الله غيور يحب الغيور وإن عمر غيور » .

وكما يقول العقاد أيضاً في غيرة عمر [1] :

« فأحرار العرب كلهم غيور ولكنك اذا قلت العربي الغيور » فكانما سميت عمر بن الخطاب لانه طبع هذه الصفة القومية بطابعه الذي لا يشبهه فيه غيره فكان الغيور بين الغيورين .

وكانت هذه الغيرة معروفة مخشية بين جميع من يعرفونه ويسمعون بطباعه والنساء من باب أولى يعرفنها ويعهدنها ويتقينها كما لم يتقينها قط من غيره .

وتحس هذه الغيرة المسلمة في كثير من مقالات الرافعي الفوارة بهذا المعنى،

---

(١) عبقرية عمر : للعقاد ص ٤٩

وما أقدمه الان للقارىء ما هو إلا قل من كثر كنموذج يكشف عن روح عظيمة في الإصلاح ففي مقاله « لحوم البحر [١] » ويقصد بها هذه الاجسام العارية صراحة على شواطىء مصايفنا بصورة يأباها الدم العربي ويمجها العرف المسلم الصادق يقول الرافعي :

[فكرة من شريعة الطبيعة ظاهرها لبعض الأمر من الشمس والهواء والبحر وما لا أدري ، وباطنها لبعض الأمر من فن الشيطان وبلاغته وشعره وما لا أدري ، وما كانت الشرائع الإلهية والوضعية إلا لإقرار العقل في شريعة الطبيعة ، كي تكون انسانية لإنسانها كما هي الحيوانية لحيوانها ، وليجد الإنسان ما يحفظ به نفسه من نفسه التي هي دائماً فوضى ولا غاية لها لولا ذلك العقل إلا ان تكون فوضى .

وبالشرائع والآداب استطاع الإنسان أن يضع لكلمة الطبيعة النافذة عليه جواباً وأن يرى في هذه الطبيعة أثر جوابه : فكلمتها هي : أيها الإنسان أنت خاضع لي بالحيواني فيك وكلمته هو : أيتها الطبيعة وأنت لي خاضعة بالإلهي في] .

ويقف الرافعي على شاطىء الاسكندرية ويمد نظره وخاطره فيرى من الوان التحلل ما يرى ومن فنون التخنث وعرى الفضيلة الانسانية شكولا وفنوناً ويرى أن المرأة التي خلعت على الشاطىء ثيابها وحياءها إنما لم تجترىء على الله وحرمه إلا باقرار رجلين لا ثالث لهما : رجل فجر ورجل تخنث كما يرى أن المصايف على هذا النمط انما هي شعر شيطان بارع بموسيقاه وأخيلته فيقول :

[لكأنما والله قد تمدد على سيف البحر في اسكندرية شيطان مارد من شياطين ما بين الرجل والمرأة يخدع الناس عن جهنم بتبريد معانيها وقد امتلأ

---

(٢) وحي القلم جزء اول ص ٢٧٩

به الزمان والمكان ، فهو يرعش ذلك الرمل بذلك الهواء رعشة أعصاب حية ويرسل في الجو نفخات من جرأة الخمر في شاربها ثار فعربد ، ومطلع الشمس للأعين في منظر حسناء عريانـــة ألقت ثيابها وحياءها معاً . ويرخي الليل ليغطي به المخازي التي خجل النهار أن تكون فيه .

ولعمري ان لم يكن هذا هو المارد ما أحسبه إلا الشيطان الخبيث الذي ابتدع فكرة عرض الآثام مكشوفة في أجسامهـــا تحت عين التقي والفاجر لتعمل عملها في الطباع والاخلاق ، فسول للنساء والرجال أن ذلك الشاطىء علاج الملل من الحر والتعب حتى اذا اجتمعوا فتقاربوا فتشابكوا سول لهم الاخرى أن الشاطىء هو كذلك علاج الملل من الفضيلة والدين] .

وها هو « الرافعي » يترجم لنا قصيدة فنية قد نظمها للشيطان الخبيث على رمل شاطىء بالاسكندرية عن تلك الاجسام عارية وكاسية عن معانيها مكشوفة ومغطـــاة عن طباعها بريئة ومتهمة حتى اتسقت الترجمة على هذا النحو :

قال الشيطان : على لسان « الرافعي »

[ألا ان البهيمة والعقلية في هذا الانسان بمجموعهما شيطانية (١) .
ألا وإنه ما من شيء جميل أو عظيم إلا وفيه معنى السخرية به .
هنا تتعرى المرأة من ثوبها فتتعرى من فضيلتها .
هنا يخلع الرجل ثوبه ثم يعود اليه فيلبس فيه الأدب الذي خلعه .
رؤية الرجل لحم المرأة المحرمة نظر بالعين والعاطفة .
يرمى ببصره الجائع كما ينظر الصقر إلى لحم الصيد .
ونظر المرأة لحم الرجل رؤية فكر فقط .

---

(١) وحي القلم جزء اول ص ٢٨١

تحول بصرها أو تخفضه وهي من قلبها تنظر .
يا لحوم البحر سلخك من ثيابك جزار .

* * *

« يا لحوم البحر سلخك من ثيابك جزار .
جزار لا يذبح بألم ولكن بلذة .
ولا يحز بالسكين ولكن بالعاطفة
ولا يميت الحي إلا موتاً أدبياً .
إلى الهيجاء يا أبطال معركة الرجال والنساء .
فهنا تلتحم نواميس الطبيعة ونواميس الأخلاق .
للطبيعة أسلحة العرى والمخالطة والنظر والأنس والتضاحك.
ونزوع المعنى إلى المعني .
وللأخلاق المهزومة سلاح من الدين قد صدىء وسلاح من الحياء مكسور .
يا لحوم البحر سلخك من ثيابك جزار .

« الشاطىء كبير كبير يسع الآلاف والالآف
ولكنه للرجل والمرأة صغير صغير حتى لا يكون إلا خلوة .
وتقضي الفتاة سنتها تتعلم ثم تأتي هنا تتذكر جهلها وتعرف ما هو .
وتقضي المرأة عامها كريمة ثم تجيء لتجد هنا مادة اللؤم الطبيعي .
لو كانت حجاجة صوامة للعنـَتـَها الكعبة لوجودها في « استانلي » .
الفتاة ترى في الرجال العريانين أشباح أحلامها وهذا معنى من السقوط .
والمرأة تسارقهم النظر تنويعاً لرجلها الواحد وهذا معنى من المواخير.

أين تكون النية الصالحة لفتاة أو امرأة بين رجال عريانين
يا لحوم البحر سلخك من ثيابك جزار .

هناك التربية وهنا إعلان الاغفال والطيش .
وهناك الدين وهنا أسباب الإغراء والزلل .
هناك تكلف الأخلاق وهنا طبيعة الحرية منها .
وهناك العزيمة بالقهر يوماً بعد يوم وهنا إفسادها بالترخص يوماً بعد يوم .
والبحر يعلم اللائي والذين يسبحون فيه كيف يغرقون في البر .
لو درى هؤلاء وهؤلاء معرة اغتسالهم معاً في البحر لاغتسلوا من البحر .
فقطرة الماء التي نجستها الشهوات قد انسكبت في دمائهم .
وذرة الرمل النجسة في الشاطىء ستكبر حتى تصير بيتاً نجساً لأب وأم .
يا لحوم البحر سلخك من ثيابك جزار .

يجيئون للشمس التي تقوى بها صفات الجسم .
ليجد كل من الجنسين شمسه التي تضعف بها صفات القلب .
يجيئون للهواء الذي تتجدد به عناصر الدم .
ليجدوا الهواء الآخر الذي تفسد به معاني الدم .
يجيئون للبحر الذى يأخذون منه القوة والعافية
ليأخذوا عنه ايضاً شريعته الطبيعية سمكة تطارد سمكة .
ويقولون ليس على المصيف حرج .

أي لأنه أعمى الأدب وليس على الأعمى حرج .
يا لحوم البحر سلخك من ثيابك جزار .

. . .

المدارس والمساجد والبيع والكنائس ووزارة الداخلية .
هذه كلها لن تهزم الشاطىء .
فأمواج النفس البشرية كأمواج البحر تنهزم أبداً لترجع أبداً .
لا يهزم الشاطىء إلا ذلك « الجامع الأزهر » لو لم يكن قد مسخ مدرسة .
فصرخة واحدة من قلب الأزهر القديم تجعل هدير البحر كأنه تسبيح وترد الأمواج نقية بيضاء كأنها عمائم العلماء .
وتأتي إلى البحر بأعمدة الأزهر للفصل بين الرجال والنساء
ولكني أرى زمناً قد نقل إلى المدارس روح « الكازينو »
يا لحوم البحر سلخك من ثيابك جزار .

. . .

« هنا على رغم الآداب مملكة للصيف والقيظ سلطانها الجسم المؤنث العاري
أجسام تعرض مفاتنها عرض البضائع ، فالشاطىء حانوت للزواج .
وأجسام تعرض أوضاعها كأنها في غرفة نومها لا في الشاطىء
واجسام جالسة لغيرها تحيط بها معانيها ملتمسة معانيه ، فالشاطىء سوق للرقيق .
وأجسام خفرة جالسة للشمس والهواء فالشاطىء كدار الكفر لمن أكره.

وأجسام عليلة تقتحمها الأعين فتزدريها لأنها جعلت الشاطىء مستشفى .
وأجسام خليعة أضافت من (استانلي) وأخواتها إلى منارة اسكندرية.
ومكتبة اسكندرية - مزبلة اسكندرية
كان جدال المسلمين في السفور فأصبح الآن في العري
فاذا تطور فماذا بقي من تقليد أوربا الا الجدال في شرعية جمع المرأة بين الزوج وشبه الزوج !؟

انتهى ما استطعت ترجمته بعد الرجوع في مواضع من القصيدة إلى بعض القواميس الحية .. إلى بعض شبان الشاطىء ..]

في الغيرة على التقاليد والآداب الاسلامية

وتترادف مقالات الرافعي .. في الغيرة العامة على الآداب الإسلامية والطباع الفطرية السليمة في مجتمعنا الشرقي المتسم بالحفاظ والفضيلة بالسلوك والآداب فنراه في مقاله « احذري » وهي قصيدة مترجمة عن الملك للمرأة الشرقية أودعها الرافعي نبض قلبه المسلم في التوجيه السليم والنصح الرشيد لحفيدات الرسل وأمهات الجيل الصاعد فلعل منهن من تجلو لحاضرتها مرآة ماضينا من هذا الخلق القويم الظاهر والأمومة العربية الفضلى التي أنبتت رجالات التاريخ وقواد الحروب المظفرين أمثال عمر وخالد وعمرو وطارق وعقبة وسعد والمثنى . وها هو الرافعي يترجم لنا عن الملك :

في مقاله إحذري[1]

[إحذري أيتها الشرقية وبالغي في الحذر واجعلي أخص طباعك الحذر وحده .

إحذري تمدن اوروبا أن يجعل فضيلتك ثوباً يوسع ويضيق فليس الفضيلة على ذلك هو لبسها وخلعها .

(١) وحي القلم جزء اول ص ٢٨٥

إحذري فنّهم الاجتماعي الخبيث الذي يفرض على النساء في مجالس الرجال أن تؤدي أجسامهن ضريبة الفن .

احذري تلك الأنوثة الاجتماعية الظريفة ، إنها انتهاء المرأة بغاية الظرف والرقة الى .. إلى الفضيحة .

احذري تلك النسائية الغزلية إنها في جملتها ترخيص اجتماعي للحرة .. أن .. أن تشارك البغي في نصف عملها .

أيتها الشرقية احذري .. احذري

احذري التمدن الذي اخترع لقتل لقب الزوجة المقـــدس لقب « المرأة الثانية » .

واخترع لقتل لقب العذراء المقدس لقب « نصف عذراء » .

واخترع لقتل دينية معاني المرأة كلمة « الأدب المكشوف » .

وانتهى الى اختراع السرعة بالحب .. فاكتفى الرجل بزوجة ساعة

والى اختراع استقلال المرأة ، فجـــاء بالذي اسمه (الأب) من الشارع لتلقي بالذي اسمه « الابن » الى الشارع .

أيتها الشرقية احذري .

احذري وأنت النجم الذي أضاء منذ النبوة أن تقلدي هذه الشمعة التي أضاءت منذ قليل .

إن المرأة الشرقية هي استمرار متصل لآداب دينها الانساني العظيم .

هي دائماً شديدة الحفاظ حارسة لحوزتها ، فإن قانون حياتها دائمـــاً هو قانون الامومة المقدس .

هي الطهر والعفة ، هي الوفـــاء والأنفة ، هي الصبر والعزيمة ، هي كل فضائل الأم .

فما هو طريقها الجديد في الحياة الفاضلة إلا طريقها القديم بعينه .

أيتها الشرقية إحذري.. إحذري.

« إحذري (ويحك) تقليد الأوربية التي تعيش في دنيا اعصابها محكومة بقانون أحلامها .

لم تعد انوثتها حالة طبيعية نفسية فقط بل حالة عقلية ايضاً تشك وتجادل.

أنوثة تفلسفت فرأت الزواج نصف الكلمة فقط..والأم نصف المرأة فقط.

ويا ويل المرأة حين تنفجر انوثتها بالمبالغة العقلية ، فتنفجر بالدواهي على الفضيلة .

انها بذلك حرة مساوية للرجل ، ولكنها بذلك ليست الأنثى المحدودة بفضيلتها .

أيتها الشرقية .. إحذري .. إحذري .

احذري خجل الاوربية المترجلة من الاقرار بأنوثتها .

إن خجل الأنثى من أنها أنثى يجعل فضيلتها تخجل منها .

إنه يسقط حياءها ويكسو معانيها رجولة غير طبيعية .

إن هذه الأنوثة المترجلة تنظر إلى الرجل نظرة رجل الى أنثى .

والمرأة تعلو بالزواج درجة انسانية ولكن هذه المكذوبة تنحط درجة انسانية بالزواج .

أيتها الشرقية إحذري .. إحذري .

. . .

احذري تهوس الاوربية في طلب المساواة بالرجل .
لقد ساوته في الذهاب الى الحلاق.. ولكن الحلاق لم يجد في وجهها اللحية .
إنها خلقت لتحبيب الدنيا الى الرجل فكانت بمساواتها مادة تبغيض .
العجيب أن سر الحياة يأبى أبد أن تتساوى المرأة بالرجل إلا إذا خسرته.
والأعجب أنها حين تخضع يرفعها هذا السر ذاته عن المساواة بالرجل إلى السيادة عليه .
أيتها الشرقية إحذري .. إحذري .

. . .

احذري أن تخسري الطباع التي هي الأليق بأم أنجبت الأنبياء في الشرق.
أم عليها طابع النفس الجميلة تنشر في كل موضع جو نفسها العالية .
فلو صارت الحياة غيماً ورعداً وبرقاً لكانت هي فيها الشمس الطالعة .
ولو صارت الحياة قيظاً وحراً واختناقاً لكانت هي فيها النسيم يتخطر .
أم لا تبالي إلا أخلاق البطولة وعزائمها لأن جداتها ولدن الأبطال .
أيتها الشرقية إحذري .. إحذري .

. . .

احذري هؤلاء الشبان المتمدنين بأكثر من التمدن .
يبالغ الخبيث في زينته وما يدري أن زينته معلنة أنه إنسان من الظاهر.
ويبالغ في عرض رجولته على الفتيات يحاول إيقاظ المرأة الراقـــدة في العذراء المسكينة .
ليس لامرأة فاضلة إلا رجلها الواحد فالرجال جميعاً هم مصائبها إلا واحداً
واذا هي خالطت الرجال فالطبيعي أنها تخالط شهوات ويجب ان تحذر وتبالغ .
أيتها الشرقية إحذري .. إحذري .

. . .

إحذري.. كلمة شيطانية تسمعينها هي فنية الجمال أو فنية الأنوثة..
وافهميها أنت هكذا واجبات الأنوثة وواجبات الجمال .
بكلمة يكون الإحساس فاسداً وبكلمة يكون شريفاً .
ولا يتسقط الرجل امرأة إلا في كلمات مزينة مثلها .
يجب أن تتسلح المرأة مع نظراتها بنظرة غضب ونظرة احتقار ..
أيتها الشرقية إحذري.. إحذري .

. . .

احذري السقوط : إن سقوط المرأة لهوله وشدته ثلاث مصائب في مصيبة.
سقوطها هي وسقوط من أوجدها وسقوط من توجدهم .
نوائب الأسرة كلها قد يسترها البيت إلا عار المرأة
فيد العار تقلب الحيطان كما تقلب اليد الثوب فتجعل ما لا يرى هو ما يرى.
والعار حكم ينفذه المجتمع كله فهو نفي من الاحترام الانساني .
أيتها الشرقية إحذري.. إحذري .

. . .

لو كان العار في بئر عميقة لقلبها الشيطان مئذنة ووقف يؤذن عليها .
يفرح اللعين بفضيحة المرأة خاصة كما يفرح أب غني بمولود جديد في بيته .
واللص القاتل والسكير والفاسق كل هؤلاء على ظاهر الإنسانية كالحر والبرد
أما المرأة حين تسقط فهذه من تحت الإنسانية هي الزلزلة .
ليس أفظع من الزلزلة المرتجة تشق الأرض إلا عار المرأة حين يشق الأسرة.
أيتها الشرقية إحذري..إحذري .]

. . .

الباب الخامس

في الاسرة المسلمة

في فلسفة الاسرة المسلمة

تقديـــم :

في هذا العصر الذي اهتز فيه كيان الأسرة نتيجة لوهن الوازع الديني بين ركنيها وأفرادها حتى أضحت معايير الزواج وقيمه في منـأى عن الاطار الروحي والنفسي الذي أوضحت معالمه الشريعة الاسلامية الغراء ... « ومن آياته أن خلق لـــكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا اليها وجعل بينـكم مودة ورحمة » .

في غمـــار هذه الكثافة المادية الخانقة لروح الحياة الأسرية من تعقيدات المدنية الزائفة وجعل المـال والمهر وما يقدم من أساور ذهبية مطرزة بحمر اليواقيت وشتى فصوصه عند التسمية « قراءة الفاتحة والشبكة » والمساومات المالية في رفـــع قيمة المهر وانخفاضه ونوعية « الجهاز وطرزه » والمباهاة والافتخار بين الأسر في هذا المضمار ، وغير هذا وذلك من الاعتبارات المادية التي لا تهدف في منطقها الأخرق إلا إلى سلب الزواج أجمل قدسيته وأعذب مـــا فيه من القيم النفسية والخلقية والانسانية ... في غمار هذه التعقيدات والاعتبارات المادية ينبغي أن نلتمس من روح ديننا ما يكشف في ظلمة المادية، ومن بساطته ما يحل هذه التعقيدات ، لا سيا ونحن نجتاز مرحلة من تاريخنا

الاسلامي والعربي أضحت الفتاة فيه مثقفة ومتعلمة ومؤهلة للعمل في كل ميدان من ميادين الحياة فجدير بهذا التطور العلمي والاجتماعي أن يمزق أكفان البلى من هذه العادات والتقاليد التي عفى عليها الزمان وحسب والد العروس أو وليهـــا مؤونة أن يقدمها لعريسها بعد تربيتها وتعليمها حاملة سلاحها من الشهادات والوظيفة وحسبه ذلك لو أنصف المجتمع... وحسب الزوج كذلك عند ولي أمر العروس خلقه ودينه ومــا يحمل من أسلحة من العلم وأمل في المستقبل ورجـــاء في الله سبحانه ... لتبدأ الحياة الزوجية في عشها الهانيء الوديـع بسيطة لا إرهاق فيها ولا تعقيد ولتنمو مع الأيام وتتأثل مع الزمان وتساير نظرية التدرج الطبيعي لا قانون الطفرة المرهق .. وكم نسمع ونشاهد كل يوم من وأد حياة زوجية وهي في مهدها أو تصدعها ولما يكتمل بناؤها نتيجة لهذه الاعتبارات التي أشرنا اليها آنفاً ، وكم من ولي أمر عروس أرهق نفسه وأرهق من أصهر اليه فكان لهذا أثره النفسي والاجتماعي والاقتصادي السيء ... وكم وكم .

فما أحوجنا الى أن ننفذ الى روح الاسلام ونطبق فلسفته وسط هذه المدنية الصاخبة والحياة المعقدة .

والرافعي « رضوان الله عليه » خير من فلسف لنا الحياة الأسرية في أدبه بلغة العصر وأسلوبه ... وفنية القصة وعذوبة سياقها متخيراً أشخاصها من واقع تاريخنـــا الاسلامي والعربي في العصر الأموي لتكون مادة حية ونموذجاً يقتدى به مسلمو هذا العصر ، ألا وهي قصة أمير المؤمنين عبد الملك ابن مروان ومحاولته تزويج ابنه الوليد من ابنة الامام سعيد بن المسيب ورفض الامام لهذه المصاهرة وما وراءها من الحيـــاة والمال والسلطان ، وفلسفته في ذلك أن الجانب الروحي والخلقي لا يتوافران في هذه المصاهرة وهما عماد الزواج وملاكه .

وفي هذا الباب كثير من فلسفات الزواج والحياة الأسرية التي تهدينا الى

السعادة وتدلنا على الاستقرار والفلاح ، كاختيار الزوجة والأسس التي يقوم عليها ، ومواءمة بين الدعوة الى الزواج والتنديد بالعزوبة والى ما يواجهنا من مشكلات تحديد النسل ، وفيه فلسفة الزواج ، على أنه باب من الجهاد الأكبر وفيه رعاية الاسلام ومدى دقته في تربية البنـــات والثواب الأوفى للوالدين اللذين يقومان بهذا الحق على خير ما يقام ويضحى في سبيله ...وفيه تحليل نفسي رفيق لسيكلوجية المرأة زوجه ومدى حب المرأة للبهرج والزينة وقيام كثير من المشكلات الزوجية على هذا التركيب ورأي الدين في ذلك ، وضرب الأمثلة من واقع التاريخ في قصص الرافعي في ذلك ، كما أن فيه اشارة حكيمة لاختيار « السفير » الذي يقرب بين الزوجين المتنافرين .. وفيه رأي الرافعي الفيلسوف الغيور على وطنه وعروبته وإسلامه في زواج شبابنا بالأجنبيات ، وفيه عرض جميل شيق للحياة الأسرية لامهات المؤمنين ليكن نموذجاً شعبياً لزوجات اليوم .

وحسبي هذه الاشارة الموجزة لألقي الأضواء أمـــام القارىء ليعيش مع استاذنا الرافعي في باب هو من أمس الأبواب في حياة المجتمعات الانسانية .

القيمة النفسية والخلقية للزواج

ففي قصة زواج وفلسفة المهر كان بطل القصة الامــام سعيد بن المسيب إمام مسجد رسول الله – ﷺ – وفقيه المدينة في عصره وقد أراد عبدالملك بن مروان الخليفة الأموي في جاهه وسلطانه وبأسه وجبروته أن يصهر لابنه ولي عهد الخلافة « الوليد بن عبدالملك » بابنة الإمام سعيد ... فرفض الامام هذه المصاهرة رَفْضَ الشريعة المتعالية المتكبرة على الحكم والسلطان الجائر ، ووعد الخليفة وتوعد وأرغى وأزبد فلم يظفر من الإمام الا بكلمة لا ... في قوتها وصرامتها .

فعلى لسان رسول عبد الملك يقول الرافعي :

[قال[1] رسول عبدالملك : ويحك يا أبا محمد ، لكأن دمك والله من عدوك فهو يفور بك لتسلجّ في العناد فتقتل ، وكأني بك – والله – بين سبعين قد قفزا عليك ، هذا عن يمينك وهذا عن يسارك ، أتفر من حتف الا الى حتف ولا ترحمك الأنياب الا بمخاليبها ..

ها هنا هشام عامل أمير المؤمنين إن دخلته الرحمة لك استوثق منك في

(١) وحي القلم جزء أول ص ١١٧

الحديد ورمى بك الى دمشق ، وهناك امير المؤمنين ، وما هو والله الا أن يطعم لحمك السيف يعض بك عض الحية في أنيابها السمّ ، وكأني بهذا الجنب مصروعاً لمضجعه ، وبهذا الوجه مضرجاً بدمائه وبهذه اللحية معفرة بترابها ، وبهذا الرأس معتزاً في يد « أبي الزعيزعة » جلاد أمير المؤمنين يلقيه من سيفه رمي الغصن بالثمرة قد ثقلت عليه

وان عبد الملك بن مروان من علمت ، رجل قد عمّ الناس ترغيبه وترهيبه فهو آخذك على ما تكره ان لم تأخذه أنت على ما يحب ، وانه – والله ما طلب اليك أمـــير المؤمنين الا وأنت عنده الأعلى ولا يمشي اليك الا وكأنه يسعى بين يديك رعاية لمنزلتك عنده ، واكباراً لحقك عليه ، وما أرسلني أخطب اليك ابنتك لوليّ عهده الا وهو يبتذل نفسه اليك ابتذالا ليصل بك رحمه ويوثق آصرته ، وان يكن الله قد أغناك أن تنتفع به ويملكه ورعا وزهادة فما أحوج أهـل مدينة رسول الله – ﷺ أن ينتفعوا بك عنده وأن يكونوا أصهاراً للوليد .

وانك « والله » إنْ لججت في عنادك وأصررت أن تردني اليه خائباً ، لتهيجن قرم سيوف الشام الى هذه اللجوم ، ولحمك يومئذ من أطيبها ، ولأمير المؤمنين تارتان لين وشدة وأنا اليك رسول الأولى فلا تجعلني رسول الثانية .

وقلب الرسول نظره في وجه الشيخ ، فاذا هو هو ليس فيه معنى رغبة ولا رهبة ، كأن لم يجعل له الأرض ذهباً تحت قدميه في حالة ، ولم يملأ الجو سيوفاً على رأسه في الحالة الاخرى .وبعد قليل تكلم أبو محمد فقال :

يا هذا أما أنا فقد سمعت وأما أنت فقد رأيت ، وقد روينا أن هـــذه الدنيا لا تعدل عند الله جناح بعوضة ، فانظر ما جئتني أنت به وقِسْهُ الى هذه الدنيا كلها فكم – رحمك الله – تكون قد قسمت لي مـــن جناح البعوضة ... ؟

ولقد دعيت من قبل الى نيّف وثلاثين الفاً لا آخذها ، فقلت : لا حاجة لي فيها ولا في بني مروان ، حتى ألقى الله فيحكم بيني وبينهم ، وهأنذا اليوم أدعى الى أضعافها والى المزيد معها ، أفأقبض يدي عن جمرة ثم أمدها لأملأها جمراً ؟

قال رسول عبدالملك ، ولكن من عسى أن تجد لكريمتك خيراً من هذا الذي ساقه الله اليك ؟ إنك لراع وانها لرعية وستسأل عنها ، وما كان الظن بك أن تسيء رعيتها تبخس حقها وأن تعضلها وقد خطبها فارس بني مروان ان لم يكن فارسهم فهو ولي عهد المسلمين وان لم يكن هذا ولا ذاك فهوالوليد بن أمير المؤمنين وأدنى الثلاث أرفع الشرف فكيف بهن جميعاً ، وهنّ جميعاً في الوليد ؟

قال الشيخ : أما إني مسئول عن ابنتي فما رغبت عن صاحبك الا لأني مسئول عن ابنتي وقد علمت أنت أن الله يسألني عنها في يوم لعل أمير المؤمنين وابن أمير المؤمنين وألفافها لا يكونون فيه الا وراء عبيدها وأوباشها ودعارها وفجارها ، يخرجون من حساب الفجرة الى حساب القتلة ومن حساب هؤلاء الى الحساب على السرقة والغصب ، والى حساب أهل البغي الى حساب التفريط في حقوق المسلمين ويخف يومئذ عبيدها وأوباشها ودعارها وفجارها في زحام الحشر ، ويمشي أمير المؤمنين وابن أمير المؤمنين ومن اتصل بهما وعليهم أمثال الجبال من أثقال الذنوب وحقوق العباد فهذا ما نظرت في حسن الرعاية لابنتي ، لو لم أضن بها على أمير المؤمنين وابن أمير المؤمنين لأوبقت نفسي . لا والله ما بيني وبينكم عمل ، وقد فرغت مما على الأرض فلا يمر السيف مني في لحم حي .

. . .

ولما كان غداة غد جلس الشيخ في حلقته في مسجد رسول الله – ﷺ –

للحديث والتأويل فسأل رجل من عرض المجلس فقال : يا أبا محمد ، ان رجلاً يلاحيني في صداق ابنته ويكلفني ما لا أطيق . فما اكثر ما بلغ اليه صداق أزواج رسول الله – ﷺ – وصداق بناته ؟

قال الشيخ : روينا ان عمراً (رضي الله عنه) كان ينهى عن المغالاة في الصداق ويقول : (ما تزوج رسول الله – ﷺ – ولا زوج بناته بأكثر من أربعمائة درهم) ولو كانت المغالاة بمهور النساء مكرمة لسبق اليها رسول الله – ﷺ –

وروينا عنه (ﷺ) أنه قال : (خير النساء أحسنهم وجوهاً وأرخصهن مهوراً) فصاح السائل : يرحمك الله يا أبا محمد ، كيف يأتي ان تكون المرأة الحسناء رخيصة المهر ، وحسنها هو يغليها على النـاس تكثر رغبتهم فيهـا فيتنافسون عليها ؟

قال الشيخ : انظر كيف قلت . أهم يساومون في بهيمة لا تعقل ، وليس لها من أمرها شيء إلا أنها بضاعة من مطامع صاحبها يغليها علىمطامع الناس؟

إنما أراد رسول الله ﷺ ان خير النسـاء من كانت على جمال وجههـــا في أخلاق كجمال وجهها ، وكان عقلها جمالاً ثالثاً ، فهذه ان أصابت الرجل الكفء يسرت عليه ثم يسرت ثم يسرت، إذ تعتبر نفسها إنساناً يريد إنساناً لا متاعاً يطلب شارياً ، وهذه لا يكون رخص القيمة في مهرها ، إلا دليلاً على ارتفاع القيمة في عقلها ودينها ، أما الحمقاء فجمالها يأبى إلا مضاعفة الثمن لحسنها أي لحمقها ، وهي بهذا المعنى من شرار النساء وليست من خيارهن .

ولقد تزوج رسول الله ﷺ بعض نسائه على عشرة دراهم وأثاث بيت ، وكان الأثاث رحى يد ، وجرة ماء ، ووسادة من أدم حشوها ليف . وأولم على بعض نسائه بمدّين من شعير وعلى أخرى بمدين من تمر ومدين من سويق . وما كان به ﷺ الفقر ولكنه يشرع بسنته ليعلم الناس من علمه أن المرأة

للرجل نفس لنفس لا متاع لشاريه ، والمتاع يقوم بما بذل فيه إن غالياً وإن رخيصاً ، ولكن الرجل يقوم عند المرأة بما يكون منه . فمهرها الصحيح ليس هذا الذي تأخذه قبل أن تحمل الى داره ولكنه الذي تجده منه بعد ان تحمل الى داره ، مهرها معاملتها ، تأخذ منه يوماً فيوماً فلا تزال بذلك عروساً على نفس رجلها ما دامت في معاشرته . أما ذلك الصداق من الذهب والفضة فهو صداق العروس الداخلة على الجسم لا على النفس أفلا تراه كالجسم يهلك ويبلى- أفلا ترى هذه الغالية - إن لم تجد النفس في رجلها ، قد تكون عروس اليوم ومطلقة الغد ؟

فصاح رجل في المجلس : أيها الشيخ ، أفي هذا من دليل أو أثر ؟

قال الشيخ : نعم ، أما من كتاب الله فقد قال تعالى : « خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها » فهي زوجة حين تجده هو لا حين تجد ماله ، وهي زوجة حين تتممه لا حين تنقصه وحين تلائمه لا حين تختلف عليه ، فمصلحة المرأة زوجة ما يجعلها من زوجها ، فيكونان معاً كالنفس الواحدة على ما ترى للعضو من جسمه ، يريد لجسمه الحياة لا غيرها .

وأما من كلام رسول الله ﷺ فقد روينا « إذا أتاكم من ترضون دينه وأمانته فزوجوه ، ألاّ تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد كبير » .

فقد اشترط الدين ، على أن يكون مرضياً لا أيّ الدين كان ، ثم اشترط الأمانة وهي مظهر الدين كله بجميع حسناته ، وأيسرها أن يكون الرجل للمرأة أميناً وعلى حقوقها أميناً وفي معاملتها أميناً ، فلا يبخسها ولا يعنتها ولا يسيء اليها ، لأن كل ذلك ثلم في أمانته ، فإن ردت المرأة من هذه حاله وصفته من أجل المهر ، تقدم اليها بالمهر من ليست هذه حاله وصفته فوقعت الفتنة ، وفسدت المرأة بالرجل ، وفسد هو بها وفسد النسل بهما جميعاً وأهمل من لا يملك ، وتعنست من لا تجد ، ويرجع المهر الذي هو سبب الزواج سبباً

في منعه ، ويتقارب النساء والرجال على رغم المهر والدين والأمانة فيقع معنى الزواج ، ويبقى المعطل منه هو اللفظ والشرع .

هل علمت المرأة أنها لا تدخل بيت رجلها إلا لتجاهد فيه جهادها وتبلو فيه بلاءها ؟ وهل يقوم مال الدنيا في حقها فيما تعمل وما تجاهد ، وهي أم الحياة ومنشئتها ؟ فأين يكون موضع المال ومكان التفرقة في كثيره وقليله والمال كله دون حقها ..

ولن يفاوت الناس بالمال تخلف درجاتهم به وتكون مراتبهم على مقداره تكبر به مرة وتقل مرة – إلا إذا فسد الزمان وبطلت قضية العقل، وتعطل موجب الشرع ، وأصبحت السجايا تتحول يملكها من يملك المال ويخسرها من يخسره ، فيكون الدين على النفوس كالدخيل المزاحم لموضعه والمتدلّي في غير حقه ، وبهذا يرجع باطل الغنى ديناً يتعامل الناس عليه ودين الفقير بهرجاً لا يروج عند أحد ، وليس هذا من ديننا دين النفس والخلق .

وصاح المؤذن فقطع الشيخ مجلسه وقام الى الصلاة ثم خرج الى داره فتلقته ابنته وعلى وجهها مثل نور فقالت : يا أبت كنت اتلو الساعة قوله تعالى : (ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة) فما حسنة الدنيا ؟ قال : يا بنية هي التي تصلح أن تذكر مع حسنة الآخرة ، وما أراها للرجل إلا الزوجة الصالحة ولا للمرأة ...

وطرق الباب ، فذهب الشيخ يفتح فاذا الطارق (عبدالله بن ابي وداعة) وكان يجالسه ويأخذ عنه ويلزم حلقته ، ولكنه فقده أياماً ، فدخل فجلس، قال الشيخ « أين كنت ؟ » قال « توفيت أهلي فاشتغلت بها » .

قال الشيخ : « هلا أخبرتنا فشهدناها » ثم اخذ يفيض بالكلام عن الدنيا والآخرة ولما أراد أن يقوم قال (سعيد) .

« هل استحدثت امرأة غيرها ؟ »

قال يرحمك الله ، أين نحن من الدنيا اليوم ، ومن يزوجني وما أملك إلا درهمين أو ثلاثة ؟

قال الشيخ « أنا ..... »

أنا ، أنا ، أنا ..... دوّى الجو بهذه الكلمة في أذن طالب العلم الفقير فحسب أن الملائكة تنشد نشيداً في تسبيح الله يطن لحناً أنا ، أنا ، أنا .

وخرجت الكلمة من فم الشيخ ومن السماء لهذا المسكين في وقت واحد وكأنها كلمة زوجته احدى الحور العين.... فلما أفاق من غشيته أذنه .. . قال « وتفعل ؟ »

قال (سعيد) « نعم » وفسر « نعم » بأحسن تفسيرها وأبلغه ، فقال قم وإدع لي نفراً من الانصار ، فلما جاءوا حمد الله وصلى على رسوله «ﷺ» وزوجه على ثلاثة دراهم... ثلاثة دراهم مهر الزوجة التي أرسل يخطبها الخليفة لولي عهده بثقلها ذهباً لو شاءت .

قال عبدالله بن وادعة : « ثم دخلت بها فاذا هي من أجمل الناس واحفظهم لكتاب الله تعالى ، واعلمهم بسنة رسوله – ﷺ – واعرفهم بحق الزوج ، لقد كانت المسألة المعضلة تعي الفقهاء ، فأسألها عنها فأجد عندها منها علماً ».

قال : ومكثت شهراً لا يأتيني سعيد ولا آتيه فلما كان بعد الشهر أتيته وهو في حلقته فسلمت فرد عليّ السلام ، ولم يكلمني حتى تفرق الناس من المجلس ، وخلا وجهه ، فنظر اليّ وقال :

« ما حال ذلك الانسان ..... ؟ » .....

أما ذلك « الانسان » فلم يعرف من الفرق بين قصر ولي العهد ابن أمير

المؤمنين وبين حجرة ابن أبي وداعة التي تسمى دارا ... الا أن هناك مضاعفة الهم وهنا مضاعفة الحب .

وما بين (هناك) الى القبر مدة الحياة – ستخفت الروح من نور بعد نور الى أن تنطفىء في السماء من فضائلها .

وما بين (هنا) الى القبر مدة الحياة – تستطيع الروح بنور على نور الى أن تشتعل في السماء بفضائلها وما عند امير المؤمنين لا يبقى ، وما عندالله خير وأبقى .

لما زوج الامام ابنته من ابن أبي وداعة ، وأخذها بنفسه اليه في يوم زوجها منه ومشى بها في طريق حصاه عنده أفضل من الدرّ وترابه أكرم من الذهب – طارت الحادثة في الناس واستفاض لهم قول كثير « فأما الذين آمنوا فزادتهم ايماناً وهم يستبشرون » .

وقال جماعة منهم : تالله لئن انقطع الوحى ، ان في معانيه بقية ما تزال تنزل على بعض القلوب التي تشبه في عظمتها قلوب الأنبياء .

وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم ، وقال أناس منهم : أما والله لو تهيأ لأحدنا أن يكون لصاً يسرق أمير المؤمنين ان ابن أمير المؤمنين ركب رأسه في ذلك فكيف بمن تهيأ له الصهر والحسب وجاهه الغني يطرق بابه– ما باله يرد ذلك ؟ وكيف تثقل همته وتبوء وتموت اذا كانت الدّر والجواهر والذهب والخلافة ، ثم ينبعث ويمضي لا يتلكأ عزمه اذا كان العلم والفقر والدين والتقوى ...؟

قال الراوي : ولم يستطع أحد من الناس أن يواجه الامام بشفة أو بنت شفة لا مضيقا عليه من قلبه ولا موسعاً ، حتى كان يوم من أيام الجمعة وقدمال الناس بعد الصلاة الى حلقة الشيخ وتقفصوا بعضهم على بعض فغص بهم المسجد، وكان إمامنا يفسر قوله تعالى « وما لنا الا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا

ولنصبر على ما أذيتمونا . وعلى الله فليتوكل المتوكلون » .

قال الراوي : فكان مما قاله الشيخ :

اذا هدى المرء سبيله كانت السبل الأخرى في الحياة اما عداء له واما معارضة وإما رداً فهو منها في الأذى أو في معنى الأذى أو عرضة للاذى لقد وجد الطريق ولكنه أصاب العقبات أيضاً ، وهذه حالة لا يمضي فيها الموفق الى غايته ، الا اذا أعانه الله بطبيعتين : أولاهما العزم الثابت وهذا هو التوكل على الله والأخرى اليقين المتبصر وهذا هو الصبر على الأذى .

قال الراوي : وعند ذلك صاح رجل كان في المجلس دسّه عامل الخليفة ليسأل الشيخ سؤالاً على ملأ الناس يكون كالتشنيع عليه والتشهير به ، وقد مكر العامل فاختاره شيخاً كبيراً أعقف ليرحم الناس رقة عظمه وكبر سنه فلا يعرضون له بأذى

قال الصائح ذلك أيها الشيخ صبر أولي العزم من الرسل أو صبر إبنتك على مكاره العيش مع ابن أبي وداعة ، لا يجد الا رمقه يمسك بها الرمق عليها ، وقد كانت النعمة لها معرضة فدفعتها اليه – زعمت لتهلل به شخصها الحيواني وتوكلت على الله وألقيت ابنتك في اليم ؟...

فتربّد وجه الشيخ وأطرق هنيهات ، ثم رفع رأسه وقال : أين المتكلم آنفاً ؟ فارتفع الصوت : هأنذا ، قال : أدنُ مني فتقاعس الرجل كأنما تهيب ما فرط منه فاستدناه الثانية فقام يتخطى الناس حتى وقف بازائه ثم جلس فقرأ الشيخ قوله تعالى « وبرزوا لله جميعاً فقال الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعاً فهل انتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء ؟

قالوا : لو هدانا الله لهدينا كم سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص » .

قال الشيخ : أرأيت الانسان يكون سعيداً بما يتوهم الناس أنه به غني

سعيد أم بشعوره هو وان كان بعد فيما لا يتوهم الناس فيه الغنى والسعادة ؟

قال : بل بشعوره .

قال الشيخ : أفلا توجد في الدنيا أشياء من النفس تكون فوق الدنيا وفوق الشهوات والمطامع ، كالطفل عند أمه ، كل تعلق به من شيء وزن به هو لا بغيره ، وكان الاعتبار عليه لا على سواه ، أتعرف أماً ترضى أن يذبح ابنها في حجرها لقاء أن يملأ حجرها ذهباً وان كانت فقيرة معدمة ؟

قال : لا .

قال الشيخ : أفتعرف أن لكل نفس قوية من هذا العالم الذي نعيش فيه عالماً آخر هو عالم أفكارها واحساسها وفيه وحده لذات احساسها وأفكارها؟

قال : نعم .

قال الشيخ : أرأيت اذا كانت الخمر عند مدمنها شيئاً عظيماً وكانت ضرورة من ضرورات وجوده الضعيف المختل فلا يستقيم وجوده ولا سفه وجوده الا بها ، أفيلزم من ذلك أن تكون الخمر من ضرورات صاحب الوجود القوي المنتظم ؟

قال : لا .

قال الشيخ : أفموقن أنت ألا بد من آخرٍ لأيام الانسان ولياليه في هذه الدنيا فينقطع به العيش ؟.

قال: نعم .

قال الشيخ : أفيؤرخ الانسان يومئذ بتاريخ معدته وما حولها أم بتاريخ نفسه وما فيها ؟

قال : بل بتاريخ نفسه .

قال الشيخ : فإذا كنت صاحب حرب وكنت بطلاً من الأبطال ومسعراً من المساعير وأيقنت الموت في المعركة ، أيكون الحقيقي عندك في هذه الساعة هو الموت أم الحياة ؟

قال : بل الحياة عندئذ وهمٌ باطل .

قال الشيخ : فتفر في تلك الساعة الى الحياة ولذاتها في خيالك ، أم تفرّ منها ومن لذاتها ؟

قال : بل الفرار منها ، فان خيالها يكون خيالاً .

قال الشيخ : ففي تلك الساعة التي هي عمر نفسك وعمل نفسك ورجاء نفسك تستشعر اللـــذة في موتك بطلا مذكوراً ، أم تحس الكرب والمقت من ذلك ؟

قال : بل استشعر اللذة .

قال الشيخ : اذن فبعض أشياء النفس تمحو في بعض الأحوال كل اشيــاء الدنيا ، او الأشياء الكثيرة من الدنيا .

قال : نعم .

قال الامام : يرحمك الله ، كذلك قد مُحيَ عندنا أمير المؤمنين وابن أمير المؤمنين ومحي المال والغنى ، ولم يكن ذلك عندنا إلا سعــادة ، ومن رحمة الله أن كل من هدى سبيله بالدين او الحكمة استطاع أن يضع لنفسه سعادتهــا في الدنيا ، ولو لم يكن له إلا لقيمات فإن السعة سعة الخلق لا المال ، وان الفقر فقر الخلق لا العيش .

قال الراوي : ثم ان الامام العظيم التفت الى الناس وقال : أما إني — علم الله — ما زوجت ابنتي رجلا اعرفه فقيراً او غنياً ، بل رجلا اعرفه بطلا من أبطال الحياة يملك أقوى أسلحته من الدين والفضيلة ، وقد أيقنت حين زوجتها

منه أنها ستعرف بفضيلة نفسها فضيلة نفسه ، فيتجانس الطبع والطبع ، ولا مهنأ لرجل وأمرأة الا ان يجانس طبعه ، وقد علمت وعلم الناس ان ليس في مال الدنيا ما يشتري هذه المجانسة وأنها لا تكون إلا هديـــة قلب لقلب يأتلفان ويتحابان .

أف أفٍ أتريدون أن أزوج ابنتي من ابن أمير المؤمنين فيخزيها الله على يديّ وأدفعها الى القصر وهو ذلك المكان الذي جمع كل أقذار النفس ودنس الأيام والليالي ، أأزوجها رجلا تعرف من فضيلة نفسها سقوط نفسه فتكون زوجة جسمه ومطلقة روحه في وقت معاً ؟

ألا كم من قصر هو في معناه مقبرة ليس فيها من هؤلاء الأغنيـــاء رجالهم ونسائهم إلا جيف يبلي بعضها بعضاً .

. . .

قال الراوي : وضج الناس لحمامة صغيرة قد جنحت من الهواء فوقعت في حجر الشيخ لائذة به من مخافة ، وجعلت تدف بجناحيها وتضطرب من الفزع ومرّ الصقر على أثرها وقد أهوى لهـــا ، غير أنه تمطر ومرق في الهواء إذ رأى الناس .

وتناولها الامام في يده وهي في رجفتها من زلزلة الهواء، وكانت كالعروس مسرولة قد غابت ساقاها في الريش ، وعلى جسمها من الالوان نمنمة وتحبير ، ولها روح العروس الشابة يهدونها الى من تكره ، ويزفونها على قاتلها الذي يسمى زوجهـــا . وأدناها الشيخ من قلبه ومسح عليها بيده ونظر في الهواء وهو يقول : نجوتِ نجوتِ يا مسكينة .]

فلسفة الجمال في الزوجة

وفي مقال الرافعي « قبح جميل » تنزيه للمرأة زوجة وأماً كائنة من كانت أن توصف بالدمامة وهي بعد من هي في مقام الأمومة الاسمى « والجنة تحت أقدامها » .

وفي المقال تفسير ضمني لحديث الرسول ﷺ في النكاح « تنكح[1] المرأة لأربع ، لمالها ولجمالها ولحسبها ولدينها ، فاظفر بذات الدين تربت يداك » . وفيه تبيان لمعاني الجمال بألوانه وفنونه في المرأة زوجة ، كعذوبة الروح وألمعية الذهن وجيشان العاطفة ولين العريكة وسمو الخلق ، وهلمَّ جراً من هذه الشيات التي ترتفع بها الزوجة انسانة عن جمال جسدها فحسب .

وهذا المقال بحججه الدامغة وتعليلاته النفسية العميقة فصل كامل من الانسانية العليا في حياة الأسرة المسلمة وسياج روحي ونفسي للقناعة «الجنسية» في حياة الزوجين أن يزلا أو ينحرفا .

وقد عالجه الرافعي ، بأسلوب القصة أيضاً مستمداً روافدها من تاريخنا الاسلامي العربي ايضاً في العصر العباسي الثاني «وهي قصة أحمد بن أيمن كاتب ابن طولون ومسلم بن عمران التاجر المتأدب بالبصرة» . وفي المقال توجيه

---

(١) صفوة صحيح البخاري باب النكاح تحقيق عبد الجليل عيسى .

جميل لحديث الرسول – ﷺ – « سوداء ولود خير من حسناء لا تلد » .

يقول الرافعي : [ما[1] أراك إلا استجدت الأم فحسن نسلك ، وجاء كاللؤلؤ يشبه بعضه بعضاً صغاره من كباره ومـــا عليك إلا أن تكون قد تزوجت ابنة قيصر فأولدتها هذين ، وأخرجتهما هي تلك في صيغتها الملوكية من الحسن والأدب والرونق ، وما أرى مثلهما يكونان في موضع إلا كان حولهما جلال الملك ووقاره ، مما يكون حولهما من نور تلك الأم . قال مسلم: وانت على ذلك غير مصدق إذا قلت لك اني لا أحب المرأة الجميلة التي تصف وليس لي هوى إلا في امرأة دميمة هي بدمامتها أحب النساء إليّ ، وأخفهن على قلبي ، وأصلحهن لي ، ما أعدل بها ابنة قيصر ولا ابنة كسرى .

فبقي ابن ايمن كالمشدوه من غرابة ما يسمع .

فقال مسلم : فهو والله ما قلت لك وما أحب إلا امرأة دميمة قد ذهبت بي كل مذهب ، وأنستني كل جميلة في النساء ، ولئن أخذت أصفها لك لمـــا جاءت الألفاظ إلا من القبح والشّوهة والدمامة ، غير أنها مع ذلك لا تجيء إلاّ دالة على أجمل معاني المرأة عند رجلها في الحظوة والرضى وجمال الطبع، وانظر كيف يلتئم أن تكون الزيادة في القبح هي زيادة في الحسن وزيادة في الحب ، يكون اللفظ الشائه وما فيه لنفسي إلا المعنى الجميل ، وإلا الحسن الصادق بهذا المعنى ، والاهتزاز والطرب لهذا الحسن ؟.]

ثم يسترسل مسلم ابن عمران في حديثه مع صديقه ابن أيمن في قصة هـذا الزواج فيقول الرافعي على لسانه عندما هم باختيار الزوجة والبحث عنها. .. وعندما هداه الله على ضوء هذا الحديث الشريف «سوداء ولود خير من حسناء لا تلد » .... يقول الرافعي [2]:

---

(١) من وحي القلم جزء أول ص ١٥٩ .

(٢) وحي القلم جزء اول ص ١٦٢

[وكأني لم أرَ في الأبله ولا في البصرة امرأة بتلك التصاوير التي في نفسي فتأخذها عيني فتعجبني ، فتصلح لي فأتزوج بها وطمعت أن أنزل نجما من تلك الآفاق أحرزه في داري ، فما زلت أرمي من بلد الى بلد حتى دخلت « بلخ » من أجل مدن خراسان وأوسعها غلة ، تحمل غلتها الى جميع خراسان والى خوارزم ، وفيها يومئذ – كان – عالمها وأمامها « أبو عبدالله البلخي » وكنا نعرف اسمه في البصرة اذ كان قد نزلها في رحلته وأكثر الكتابة بها عن الرواة والعلماء ، فاستخفتني اليه نزيه من شوقي الى الوطن كأن فيه بلدي وأهلي . فذهبت الى حلقته وسمعته يفسر قول النبي ﷺ « سوداء ولود خير من حسناء لا تلد » .

قال في تأويل ذلك الحديث : أما في لفظ الحديث فهو من معجزات بلاغة نبينا – ﷺ – وهو من أعجب الأدب وأبرعه ، ما علمت أحداً تنبه اليه ، فانه ﷺ لا يريد السوداء بخصوصها ، ولكنه كنّ بها عما تحت السواد وما فوقه وما هو الى السواد من الصفات التي يتقبحها الرجال في خلقة النساء ، وهو رهن فألطف التعبير ورقّ به ، رفعاً لشأن النساء أن يصف امرأة منهن بالقبح والدمامة وتنزيها لهذا الجنس الكريم ، وتنزيها للسانه النبوي كأنه ﷺ يقول : ان ذكر قبح المرأة هو في نفسه قبيح في الأدب ، فأن المرأة أمّ أو في سبيل الأمومة ، « والجنة تحت أقدام الأمهات » فكيف تكون الجنة التي هي أحسن ما يتخيل في الحسن تحت قدمي امرأة ، ثم يجوز أدبا أو عقلاً أن توصف هذه المرأة بالقبح .

أما ان الحديث كالنص على أن كمال أدب الرجل اذا كان رجلا ألا يصف امرأة بقبح الصورة البتة ولا يجري في لسانه لفظ القبح وما في معناه موصوفا به هذا الجنس الذي منه أمه أيود أحدكم أن يمزق وجه أمه بهذه الكلمة الجارحة ؟

وقد كان العرب يفصلون لمعاني الدمامة في النساء ألفاظاً كثيرة ، اذ كانوا

لا يرفعون المرأة عن السائمة والماشية ، أما أكمل الخلق ﷺ فما يوصي بالنساء ويرفع شأنهن حتى كان آخر ما وصى به ثلاث كلمات ، كان يتكلم بهن الى أن تلجلج لسانه وخفى كلامه ، جعل يقول : « الصلاة ... الصلاة . وما ملكت أيمانكم لا تكلفوهم ما لا يطيقون الله الله في النساء . »

قال الشيخ : كأن المرأة من حيث هي انما هي صلاة تتعبد بها الفضائل ، فوجبت رعايتها وتلقيها بحقها ، وقد ذكرها بعد الرقيق لأن الزواج بطبيعته نوع رق ، ولكنه ختم بها وقد بدأ بالصلاة ، لأن الزواج في حقيقته نوع عبادة.

قال : ولو أن أماً كانت دميمة شوهاء في أعين الناس ، لكانت مع ذلك في عين أطفالها أجمل من ملكة على عرشها ، ففي الدنيا من يصفها بالجمال صادقاً في حسه ولفظه ، لم يكذب في أحدها ، فقد انتفى القبح اذن ، وصار وصفها به في رأي العين تكذيباً لوصفها في رأي النفس ، ولا أقل من أن يكون الوصفان قد تعارضا فلا جمال ولا دمامة .

قال الشيخ : وأما معنى الحديث فهو (ﷺ) يقرر للناس أن كرم المرأة بأمومتها ، فاذا قيل : أن في صورتها قبحاً ، فالحسناء التي لا تلد أقبح منها في المعنى . وانظر أنت كيف يكون القبح الذي يقال أن الحسن أقبح منه ...

فمن أين تناولت الحديث رأيته دائراً على تقدير أن لا قبح في صورة المرأة ، وأنها منزهة في لسان المؤمن أن توصف بهذا الوصف ، فان كلمات القبح والحسن لغة بهيمية تجعل حب المرأة حباً على طريقة البهائم ، من حيث تفضلها طريقة البهائم بأن الحيوان على احتباسه في غرائزه وشهواته ، لا يتكذب في الغريزة ولا في الشهوة بتلوينها ألواناً من خياله ، ووضعها مرة فوق الحد ، ومرة دون الحد .

فأكبر الشأن هو المرأة التي تجعل الانسان كبيراً في انسانيته ، لا التي

تجعله كبيراً في حيوانيته ، فلو كانت هذه الثانية هي التي يصطلح الناس على وصفها بالجمال فهي القبيحة لا الجميلة ، اذ يجب على المؤمن الصحيح الايمان أن يعيش فيما يصلح به الناس ، لا فيما يصطلح عليه الناس ، فان الخروج من الحدود الضيقة للألفاظ ، الى الحقائق الشاملة، هو الاستقامة بالحياة على طريقها المؤدي الى نعيم الآخرة وثوابها .

وهناك ذاتان لكل مؤمن : احداهما غائبة عنه والأخرى حاضرة فيه وهو إنما يصل من هذه الى تلك ، فلا ينبغي أن يحصر السماوية الواسعة في هذه الترابية الضيقة ، والقبح انما هو لفظ ترابي يشار به الى صورة وقع فيها من التشويه مثل معاني التراب ، والصورة الثانية فانية زائلة ، ولكن عملها باق ، فالنظر يجب ان يكون الى العمل، فالعمل هو لا غيره الذي تتعاوره ألفاظ الحسن والقبح .

وبهذا الكمال في النفس ، وهذا الأدب ، قد ينظر الرجل الفاضل من وجه زوجته الشوهاء الفاضلة لا الى الشوهاء ، ولكن الى الحور العين . انهما في رأي العين رجل وامرأة، في صورتين متنافرتين جمالا وقبحاً أما في الحقيقة والعمل وكمال الايمان الروحي فهما ارادتان متحدتان يجذب احداهما الأخرى جاذبية عشق وتلتقيان معاً في النفسين الواسعتين ، المراد بهما الفضيلة وثواب الله والانسانية ، ولذلك اختار الامام أحمد بن حنبل عوراء على أختها ، وكانت أختها جميلة ، فسأل : من أعقلهما ؟ فقيل العوراء ، فقال : زوجوني إياها ، فكانت العوراء في رأي الامام، وارادته هي ذات العينين الكحيلتين لوفور عقلها وكمال ايمانه .

قال ابو عبدالله : والحديث الشريف بعد كل هذا الذي حكيناه يدل على أن الحب متى كان انسانياً جارياً على قواعد الانسانية العامة ، متسعاً لها غير محصور في الخصوص منها – كان بذلك علاجاً من أمراض الخيال في النفس واستطاع الانسان أن يجعل حبه يتناول الأشياء المختلفة ، ويرد على

نفسه من لذاتها ، فان لم يسعده شيء بخصوصه ، وجد أشياء كثيرة تسعده بين السماء والأرض ، وإن وقع في صورة امرأته ما لا يعد جمالاً ، رأى الجمال في أشياء منها غير الصورة ، وتعرّف الى ما لا يخفى مظهر له مـــا يخفى ، وليست العين وحدها هي التي تؤامر في أي الشيئين أجمل ، بل هناك العقل والقلب ، فجواب العين وحدها انما هو ثلث الحق ومتى قيل « ثلث الحق فضياع الثلين يجعله في الأقل حقاً غير كامل . فما تكرهه من وجه قد يكون هو الذي تحبه من وجه آخر ، اذا نحن تركنا الارادة السليمة تعمل عملهـــا الانساني بالعقل والقلب ، وبأوسع النظرين دون أن أضيقهما « فعسى ان تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً » .

قال أحمد بن أيمن : فحلف لي التاجر : انهـا ملكت قلبي ملكاً لا تصل اليه حسناء بحسنها ، فقلت : ان جزاء ما قدمت ما تسمعينه مني : « والله لأجعلنك حظي من دنياي فيما يؤثره الرجل من المرأة ، ولأضربن على نفسي الحجاب ، مـــا تنظر نفسي الى أنثى غيرك ابداً » ، ثم أتممت سرورها ، فحدثتها بما حفظته عن أبي عبدالله البلخي . فأيقنت - والله يا أحمد - أنها نزلت مني في أرفع منازلها وجعلت تحسن وتحسن، كالغصن الذي كان مجروداً ثم وخزته الخضرة من هنا ومن هنا .

وعاشرتها ، فاذا هي أضبط النساء ، وأحسنهن تدبيراً ، وأشفقهن عليّ ، وأحبهنّ لي ، واذا راحتي وطاعتي أول أمرها وآخره واذا عقلها وذكاؤها يظهران لي من جمال معانيها ما لا يزال يكثر ويكثر ، فجعل القبح يقل ويقل وزال القبح باعتيادي رؤيته ، وبقيت المعـــاني على جمالها ، وصارت لي هذه الزوجة هي المرأة وفوق المرأة] .

الانعكاسات النفسية على النسل

والرافعي يشير في مقاله هذا الى قاعدة نفسية هامة كثيراً مـا تطرد في الزواج على مألوف القوانين الوراثية (فسيولوجيا وبيولوجيا) تبيانا لمعجزات التصوير الإلهي في ابداعه وتكريماً لمعجزات الايمان للذين آمنوا ... ففي القصة تصوير فني رائع لجمال الطفلين اللذين استولدهما مسلم بن عمران من هـذه الأم غير الحسناء . لكثرة ما توارد على ذهنها وكمن في نفسها طوال مدة الحمل من تمني الحسن والجمال في نسلهما المرجو

قال الرافعي يصور ذلك : [دخل أحمد بن أيمن (كاتب ابن طولون) البصرة فصنع له مسلم بن عمران التاجر المتأدب صنيعا دعـــا اليه جماعة من وجوه التجار وأعيان الأدباء فجاء ابنا صاحب الدعوة وهما غلامان فوقفا بين يدي أبيهما وجعـــل ابن أيمن يطيل النظر اليهما ويعجب من حسنهما وبزتهما وروائهما حتى كأنما أفرغا في الجمال وزينته افراغاً ، أو كأنما جاءا من شمس وقمر لا من أبوين من الناس ، أو هما قد نبتا في مثل تهاويل الزهر من زينته التي تبدعها الشمس ، ويصقلها الفجر ، ويتندّى بها روح الماء العذب ، وكان لا يصرف نظره عنها الا رجـــع به النظر ، كأن جمالهما لا ينتهي فما ينتهي الاعجاب به .

قال ابن أيمن سبحان الله ، ما رأيت قط دميتين لا تفتح الأعين على أجمل

ملاحظة : ما يراد بين قوسين في كلام الرافعي . فهو نص تاريخي في صلب القصة .

منهما ولو نزلا من السماء وألبستهما الملائكة ثيابا من الجنة ما حسبت أن تصنع الملائكة أظرف ولا أحسن مما صنعت امهما .

فالتفت اليه مسلم وقال : أحب أن تعوذهما . فمد الرجل يده ومسح عليهما وعوذهما بالحديث المأثور .. ثم قال : ما أراك الا استجدت الأم فحسن نسلك وجاء كاللؤلؤ يشبه بعضه بعضاً صغاره من كباره ... قال مسلم، وأنت على غير مصدق اذا قلت لك اني لا أحب المرأة الجميلة التي تصف وليس بي هوى الا في امرأة دميمة هي بدمامتها أحب النساء إلي أولهن وأخصهن على قلبي وأصلحهن لي .....

ولما ولدت لي جاء ابنها رائع الصورة . فحدثتني أنها كانت لا تزال تتمنى على كرم الله وقدرته أن تتزوج وتلد أجمل الأولاد ، ولم تدع ذلك من فكرها قط ، وألف لها عقلها صورة أجمل غلام تتمثله وما برحت تتمثله ، فاذا هي أيضا كان لها شأن كشأني وكان فكرها عملاً يعمل في نفسها ويديرها ويصرفها.

ورزقني الله منها هذين الإبنين الرائعين لك ، فانظر أي معجزتين من معجزات الايمان ...]

الزواج باب من الجهاد الاعظم

وفي مجموعة من قصص الرافعي ومقالاته ، يدعو شبابنا الذي قد استكمل دراسته أو استجمع أهبته من الحياة وأخذ بناصية العمل الوظيفي الى المبادرة بالزواج واقامة العش الزوجي الهانيء الوديع وممارسة اللذة النفسية الروحية والمتعة الجسدية معاً في رحاب هذه الشريعة الفطرية وبين أعطاف شريكة العمر والأولاد وأنها لذة من الكفاح النفسي تعلو على كل كفاح وجهاد في نظر الاسلام والسماء ... واذا كان بعض شبابنا يجعل من تحمل أعباء الأسرة من زوج وولد فان في السماء رزقها مكفول مضمون بلا حدود ولا حساب « وفي السماء رزقكم وما توعدون فورب السماء والأرض انه لحق مثل ما انكم تنطقون » بل قد يرزق الآباء بجانب الأبناء ... « نحن نرزقهم وإياكم » .

والرافعي – رضوان الله عليه – يؤكد لشبابنا الذي قد استطاع الباءة ولم يتزوج أن كل ليلة تمر عليه انما هي مضيعة من عمره المحدود واستهلاك لرجولته ونفاد لما له وحيويته وصراع محطم بين غرائزه وبين روحانيته و اللتين هما أصل تكوين الطبيعة الانسانية ، وفيها ، انهزام لرجولته أن تدخل معترك الحياة مؤيدة بثقة الله وعونه .

وان الانسان مهما سما بروحه وحلق بارادته فوق الغرائز وسلطانها فهو مشدود بناموس الفطرة الى الزوجة والولد « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة » ، وفيها أيضاً الأجر الالهي والجزاء الأوفى الذي يقدمه الأطفال الى آبائهم وأمهاتهم في هول يوم القيامة حزاء ما صفوا لهم في الدنيا .

ففي قصة (رؤيا في [1] السماء) تتضح هذه المثل العليا من الجهاد في سبيل الولد والزوجة والصراع بين السمو بالروح وبين الغرائز ودوافعها وفيها تبيان لرأي الاسلام في الرهبنة وأنه ليس ثمة تناقض بين التصوف والنسك والعبادة وبين الحياة الزوجية والأسرة السعيدة وأن ذلك أسمى وأفضل ، وقد أدار الرافعي هذه المعاني بأسلوب الحوار القصصي بين أبي ربيعة الفقيه الصوفي وبين أبي خالد الأحول الزاهد :

[« لما كانت امرأة شيخنا أبي ربيعة الفقيه الصوفي ذهبت مع جماعة من النساء من فشهدنا أمرها ، فلما فرغنا من دفنها وسوّى عليها ، قام شيخنا على قبرها وقال: يرحمك الله يا فلانة الآن قد شفيتِ أنتِ ومرضتُ أنا ، وعوفيتِ وابتليتُ ، وتركتني ذاكراً وذهبت ناسية ، وكان للدنيا بك معنى ، فستكون بعدك بلا معنى ، وكانت حياتك لي نصف القوة ، فعاد موتك لي نصف الضعف ، وكنت أرى الهموم بمواساتك هموماً في صورها المخففة ، فستأتيني بعد اليوم في صورها المضاعفة ؟ وكان وجودك معي حجاباً بيني وبين مشقات كثيرة ، فستخلص كل هذه المشاق الى نفسي ، وكانت الأيام تمر أكثر ما تمر في رقتك وحنانك ، فستأتيني أكثر ما تأتي متجردة في قسوتها وغلظتها ، أما اني - والله - لم أرزأ منك في امرأة كالنساء ، ولكني رزئت في المخلوقة الكريمة التي أحسست معها أن الخليقة كانت تتلطف بي من أجلها .

قال أبو خالد : ثم استدمع الشيخ فأخذت بيده ورجعنا الى داره حتى انتهينا اليها فدخلنا وما فيها أحد ، فنظر يمنة ويسرة ، وقلّب عينيه ها هنا و ها هنا وحوقل واسترجع ثم قال : الآن ماتت الدار أيضاً يا أبا خالد . إن البناء كأنما يحيا بروح المرأة تتحرك في داخله ، وما دام هو الذي يحفظها للرجل ، فهو في عين الرجل كالمطرف تلبسه فوق ثيابها من فوق جسمها ، وانظر كم بين أن ترى عيناك ثوب امرأة في يد الدلال في السوق ، وبين أن

---

[1] وحي القلم جزء اول ص ٢٤٠

تراه عيناك يلبسها وتلبسه ولكنك يا أبا خالد لا تفقه من هذا شيئاً ، فأنت رجل آليت لا تقرب النساء ولا يقربنك ، ونجوت بنفسك منهن وانقطعت بها لله ، وكأن كل نساء الارض قد شاركن في ولادتك فحرمن عليك ، وهذا مـــا لا أفهمه أنا إلا ألفاظاً ، كما لا تفهم أنت ما أجد الساعة إلا ألفاظاً ، وشتان بين قائل يتكلم من الطبع وبين سامع يفهم بالتـكلـّف .

فقلت له : يا أبا ربيعة ، وما يمنعك الآن وقد أطرحت أثقالك وأنبتت أسبابك من النساء – أن تعيش خفيف الظهر ، وتفرغ للنسك والعبادة وتجعل قلبك كالسماء انقشع غيمها فسطعت فيها الشمس ، فإنه يقال : إن المرأة ولو كانت صالحة قانتة فهي في منزل الرجل العابد مدخل الشيطان اليه ولو أن هذا العابد كان يسكن في حسنانه لا في دار من الطوب والحجارة لكانت امرأته كوة يقتحم الشيطان منها ولقد كان آدم في الجنة ، وبينها وبين الأرض سموات وأفلاك ، فما منع ذلك أن تتعلق روح الأرض بالشيطان ، فيتعلق الشيطان بحواء ، وتتعلق هي بآدم ، ومكر الشيطان فصورها لهما في صيغة مسألة علمية ومكرت حواء فوضعت فيها جاذبية اللحم والدم ، فلم تعد مسألة علم ومعرفة ، بل مسألة طبع ولجاجة . فأكلا منهـا فبدت لهما سوءاتهما

فاطمس يا اخي على موضعها من قلبك وألقِ النور على ظلها ، فالنور في قلب العابد نور التحويل إن شاء ، ونور الرؤية إن شاء ، يرى به المادة كما يريد أن تكون لا كما تكون . وأنت قد كانت فيك امرأة ، فحولها صلاة ، واعمل بنورك عكس ما يعمل أهل الجوارح بظلامهم فقد تكون في أحدهم الصلاة فيحولها امرأة ...

قال ابو ربيعة : تالله إنه لرأي ، والوحدة بعد الآن أروح لقلبي ، واجمع لهمي ، وقد خلعني الله ممـــا كنت فيه ، وأخذ القبر امرأتي وشهواتي معاً ، فسأعيش مـــا بقى لي فيما بقي مني . وزوال شيء في النفس هو وجود شيء

آخر ، ولقد انتهيت بالمرأة ومعانيها وأيامهـــا الى القبر فالبدء الآن من القبر ومعانيه وأيامه .

وتواثقا على أن يسيرا معاً في «باطن» الوجود ... وأن يعيشا في عمر هو ساعة معدودة اللحظات ، وحياة هي فكرة مرسومة مصورة .]

وهنا تنحل العقدة في القصة بهذه الرؤيا التي رآها أبو خالد الأحول الزاهد بعد صراع عنيف بينه وبين نفسه أن يكون قد خدع صديقـه أبا ربيعة في الرأي وأشار عليه بما لا ينبغي فيكون قد غشه ويبوء بإثمه واثم نفسه .

[قال أبو خالد:ورأيت أن أبيت عنده وفاء بحق خدمته ورفعاً للوحشة أن تعاوده فتدخل على نفسه بأفكارها ووساوسها وكان قد غمرنا تعب يومنا وأعيا أبو ربيعة وخذلته القوة فلما صلينا العشاء قلت : يا أبا ربيعة أحب لك أن تنعس فتريح نفسك ليذهب مـــا بك فاذا استجممت أيقظتك فقمنا سائر الليل .

فما هو الا أن اضطجع حتى غلبه النعاس . وجلست أفكر في حاله وما كان عليه وما اجتهدت له من الرأي ، وقلت في نفسي . لعلني أغريته بما لا قبل له به وأشرت عليه بغير ما كان يحسن بمثله ، فأكون قـد غششته ، وخامرني الشك في حالي أنا أيضاً ، وجعلت أقابل بين الرجل متزوجاً عابداً وبين الرجل عابداً ولم يتزوج ، وانظر في ارتياض أحدهما بنفسه وأهلهوعياله وارتياض الآخر بنفسه وحدها ، وأخذت أذهب وأجيء من فكر الى فكر وقد هدأ كل شيء حولي كأن المكان قد نام ، فلم ألبث حتى أخذتني عيني فنمت واستثقلت كأنما شددت شداً بحبال من النوم لم يجيء من يقطعها .

ورأيت في نومي كأنها القيامة وقد بعث الناس ، وضاق بهم المحشر ،وأنا في جملة الخلائق، وكأننا من الضغطة حب مبثوث بين حَجَرَي الرّحى . هذا والموقف يغلي بنا غليان القدر بما فيها ، وقد اشتد الكرب وجهدنا العطش ،

حتى ما منا ذو كبد الا وكأن الجحيم تتنفس على كبده ، فما هو العطش بل هو السعار واللهب يحتدم بهما الجوف ويتأجج .

فنحن كذلك اذا وِلدان يتخللون الجمع الحاشد عليهم مناديل من نور ، وبأيديهم أباريق من فضة وأكواب من ذهب يملؤون هذه من هذه بسلسال برود عذب رؤيته عطش مع العطش ، حتى ليتلوى من رآه من الألم ، ويتلعلع كأنما كوى به على أحشائه .

وجعل الوِلدان يسقون الواحد بعد الواحد ، ويتجاوزون من بينهما ، وهم كثرة من الناس ، وكأنما يتخللون الجمع في البحث عن أناس بأعيانهم ، ينضحون غليل أكبادهم بما في تلك الأباريق من روح الجنة ومائها ونسيمها .

ومربي أحدهم فمددت اليه يدي وقلت : « اسقني فقد يبست واحترقت من العطش »

قال : « ومن أنت ؟ »

قلت: « أبو خالد الأحول الزاهد .. »

قال : « ألك في أطفال المسلمين ولد افترطته صغيراً فاحتسبته عند الله ؟»

قلت: « لا » ...

قال : « ألك ولد كبير في طاعة الله » ؟

قلت: « لا » ... »

قال : « ألك ولد نالتك منه دعوة صالحة جزاء حقك عليه في إخراجه الى الدنيا ؟ »

قلت: « لا ... »

قال : « ألك ولد من غير هؤلاء ولكنك تعبت في تقويمه ، وقمت بحق الله فيه ؟ »

قلت : « يرحمك الله اني كلما قلت «لا» أحسست «لا» هذه تمر على لساني كالمكواة الحامية ... »

قال : « فنحن لا نسقي الا آباءنا ، تعبوا لنا في الدنيا ، فاليوم نتعب لهم في الآخرة ، وقدموا بين يديهم الطفولة ، وانما قدموا ألسنة طاهرة للدفاع عنهم في هذا الموقف الذي قامت فيه محكمة الحسنة والسيئة . وليس هنا بعد ألسنة الأنبياء أشد طلاقة من ألسنة الأطفال ، فما للطفل معنى من معاني آثامكم يحتبس فيه لسانه أو يلجلج به » .

قال أبو خالد : فجن جنوني ، وجعلت أبحث في نفسي عن لفظة « ابن » فكأنما مسحت الكلمة من حفظي كما مسحت من وجودي ، وذكرت صلاتي وصيامي وعبادتي ، فما خطرت في قلبي حتى ضحك الوليد ضحكاً وجدت في معناه بكائي وندمي وخيبتي .

وقال : يا ويك ، أما سمعت : « إن من الذنوب ذنوباً لا تكفرها الصلاة ولا الصيام، ويكفرها الغم بالعيال » . أتعرف من أنا يا أبا خالد ؟

قلت : من أنت يرحمنا الله بك ؟

قال : أنا ابن ذلك الرجل الفقير المعيل ، الذي قال لشيخك ابراهيم ابن أدهم العابد الزاهد : « طوبى لك ، فقد تفرغت للعبادة بالعزوبة » . فقال ابرهيم : « لروعة تنالك بسبب العيال أفضل من جميع ما أنا فيه » .

وقد جاهد أبي جهاد قلبه وعقله وبدنه ، وحمل على نفسه من مقاساة الأهل والولد حملها الانساني العظيم وفكر لغير نفسه واغتم لغير نفسه، وعمل لغير نفسه وآمن وصبر ، ووثق بولاية الله حين تزوج فقيراً وبضمان الله حين أعقب فقيراً .

فهو مجاهد في سبل كثيرة لا في سبيل واحدة كما يجاهد الغزاة ، هؤلاء

يستشهدون مرة واحدة أما هو فيستشهد كل يوم مرة في همومه بنا ، واليوم يرحمه الله بفضل رحمته إيانا في الدنيا .

أما بلغك قول ابن المبارك وهو مع اخواته في الغزو : (أتعلمون عملاً أفضل مما نحن فيه ؟ قالوا : ما نعلم ذلك . قال أنا أعلم . قالوا فما هو ؟ قال رجل متعفف على فقره ذو عائلة قد قام من الليل ، فنظر الى صبيانه نياماً متكشفين فسترهم وغطاهم بثوبه ، فعمله أفضل مما نحن فيه .)

وقلت لنفسي ويحك يا أبا خالد ، ما أراك إلا محاسباً على حسناتك كما يحاسب المذنبون على سيئاتهم فلا حول ولا قوة الا بالله .

وبلغتني الصيحة الرهيبة : أين أبو خالد الأحول الزاهد العابد ؟

قلت هأنذا .

قيل : طاووس من طواويس الجنة قد ُحصّ ذيله* فضاع أحسن ما فيه ، أين ذيلك من أولادك ، وأين محاسنك فيهم ؟ أخلقت لك المرأة لتتجنبها وجعلت نسل أبويك لتتبرأ أنت من النسل ؟

عملت الفضيلة في نفسك ونشأتك ، ولكنها عقمت فلم تعمل بك . لك ألف ألف ركعة ومثلها سجدات من النوافل ، والخير منها كلها أن تكون قد خرجت من صلبك أعضاء تركع وتسجد .

قتلت رجولتك ، ووأدت فيها النسل ، ولبثت طوال عمرك ولداً كبيراً لم تبلغ رتبة الأب ، فلئن أقمت الشريعة ، لقد عطلت الحقيقة ، ولئن ...

قال أبو خالد : ووقعت ُغنـّة النون الثانية في مسمعي من هول ما خفت مما بعدها كالنفخ في الصور ، فطار نومي وقمت فزعا مشتت القلب ، كمن فتح عينيه بعد غشية ، فرأى نفسه في كفن في قبر سد عليه ...

وما كدت أعي وأنظر حولي وقد برق الصبح في الدار حتى رأيت أبا ربيعة يتقلب كأنما دحرجته يد ، ثم نهض مستطار القلب من فزعه وقال أهلكتني يا أبا خالد أهلكتني والله .

---

* حص ذيله : قطع

قلت ما بالك يرحمك الله .

قال : أني نمت على تلك النية التي عرفت : أن أجمع قلبي للعبادة، وأخلص من المرأة والولد، ومن المعاناة لهما في مرمة المعاش والتلفيق بين رغيف ورغيف، وأن أعفي نفسي من لأوائهم وضرائهم وبلائهم ، لأفرغ الى الله وأقبل عليه وحده . وسألت الله أن يخير لي في نومي ، فرأيت كأن أبواب السماء قد فتحت ، وكأن رجالاً ينزلون ويسيرون في الهواء يتبع بعضهم بعضاً ، وأجنحة وراء أجنحة ، فكلما نزل واحد نظر اليّ وقال لمن وراءه : هذا هو المشؤوم .

فيقول الآخر : نعم هو المشؤوم وأنا في ذلك أخاف أن أسألهم هيبة من الشؤوم ورجاء أن يكون المشؤوم انساناً يبصرونه ولا أبصره ورائي ، ثم مرّ آخرهم وكان غلاماً فقلت يا هذا من هو المشؤوم الذي تومئون اليه ؟

قال أنت .

فقلت: ولم ذاك ؟

قال : كنا نرفع عملك في أعمال المجاهدين في سبيل الله، ثم ماتت امرأتك وتحزنت على ما فاتك من القيام بحقها ، فرفعنا عملك درجة أخرى ، ثم أُمرنا الليلة أن نضع عملك مع المخالفين الذين فروا وجبنوا ...

* * *

إن سمو الرجل بنفسه عن الزوجة والولد طيران الى الأعلى ... ولكنه طيران على أجنحة الشياطين .

طيران بالرجل الى فوّهة البركان الذي في الأعلى]..

تنديد بالعزوبة

من التعقيد الذي تستهدف له المجتمعات المتطورة في دور نموها والذي يحتم التحديد من هذا الطفح البشري إلا أنه ليس ثمة تعارض بين الإقبال على الزواج والدعوة الى هذه الفطرة السليمة وممارستها على الطبيعة الحية المشروعة وبين تنظيم النسل على النحو الذي يساير ظروف المجتمع الذي نعيشه ويعيشه أي مجتمع عربي أو إسلامي

فالرافعي مذهبه في الدعوة إلى الزواج مذهب الاسلام الذين لا يتجاهل دوافع الجنس الكامنة في أعماق الانسان وفلسفته الواقع الذي لا يتعارض مع نواحي الطبيعة البشرية فهو لا يقف عند حد دعوة الأفراد الى الزواج فحسب بل إن دعوته لتتسع حتى تصير أوسع دائرة وأكثر شمولاً ، فهو يدعو الحكومات الاسلامية أن تقف من العزوبة وقفة صارمة بحكم القانون ووازع السلطان ، رعاية للأخلاق وحفظاً للمجتمع من التيارات الانحلالية أن تجتاحه .

يقول الرافعي :

[وكان[1] على الحكومة أن تضرب العزوبة قانون صارم فالعزب وإن كان رجلاً حراً في نفسه ولكن رجولته تفرض للأنوثة حقها فيه ، فمتى جحد هذا الحق ، واستكبر عليه، رجع حاله مع المرأة الى مثل شأن الغريم مع غريمه ، ليس للفصل فيه الا الدولة وأحكامها وقوتها التنفيذية .

واذا أطلقت الحرية للرجال فصاروا كلهم أو أكثرهم أعزابا ، فماذا يكون الا أن تمحى الدولة وتسقط الأمة ، وتتلاشى الفضائل ؟ . فالعزوبة من هذا جريمة بنفسها ولا ينبغي أن تتربص بها الحكومة حتى تعم ، بل يجب اعتبارها باعتبار الجرائم من حيث هي ، ويجب تفسير كلمة «العزب» في اللغة بمثل هذا المعنى ، انها شخصية مذكرة ساخطة متمردة على الحقوق مختلفة للمرأة والنسل والأمة والوطن .

وما ساء رأي العزاب في النساء والفتيات الا من كونهم بطبيعة حياتهم المضطربة لا يعرفون المرأة الا في أسوأ أحوالها وأقبح صفاتها ، وهم وحدهم جعلوها كذلك .

وان لهم وجوداً محزناً يتمتعون فيه ، ولكنهم يهلكون به . هم والله أساتذة الدروس السافلة في كل أمة ، وهم والله بغاة من الرجال في حكم البغايا من النساء ، يجرون جميعاً مجرى واحداً ومن هي البغي في الأكثر الا امرأة فاجرة لا زوج لها ومن هو العزب في الأكثر الا رجل فاسق لا زوجة له ؟ على أن مع المرأة عذر ضعفها أو حاجتها ، ولكن ما عذر الرجل ؟

ما تفيد الدولة أو الأمة من هذا العزب الذي اعتاد فوضى الحياة وسيرها على نظامها ، وتحققيا على أسخف ما فيها من الخيال والحقيقة ، وأي عزب يجد الاستقرار ، أو تجتمع له أسباب الحياة الفاضلة ، وهو قد فقد تلك الروح التي تتمم روحه ، وتفتحها ، وتمسكها في دائرتها الاجتماعية على واجباتها وحقوقها ، وتجيء بالأرواح الصغيرة التي تشعره التبعة والسيادة معاً ، وتمتد بها في تاريخ الوطن ؟

كيف يعتبر مثل هذا موجوداً اجتماعياً صحيحاً وهو حي مختل في وجود مستعار ، يقضي الليل هارباً من حياة النهار نافراً من حياة الليل ، فيقضي عمره كله هارباً من الحياة ، وكأنه لا يعيش بروحه كاملة ، بل ببعضها ، بل بالممكن من بعضها !

أية أسرة شريفة تقبل أن يساكنها رجل عزب ، وأية خـادم عفيفة تطمئن أن تخدم رجلاً عزبا ؟ هذه هي لعنة الشرف والعفة لهؤلاء الأعزاب من الرجال !]

ويسترسل الرافعي في هجومه اللاذع على هؤلاء الشباب الذين يحملون (أوربا في أعصابهم) على حد تعبيره فهم يفهمون الزواج بفلسفتهم على انه تعب مضني وأطفال يحملونهم رهقاً شديداً بينما مذهبهم في الحياة الاستمتاع بها ضروبا وأفانين وهذه فلسفات استقاها الرافعي من أحاديث الشباب المثقف المعاصر في جلسات كانت تشبه الندوات ليأخذ لأدبه وفنه من واقع مجتمعنا ففي مقاله « استنوق[1] الجمل » فيقول الرافعي في هؤلاء الشباب : [هذه عقلية شاب محام طوى عقله على الكتب القانونية وطوى قلبه على مثلهـا من غير القانونية ... وليس يعتري أحد في انها عقلية السواد من شبابنا المثقف الذي لبس الجلد الأوربي ، ومن البلاء على هذا الشرق أنه مـا برح يناهض المستعمرين ويواثبهم ، غافلاً عن معانيهم الاستعمارية التي تناهضه وتواثبه ، جاهلاً أن أوربا تستعمر بالمذاهب العلمية كما تستعمر بالوسائل الحربية، وتسوق الأسطول والجيش ، والكتاب والأستاذ واللذة والاستمتاع، والمرأة والحب].

وفي نفس المقال يسترسل الرافعي مهاجماً :

[وأولئك شبان وقف بهم الشباب موقف البلادة ، فلا يخطو الى الرجولة ولا يكمل بنموه الاجتماعي كما يكمل الرجل الوطني ، فمن ثم يكون خواراً لا يستطيع أن يحمل أثقاله ، ويستوطيء العجز والخمول ، فلا يكون الا قاعد الهمة ، رخو العزيمة قد استنام الى أسباب عجزه ولا يكون في بعض الاعتبار الا كالمريض يعيش بمرضه حميلة على ذويه ، ضجعة لا يمشي ، نومة لا ينتهض ، مستريحاً لا يعمل .

قبح الله عصراً يجهل الشاب فيه أن الرجل والمرأة في الوطن كلمتان

---

(١) وحي القلم جزء اول ص٢٢٤

تفسر الانسانية احداهما بالأخرى تفسيراً انسانياً دينياً بالواجبات والقيود والأحمال، لا بالأهواء والشهوات والانطلاق كما تفسر الحيوانية الذكر والأنثى.

ليس للزواج معنى الا إقرار طبيعة الرجل وطبيعة المرأة في طبيعة ثالثة تقوم بالاثنين معاً وهي طبيعة الشعب . فمن سقوط النفس ولؤمها ودناءتها أن يفر الشاب القوي من تبعة الرجولة ، فلا يحمل ما حمل أبوه من واجبات الانسانية ، ولا يقيم لوطنه جانباً من بناء الحياة في نفسه وزوجه وولده ، بل يذهب يجعل حظ نفسه فوق نفسه ، وفوق الانسانية والوطن جميعاً ، والا يعرف أن انفلاته من واجبات الزواج هو اضعاف في طبيعته لمعنى الاخلاص الثابت والصبر الدائب ، والعطف الجميل في أسبابها عرضت .

ومن فسولة الطبع ولؤمه ودناءته أن يهرب هذا الجندي من ميدانه الذي فرضت عليه الطبيعة الفاضلة أن يجاهد فيه لأداء واجبه الطبيعي متعللا لفراره المخزي بمشقة هذا الواجب وما عسى أن يعاني فيه ، كما يحتج الجبان بخوف الهلاك وعناء الحرب .

ومن سقوط النفس أن يغتر الشاب فتاة حتى إذا وافق غرتها مكر بها وتركها بعد ان يلبسها عارها الأبدي ، فما يحمل هذا الشاب إلا نفس لص خبيث فاتك ، هو أبداً عند من يسرقهم في باب الخسائر والنكبات ، لا في باب الرقة والمكسب ، وعند المجتمع في باب الفساد والشر ، لا في باب المصلحة والخير ، وعند نفسه في باب الجريمة والسرقة لا في باب العمل والشرف .

* * *

فسقوط النفس وانحطاطها هو وحده نكبة الزواج في أصلها وفروعها الكثرة ، التي منها المغالاة والشطط في المهور ، ومنها بحث الشاب عن الزوجة الغنية ، وإهمال ذات الدين والأصل الكريم لفقرها ، ومنها ابتغاء الزوجة

رجلاً ذا جاه أو ثراء ، وعزوفها عن الفاضل ذي الكفاف أو اليسير عن الغني في رجولته وفضائله ، كأنما هو زواج الدينار بالسبيكة والسبيكة بالدينار .

وأعظم أسباب السقوط في رأيي هو ضعف التربية الدينية في الجنسين ، وخاصة الشبان ، ظناً من الناس ان الدين شأن زائد على الحياة ، مع أنه هو لا غيره نظام الحياة وقوامها في كل ما يتصل منها بالنفس . وليست المدنية الصحيحة – كما يحسب المفتونون – هي نوع المعيشة للحياة ومادتها ، بل نوع العقيدة بالحياة ومعانيها ، والى هذا ترمي كل مبادىء الاسلام . فان هذا الدين القوي الانساني لا يعبأ بزخارف كهذه التي تتلبس بها المدنية الاوروبية القائمة على الاستمتاع ، وفنون اللذات ، وانطلاق الحرية بين الجنسين ، فهذا بعينه هو التحطيم الانساني الذي ينتهي بتهدم تلك المدنية وخرابها ، وانما يعبأ الاسلام بالعقيدة التي تنظم الحياة تنظيماً صحيحاً متساوقاً وافياً بالمنفعة ، قائماً بالفضيلة ، بعيداً من الخلط والفوضى .

ويقابل ضعف التربية الدينية مظهراً آخر هو سبب من اكبر اسباب السقوط ، وهو ضعف التربية الاجتماعية في المدرسة ، والى هذا الضعف يرجع سبب آخر هو تخنث الطباع واسترسالها الى الدعة والراحة وفرارها من حمل التبعة (المسؤولية) التي هي دائماً اساس كل شخصية قائمة في موضعها الاجتماعي.

ومن سقوط النفس أن يرضى الشباب كساد الفتيات وبوارهن على الوطن وأن يتواطئوا على نبذ هذه الاحمال وإلقائها في طرق الحياة وتركها لمقاديرها المجهولة . كأنهم أصلحهم الله لا يعلمون أن ذلك يضيع بأخواتهم بين الفتيات ويضيع وطنهم في أمهات الجيل المقبل ويضيع بالفضيلة في تركهم حمايتها وتخليهم عن حمل واجباتها وهمومها السامية .

ان الجمل اذا استنوق تخنث ولان وخضع ، ولكنه يحمل . وهؤلاء إذا استنوقوا لخنثوا ولانوا وخضعوا وأبوا ان يحملوا ..

الاسلام وتربية البنات

البنون زينة من زينة الحياة الدنيا ودعامة نفسية هامة من دعامات النفس الإنسانية في أمنها وزهوها وامتداد ذكراها وتاريخها على الأرض عبر الأجيال والمستقبل ... وفي المجتمعات التي تعتمد في أسلوب حياتها ومعيشتها على الطاقة البشرية والأيدي العاملة يفتخر فيها بكثرة الولد لا سيا الذكور من النسل،وقديماً في المجتمع العربي سمو نساء «بأم البنين» وسموهن أيضاً «بالنجيبة أو النجيبات » ... لمن تنجب ذكوراً تميزوا بجانب من جوانب العبقرية في ميادينها الشتى .

وجاء الاسلام الحنيف فوجد المجتمع العربي قد جانب الفطرة السليمة في النظرة الانسانية للبنت، ولم تكن النظرة الا من زاوية الاعتبار المادي والأفق الضيق في أن البنت لا تنهض بأعباء الحياة ولا تزود عن حياض القبيلة كما يقوم ويزود الذكور ، بل قد تكون عبءاً ثقيلاً على الأسرة آنذاك ... وقست قلوب بعض القبائل العربية فكانت كالحجارة أو أشدقسوة... فوأدت البنت حية ... قال تعالى (واذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم يتوارى عن القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ألا ساء ما يحكمون) .

وقد نظر الإسلام إلى البنت وتربيتها النظرة الانسانية العليا فهي أم المستقبل ومنشئة الحياة والمصدر الطبيعي للرحمة والحنان على وجه البسيطة ، وهي بحكم وضعها الاجتماعي تعتبر ضيفاً على منزل أبيها منذ نعومة أظفارها

فمن ثم فطن الإسلام إلى هذا المعنى البعيد فأوجب لها جميل الرعاية والنصيب الأوفى عن الأشقاء الذكور... ففي الحديث الشريف ، (من خرج إلى سوق من أسواق المسلمين فاشترى شيئاً فحمله إلى بيته فخص به الإناث دون الذكور نظر الله اليه)....وعلى نحو هذه المشاعر الانسانية الرفيعة لمحمد ﷺ في رعاية البنات دارَ أدب الرافعي مادته وكانت قصة « بنته[1] الصغيرة »، وقد استمد الرافعي مادتها التاريخية من قصة « ابي يحيى مالك بن دينار » ، زاهد البصرة وعالمها وفي القصة الجزء الاوفى من الله لمن يحسن تربية بناته وكيف تكون البنت درعاً واقياً من عذاب أليم لوالديها ، وفيها فلسفة عميقة في تربية البنات .

يقول الرافعي : [لقد كنت في صدر شبابي شرطياً وكنت قويا معصوبا في مثل جبلة الجبل من غلظ وشدة ، وكنت قاسياً كأن في أضلاعي جندلة لا قلباً ، فلا أتندمّ ولا أتأثم وكنت مدمناً على الخمر لانها روحانية من عجز أن تكون فيه روحانية ، فبينا أنا ذات يوم أجول في المدن ، والناس يغورون في بيعهم وشرائهم ، وأنا أرقب السارق وأعد للجاني وأتهيأ للنزاع — اذ رأيت اثنين يتلاحيان وقد لبب أحدهما الآخر ، فأخذت اليهما فسمعت المظلوم يقول للظالم ، لقد سلبتني فرح بناتي ، فسيدعون الله عليك فلا تصيب من بعدها خيراً فاني ما خرجت الا اتباعاً لقول رسول الله (ﷺ) :

« من خرج إلا سوق من أسواق المسلمين ، فاشترى شيئاً ، فحمله إلى بيته ، فخص به الاناث دون الذكور ، نظر الله اليه » .

قال الشيخ : وكنت عزبا لا زوجة لي ، ولكن الآدمية انتبهت فيّ وطمعت في دعوة صالحة من البنات المسكينات اذا أنا فرحتهن ودخلتني لهن رقة شديدة فأخذت للرجل من غريمه حتى رضيَ ، وأضعفت له من ذات يدي لأزيد في فرح بناته ، وقلت له وهو ينصرف : عهد يحاسبك الله عليه ،

---

(١) وحي القلم جزءاول ص ٢٤٩

ويشهد فيه لي منك أن تجمل بناتك يدعون لي اذا رأيت فرحهن بما تحمل اليهن ، وقل لهن : « مالك به دينار » وبتّ ليلتي اتقلب مفكراً في قول رسول الله (ﷺ) ومعانيه الكثيرة وحثه على إكرام البنات وأن من أكرم بناته كرم على الله ، وحرصه أن ينشأن كريمات فرحات ، وحدثني هذا الحديث ليلتي تلك الى الصبح ، وفكرت حينئذ في الزواج ، وعلمت أن الناس لا يزوجونني من طيباتهم ما دمت من الخبيثين فلما أصبحت غدوت الى سوق الجواري ، فاشتريت جارية نفيسة ، ووقعت مني أحسن موقع ، وولدت لي بنتاً فشغفت بها ، وظهرت لي فيها الانسانية الكبيرة التي ليست في ، فرأيت بعد ما بيني وبين صورتي الاولى ، ورأيتها سماوية لا تملك شيئاً وتملك أباها وأمها ، وليس لها من الدنيا إلا شبع بطنها ، وأيسره ، ثم لها بعد ذلك سرور نفسها كاملاً تشب عليه أكثر مما تشب على الرضاع فعلمت من ذلك أن الذي تكتنفه رحمة الله يملك بها دنيا نفسه فما عليه بعد ذلك أن أن تفوته دنيا غيره وأن الذي يجد طهارة قلبه يجد سرور قلبه وتكون نفسه دائماً جديدة مع الدنيا .

كانت البنية بدء حياة بيتي وبدء حياة في نفسي فلما دبت على الأرض ازددت لها حباً وألفتني إلفتها . فرزقت روحي منها أطهر صداقة في صديق تتجدد للقلب كل يوم بل كل ساعة ولا تكون إلا لمحض سرور القلب دون مطامعه فتمده بالحياة نفسها لا بأشياء الحياة ...

قال الشيخ : وجهدت أن أترك الخمر ، فلم يأتِ لي ولم أستطعه إذ كنت منهمكاً على شربها ، ولكن حبّ ابنتي وضع في الخمر إثمها الذي وضعته فيها الشريعة ، فكرهتها كرهاً شديداً ، وأصبحت كالمكره عليها ولم تعد فيها نشوتها ولا ريثُها، وكانت الصغيرة في تمزيق أخيلتها أبرع من الشيطان وضعني فيها فانتقلت من الاستهتار والمكابرة وعدم المبالاة الى الندم والتجوب والتأثم وكنت من بعدها كلما وضعت المسكر وهمست به ، دبّتْ ابنتي الى مجلس ،

فانظر اليها وتنتشر عليها نفسي من رقة ورحمة ، فأرقب ما تصنع ، فتجيء فتجاذبني الكأس حتى تهرقها على ثوبي ، وأراني لا أغضب ، إذ كان هـــذا يسرها ويضحكها ، فأسر لها وأضحك .

دام هذا مني ومنها ، فأصبحت في المنزلة بـــين المنزلتين ، أشرب مرة وأترك مراراً ، وجعلت أستقيم على ذلك ، إذ كانت النشوة بابنتي أكبر من النشوة بالزجاجة ، واذا كنت كلما رجعت إلى نفسي وتدبرت أمري استعيذ بالله أن تعقل ابنتي معنى الخمر يوماً فأكون قد نجست أيامها ، ثم أتقدم إلى الله وعلى ذنوبها فوق ذنوبي ، ويترحم الناس على آبائهم وتلعنني اذ لم أكن لهـــا كالآباء فأكون قد وجدت في الدنيا مرة واحدة وهلكت مرتين

ومضيت على ذلك وأنا أصلح بها شيئاً فشيئاً وكلما كبرت كبرت فضيلتي ، فلما تم لها سنتان ماتت .

قال الراوي : وسكت الشيخ ، فعلقت به الأبصار ، ووقفت أنفـــاس الناس على شفاههم وكأنما ماتت لحظات من الزمن لذكر موت الطفلة ، وخامر المجلس مثل السكر بهذا الكأس المذهلة ولكن الطفلة دبت من عالم الغيب كما كانت تصنع ، وجذبت الكأس وأهرقتها ، فانتبه النـــاس وصاحوا : ماتت فكان ماذا ؟

قال الشيخ : فأكمدني الحزن عليها ، ووهن جأشي ولم يكن لي من فن الروح والايمان ما أتأسى به ، فضاعف الجهل أحزاني ،وجعل مصيبتي مصائب والايمان وحده هو أكبر علوم الحياة ، يبصرك إن عميت في الحادثة ويهديك إن ضللت عن السكينة ويجعلك صديق نفسك تكون وإياهـــا على المصيبة لا عدوها تكون المصيبة واياها عليك .

قال الشيخ : ورجعت بجهلي إلى شر مما كنت فيه وكانت أحزاني أفراح الشيطان وأراد أخزاه الله – أن يفتن في أساليب فرحه ، فلما كانت ليـــلة

النصف من شعبان – وكانت ليلة جمعة كأول نور الفجر من أنوار رمضان – سوّل لي الشيطان أن أسكر سكرة ما مثلها ، فبت كالميت مما ثملت ،وقذفتني أحلام إلى أحلام ، ثم رأيت القيامة والحشر ، وقد ولدت القبور من فيهـــا وسيق الناس وأنا معهم ، وليس وراء ما بي من الكرب غاية وسمعت خلفي زفيراً كفحيح الأفعى فالتفت فإذا بتنيّن عظيم ما يكون أعظم منه ، طويل كالنخلة السحوق ، أسود أزرق يرسل الموت من عينيه الحمراوين كالدم ، وفي فمه مثل الرماح من أنيابه ، ولجوفه حر شديد لو زفر به على الأرض مـــا نبتت في الأرض خضراء ، وقد فتح فاه ونفح جوفه وجاء مسرعاً يريد أن يلتقمني ، فمررت بين يديه هارباً فزعاً ، فاذا أنا بشيخ هرم يكاد يموت ضعيفاً فعذت به وقلت أجرني وأغثني ، فقال : أنا ضعيف كما ترى وما أقدر على هذا الجبار ، ولكن مرّ وأسرع ، فلعل الله أن يسبب لك أسباباً للنجاة .

فوليت هارباً وأشرفت على النار وهي الهول الأكـبر ، فرجعت أشتد هرباً والتنين على اثري ولقيت ذلك الشيخ مرة أخرى فاستجرت به فبكى من الرحمة لي وقال : أنا ضعيف كما ترى وما أقدر على هـذا الجبار ولكن أهرب إلى هذا الجبل ، فلعل الله يحدث أمراً .

فنظرت فاذا جبل كالدار العظيمة ،له كوى عليها ستور وهو يبرق كشعاع الجوهر فأسرعت اليه والتنين ورائي ، فلمـــا شارفت الجبل فتحت الكوى ورفعت الستور وأشرقت عليّ وجوه أطفال كالأقمار ، وقرب التنين مني وصرت في هواء جوفه وهو يتضرم علي ، ولم يبق إلا أن يأخذني .

فتصايح الأطفال جميعاً : يا فاطمة ، يا فاطمة .

قال الشيخ : فإذا ابنتي التي ماتت قد أشرفت عليّ ، فلما رأت ما أنا فيه صاحت وبكت ثم وثبت كرمية السهم ، فجاءت بين يدي ومدت إليّ شمالها فتعلقت بها ومدت يمينهـــا إلى التنين فولى هارباً ، وأجلستني وأنا كالميت من

الخوف والفزع ، وقعدت في حجري كما كانت تصنع في الحيـــاة ، وضربت بيدها إلى لحيتي وقالت: يا أبت « ألم يأنِ للذين آمنوا أن تخشعَ قلوبُهم لذكرِ الله وما نزَلَ من الحقّ؟ » فبكيت وقلت: يا بنية ، أخبريني عن هذا التنين الذي أراد هلاكي . قالت : ذاك عملك السوء الخبيث ، أنت قويته حتى بلغ هذا الهول الهائل ، والأعمـــال ترجع هنا أجساماً كما رأيت . قلت : فذاك الشيخ الضعيف الذي استجرت به ولم يجرني ؟ قالت : يا أبت ، ذاك عملك الصالح أنت أضعفته فضعف حتى لم يكن لهطاقة أن يغيثك من عملك السيء ، ولو لم اكن لك هنـــا ، ولو لم تكن اتبعت قول رسول الله ﷺ فيمن فرح بنـــاته المسكينات الضعيفات – لما كانت لك هنا شمال تتعلق بهـا ويمين تطرد عنك .

قال الشيخ : وانتبهت من نومي فزعاً ألعن ما أنا فيه ، ولا أراني أستقر ، كأني طريد عملي السيء ، وأملت في رحمة الله أن أربح من رأس مال خاسر وقلت في نفسي إن يوماً باقياً من العمر هو المؤمن عمر ما ينبغي أن يستهان به ؛ وصححت النية على التوبـة ، لأرجع الشباب الى ذلك الشيخ الضعيف ، وأسمن عظامه حتى إذا استجرت به اجارني ولم يقل « أنا ضعيف كما ترى » . وسألت فدللت على أبي سعيد الحسن بن أبي الحسن البصري ، سيد البقية من التابعين ؛ وقيل لي أنه جمع كل علم وفن الى الزهد والورع والعبادة ، وأن لسانه السحر وأن شخصه المغناطيسي ، وأنه ينطق بالحكمـة كأن في صدره إنجيلاً لم ينزل ، وأن أمه كانت مولاة لأم سلمى زوج النبي ﷺ فكانت ربما غابت أمه في حاجة فيبكي ، فترضعه أم سلمة تعلله بثديها فيدر علته ؛ فكانت بينه وبين بركة النبوة صلة .

وغدوت الى المسجد والحسن في حلقته يقص ويتكلم ، فجلست حتى انتهى بي المجلس ، وما كان غير بعيد حتى عرتني نفضة كنفضة الحمى إذ قرأ الشيخ هذه الآية « ألم يأنِ للذين آمنوا أن تخشعَ قلوبُهم لذكرِ الله وما نزَلَ من الحقّ » فلو لفظتني الأرض من بطنها وانشق عني القـــبر بعد الموت ما رأيت الدنيا

أعجب مما طالعتني في تلك الساعة ؛ وأخذ الشيخ يفسر الآية فصنع بي كلامه ما لو بعث نبي من أجلي خاصة لما صنع أكثر منه .

قال الشيخ ثم أني تبت على يد الحسن وأخلصت في التوبة وصححتها . وحدثته يوماً حديث رؤياي وما شبه لي من عملي السيء وعملي الصالح ، فاستدمعت عيناه وقال : إن البنت الطاهرة هي جهاد أبيها وأمها في هذه الدنيا كالجهاد في سبيل الله ، وانها فوز لهما في معركة من الحياة ، يكونان هما والصبر والإيمان في ناحية منها قبيلاً ، ويكون الشيطان والهم والحزن في الجهة المناوحة قبيلاً آخر .

إن البنت هي أم ودار وأبواها فيما يكابدان من إحسان تربيتها وتأديبها وحياطتها والصبر عليها واليقظة لها : كأنما يحملان الأحجار على ظهريها حجراً حجراً ليبنيا تلك الدار في يوم بعد يوم الى عشرين سنة أو أكثرما صحبته وها بقيت في بيته .

فليس ينبغي أن ينظر الأب إلى ابنته إلا على أنها بنته ، ثم أم أولادها ثم أم أحفادها فهي بذلك أكبر من نفسها وحقها عليه أكبر من الحق فيه حرمتها وحرمة الانسانية معاً ، والأب في ذلك يقرض الله احساناً وضماناً ورحمة ، فحق على الله أن يوافيه من مثلها وأن يضعف له .

والبنت ترى نفسها في بيت أهلها – ضعيفة كالمنقطعة وكالعالة وليس لها إلا الله ورحمة أبويها فان رحماها ، وأكرماها فوق الرحمة وسراهـا فوق الكرامة ، وقاما بحق تأديبها وتعليمها وتفقيهها في الدين ، وحفظا نفسها طاهرة كريمة مسرورة مؤدبة – فقد وضعا بين يدي الله عملا كاملاً من أعمالها الصالحة ، كما وضعاه بين يدي الانسانية فاذا صار إلى الله كان حقاً لهما أن يجدا في الآخرة يميناً وشمالاً يذهبان بهما إلى عفو الله وكرمه ، كما قال رسول الله ﷺ [من كان له ابنة فأدبها وأحسن تأديبها وغذاها فاحسن غذاءها وأسبغ عليها من النعمة التي اسبغ الله عليه كانت له ميمنته وميسرة من النار إلى الجنة] .

فهذه ثلاث لا بد منها معاً ، ولا تجزي واحدة عن واحـــدة في ثواب البنت : تربية عقلها تربية إحسان ، وتربية جسمها تربية احسان والطاف وتربية روحها تربية أكرام والطاف واحسان .

قال الشيخ : والله أرحم أن تضيع عنده الرحمة ، والله أكرم أن يضيع الاحسان عنده والله أكبر .....

وهنا صاح المؤذن : ألله اكبر .

فتبسم الشيخ وقال إلى الصلاة] .

* * *

سكولوجية المرأة زوجة

لئن جاز للعواتق الناعمات من بنات حواء حياة ناعمـة وادعة في بيوت آبائهن يجرون فيها الذيول ويستعرضن ألوان الحلي والزينة ، ويهمسن مع بواكير الليل حالمات في مخادعهن ويضحين نؤمات الضحى ... كما قال الشاعر :

وتضحى فتيت المسك فوق فراشها نؤوم الضحـا لم تنطق عن تفضل

فان الحياة العملية في ميدان الحياة الزوجية لجد صارمة تتطلب من ربة البيت ما يصح أن نسميه اليوم بلا تجوز في اللفظ فدائيـة ، في مرمّة معاشها وتدبير شؤون أسرتها استجابة للقيم التقدمية في تطور حياة الأسرة المعاصرة بعد أن دالت دولة الخدم والحشم وليست هذه التقدمية بوافدة علينا من الغرب وإنمـا هي من صميم المجتمع التطبيقي للأسرة المسلمة كما سيوضح لنا الأدب الرافعي في الأسرة المسلمة .

ومن الشرف للزوجة المسلمـة المعاصرة أن تباهي وتفتخر بما تبذله داخل بيتها من طاقة ينوء كاهلها بها ممسية ومصبحة ... فهذا فخرها المورث عن

جداتها العربيات اللائي ولدن الأبطال وكللن هامات التاريخ بالغار والفخار فيقول الرافعي على لسان الامام سعيد بن المسيب التابعي :

[وأنا فقد دخلت على أزواج رسول الله – ﷺ – ورأيتهن في دورهن يقاسين الحياة ويعانين من الرزق ما شح دره فلا يجيء إلا كالقطرة بعد القطرة وهن على ذلك مـا واحدة منهن إلا هي ملكة من ملكات الآدمية كلها وما فقرهن – والله – الا كبرياء الجنة نظرت الى الأرض فقالت : لا ...

كانت أنوثتهم أبداً صاعدة متسامية فوق موضعها بهـذه القناعه وبهذه التقوى ولا تزال متسامية صاعدة على حين تنزل المطامع بأنوثة المرأة دون موضعها ولا تزال أنوثتهن تنحدر ما بقيت المرأة تطمع ، ورب ملكة جعلتها مطامع الحياة في الدرك الاسفل وهي باسمها في الوهم الأعلى ...

وقد روين عن النبي – ﷺ – انه قال : « اطلعت في الجنة فاذا أقـل النساء فقلت أين النساء ؟ قال : شغلهن الاحمران : الذهب والزعفران » أي الطمع في الغنى والعمل له والميل الى التبرج والحرص عليه »] .

ويسترسل الرافعي في سوق الامثلة الحية من تاريخ نسائنـا المسلمات العربيات وكيف جاهدن في بيوت أزواجهن جهاداً أشق من رب السيف والمزراق في حومة الوغى ، ففي مقاله (زوجة إمام (١)) ومادتها التاريخية من واقع تاريخنا العربي فهي زوجة الامـام (أبي محمد سليمان الأعمش أمام الكوفة في عصره وقد كان الامام الأعظم أبو حنيفة يقف منه موقف التلميذ من استاذه .

أقول اتخذ الرافعي من خبر هذا الامام العظيم وزوجته ألواناً متعددة في حياة الزوجة المسلمة في بيت رجلها وأولادها من معاني الصبر على قلة الرزق وشحه وغضب المرأة وعلاقتـه كما في المقال تحليل نفسي رائع لطبيعة الأنثى

(١) وحي القلم جزء أول ص ١٣٧ .

والمرأة ، واصطنع الرافعي هذا الحوار بين زوجة الشيخ وأبي معاوية الضرير وقد أراد أن يصلح للشيخ زوجه الغضبى .

يقول الرافعي : [فقلت : يا أم محمد اني جائع لم ألمّ اليوم بمنزلي فقامت فقربت ما حضر وقالت معذرة يا أبا معاوية فانما هو جهد المقل وليس يعدو إمساك الرمق .

فقلت : إن الجوعان غير الشهوان والمؤمن يأكل في مِعيّ واحد ، ولم يخلق الله قمحاً للملوك وقمحاً غيره للفقراء ...

ثم سميتُ ومددتُ يدي أتحسس ما على الطبق فاذا كسر من الخبز معها شيء من الجزر المسلوق فيه قليل من الخل والزيت ، فقلت في نفسي هذا بعض أسباب الشر وما كان بي الجوع ولا سده غير أني أردت أن أعرف حاضر الرزق في دار الشيخ فإن مثل هذه القلة في طعام الرجل هي عند المرأة قلة من الرجل نفسه وكل ما تفقده من حاجاتها وشهوات نفسها فهو عندها فقر بمعنيين : أحدهما من الأشياء ، والآخر من الرجل كلما أكثر الرجل من إتحافها كثر عندها وإن قلّ قل] .

ويفيض الرافعي في مقاله مسترسلاً في سبر أغوار طبيعة المرأة واسكناه دوافع النفس في عالمها فيقول في صلب المقال مستطرداً :

[« وإنما خلقت المرأة بطناً يلد فبطنها هو اكبر حقيقتها وهذه غايتها وغاية الحكمة فيها لا جرم كان لها في عقلها معدة معنوية ، وليس حبها للحلى والثياب والزينة والمال وطماحها اليها واستهلاكها في الحرص عليها والاستشراف لها إلا مظهراً من حكم البطن وسلطانه] .

وينفذ الرافعي من وراء هذا التعليل النفسي في طبيعة الكثيرات منهن في سر معجزة الحديث « هن ناقصات عقل ودين » فيقول الرافعي :

[« أما نقص العقل فهذه علته ، وأما الدين فغلبة تلك المعاني على طبيعتها

كما تغلب على عقلها فليس نقص الدين في المرأة نقصاً في اليقين أو الإيمان فإنها في هذين أقوى من الرجل . وإنما ذاك هو للنقص في المعاني الشديدة التي لا يكمل الدين إلا بها ، معاني الجوع من نعيم الدنيا وزينتها وامتداد العين اليها واستشراف النفس لها فإن المرأة في هذا أقل من الرجل وهي لهذه العلة ما برحت تؤثر دائماً جمال الظاهر وزينته في الرجال والأشياء دون النظر الى ما وراء ذلك من حقيقية المنفعة »] .

وبعد هذا الاستطراد الرافعي في التحليل النفسي للمرأة يعود الى حوار القصة بين أبي معاوية وزوجة الإمام .

فيقول الرافعي :

[« قال أبو معاوية : وأريتها أني جائع فنهشت نهش الأعرابي كي لا تفطن إلى ما أردت من زعم الجوع ، ثم أحببت أن استرعي كلامها وأستميلها لأن تضحك وتسر فأغيِّر بذلك ما في نفسها فيجد كلامي إلى نفسها مذهباً ، فقلت : يا أم محمد قد تحرمت بطعامك ووجب حقي عليك فأشيري عليَّ برأيك فيما أستصلح به زوجتي فإنها غاضبة عليَّ وهي تقول : والله ما يقيم الفأر في بيتك إلا لحب الوطن .. وإلا فهو يسترزق من بيوت الجيران .

قالت : ولقد أعدمت حتى من كسر الخبز والجزر المسلوق ؟ الله منك ! لقد استأصلتها من جذورها ، إن في أمراض النساء الحمى التي اسمها الحمى والحمى التي اسمها الزوج ..

قلت : الله الله يا أم محمد ، لقد أيسرت بعدنا حتى كأن الخبز والجزر المسلوق شيء قليل عندك من فرط ما تيسر أو ما علمت أن رزق الصالحين كالصالحين أنفسهم يصوم عن أصحابه اليوم واليومين ... وكأنك ما سمعت شيئاً من أخبار أمهات المؤمنين أزواج رسول الله – ﷺ – ونساء أصحابه (رضوان الله عليهم) فما خير امرأة مسلمة لا تكون بأدبها وخلقها الاسلامي كأنها بنت احدى أمهات المؤمنين .

أفرأيت لو كنت فاطمة بنت محمد ﷺ أفكان ينقلك هذا إلى أحسن مما أنت فيه من العيش ، وهل كانت فاطمة بنت ملك تعيش في أحلام نفسها أو بنت نبي تعيش في حقائق نفسها العظيمة ؟

تقولين : انني استأصلت أم معاوية من جـذورها فما أم معاوية ومـا جذورها ؟ أهي خير من أسماء بنت أبي بكر صاحب رسول الله ﷺ وقد قالت عن زوجها البطل العظيم : « تزوجني وما له في الأرض من مـال ولا مملوك ولا شيء غير فرسه وناطحه فكنت أعلف فرسه وأكفيه مؤونتـه وأسوسه وأدق النوى لناطحه وأعلفه وأستسقي الماء وأخرز غربه وأعجن وكنت أنقل النوى على رأسي من ثلثي فرسخ حتى أرسل لي أبو بكر بجارية فكفتني سياسة الفرس فكأنما أعتقني .

هكذا ينبغي لنساء المسلمين في الصبر والاباء والقوة والكبرياء بالنفس على الحياة كائنة ما كانت الرضا والقناعة ، ومؤازرة الزوج وطاعته ، واعتبار ما لهن عند الله لا مالهن عند الرجل ، وبذلك يرتفعن على نساء الملوك في انفسهن وتكون المرأة منهن وما في دارها شيء وعندها أن دارها الجنة .

هل الرجل المسلم الصحيح الإسلام الا مثل الحرب يثور حولها غبارهـا ويكون معها الشظف واليأس والقوة والاحتمال والصبر اذ كان مفروضاً على المسلم أن يكون القوة الانسانية لا الضعف وأن يكون اليقين الانساني لاالشك وأن يكون الحق في هذه الحياة لا الباطل ؟

وهل امرأة المسلم الا تلك المفروض عليها أن تمد هذه الحرب بأبطالهـا وعتاد أبطالها وأخلاق أبطالها ثم ألا دائماً تكون الا من وراء أبطالها ؟
وكيف تلد البطل اذا كان في أخلاقها الضعة والمطامـع الذليلة والضجر والكسل والبلادة ؟
ألا أن المرأة كالدار المهنية لا يسهل تغيير حدودها إلا اذا كانت خراباً].

حول سكولوجية المرأة

غضبها وتبغيض طلاقها

والسفارة بين الزوجين

المتخاصمين

والرافعي في مقاله هذا « زوجة إمام » يفلسف طبيعة المرأة وغضبها أحياناً مما لا شيء كأن ذلك طبيعي في تكوينها ، ثم يتناول الطلاق الذي جعلته الشريعة الغراء « أبغض الحلال الى الله » ، فيصفه انه موت بطيء في حياة الزوجة وأن الرجل المؤمن لا يقدم عليه إلا لضرورة ملجئة ، ثم لم يفته أيضاً أن يرسم لنا مومات (السفير) الذي يصفر بين الرجل وزوجه الغضبى، فالمرأة تحتاج في مثل هذا الموقف الى الألمعي الكيس الذي يمس الامور بينهما مساً خفيفاً ويصيب من قلبها مواضع الاثارة الضاحكة أحياناً ومواطن الرقة والانسانية حيناً آخر ، ثم يتحسس منها ما يجعلها تلين وترق وحينئذ تتفتح مغاليق نفسها وحينئذ تنحل العقدة .

فيقول الرافعي على لسان ابن معاوية [قال ابو معاوية : وانفض المجلس ومنعني الشيخ أن أقوم مع الناس وصرف قائدي فلما خلا وجهه قال : يا أبا معاوية قم معي الى الدار فقلت : ما شأن من في الدار يا أبا محمد ؟ قال :

ان تلك غاضبة علي وقد ضاقت الحال بيني وبينها وأخشى أن تتباعد فأريد أن تصلح بيننا صلحاً .

قلت : فمم غضبها ؟ قال : لا تسأل المرأة مم تغضب فكثيراً ما يكون هذا الغضب حركة في طباعها كما تكون جالسة وتريد أن تقوم فتقوم وتريد أن تمشي فتمشي ، قلت يا أبا محمد هذا آخر أربع مرات تغضب عليك غضب الطلاق فما يحبسك عنها والنساء غيرها كثير .

قـــال الشيخ ويحك يا رجل ! أبائع نساء أنا أما علمت أن الذي يطلق امرأه لغير ضرورة ملجئة هو كالذي يبيعها لمن لا يدري كيف يكون معها وتكون معه ؟ ان عمر الزوجة لو كان رقبة وضربت بسيف قاطع لكان هذا السيف هو الطلاق !

وهل تعيش المطلقة الا في أيام ميتة ؟ وهل قاتل ايامها الا مطلقها ؟] .

ويرسم الرافعي بأسلوب الحكيم والخبير بالنفس الانسانية أنجح الطرق في الوصول الى قلبي الزوجين المتنافرين لا سيما الزوجة كما أن يفلسف العوامـــل النفسية التي تتطلبها الأنثى كزوجة ازاء رجلها من معاني الرغبة والرهبة ودور ذلك في التوازن النفسي فى الحياة الزوجية ، فيقول الرافعي :

[قال أبو معاوية الضرير : وكنت في الطريق الى دار الشيخ أروى في الامر وأمتحن مذاهب الرأي وأقلبها على وجوهها وأنظر كيف أحتال في تأليف ما تناثر من الشيخ وزوجته فان الذي يسفر بين رجل وامرأته انمـــا يمشي بفكره بين قلبين فهو مطفىء ثائرة أو مسعرها اذ لا يضع بين القلبين الا حمقه أو كياسته وهو لن يرد المرأة إلى الرأى إلا إذا طاف على وجههـــا بالضحك وعلى قلبها بالخجل وعلى نفسها بالرقة وكان حكيما في كل ذلك فان عقل المرأة مع الرجل عقل يجيء من وراه نفسها من وراء قلبها .

وجعلت أنظر ما الذي يفسد محل الشيخ من زوجته ومثلت بينه وبينها

فما أخرج لي التفكير الا أن حسن خلقه معها دائماً هو الذي يستدعي منهـا سوء الخلق أحياناً فان الشيخ كما ورد في وصف المؤمن : « هين لين كالجمل الأنف ، أن قيد انقاد وأن أنيخ على صخرة استناخ » والمرأة لا تكون امرأة حتى تطلب في الرجل أشياء ، منها أن تحبه بأشياء كثيرة من أسباب الحب ومنها أن تخافه بأسباب يسيرة من أسباب الخوف فاذا هي أحبته الحب كله ولم تخف منه شيئاً وطال سكونه وسكونها نفرت طبيعتها نفرة كأنها تنبخه وتذمره ليكون معها رجلاً فيخيفها الخوف الذي تستكمل به لذة حبها اذا كان ضعفها يحبه من الرجل أن يقسو عليه الرجل في الوقت بعـــد الوقت لا ليؤذيه ولكن ليخضعه ، والآمر الذي لا يخاف اذا عصى أمره هو الذي لا يعبأ به اذا أطيـع أمره .

وكأن المرأة تحتاج طبيعتها أحياناً إلى مصائب خفية تؤذى برقة أو تمر بالأذى من غير أن تلمسها به لتتحرك في طبيعقها معاني دموعها من غـــير دموعها فان طال ركود هذه الطبيعة أوجدت هي لنفسها مصائبهـا الخفية . فـكان الزوج أحداها] .

الجو النفسي للمنزل

المرأة ريحانة بيتها

ويمضي بنا الرافعي مسهباً مسترسلاً في وصف المرأة في بيتها وأنها وحدها هي التي تضفي عليه معالم الجمال ومخايله فيقول على لسان أبي معاوية مخاطباً زوجة الامام :

[واذا ضاقت الدار فلم لا تتسع النفس التي فيهـــا ؟ المرأة وحدها هي الجو الانساني لدار زوجها فواحدة تدخل الدار فتجعل فيها الروضة ناضرة متروحة باسمة وان كانت الدار فتجعل فيها مثل الصحراء برمالها وقيضهـــا

وعواطفها ، وان كانت الدار في رياشها ومتاعها كالجنة السندسية ، وواحدة تجعل الدار هي القبر .

والمرأة حق المرأة هي التي تترك قلبهـــا في جميع أحواله على طبيعته الانسانية فلا تجعل هذا القلب لزوجها من جنس ما هي فيه من عيشة : مرة ذهباً ومرة فضة ومرة نحاساً أو خشباً أو ترابـــاً ، فانما تكون المرأة مع رجلها من أجله ومن أجل الامة معاً ، فعليها حقان لا حق واحد أصغرهما كبير ؛ ومن ثم فقد وجب عليها اذا تزوجت أن تستشعر الذات الكبيرة مع ذاتها ، فان أغضبها الرجل بهفوة منه تجافت له عنها وصفحت من اجل نظام الجماعة الكبرى ، وعليها أن تحكم حينئذ بطبيعة الأمـــة لا بطبيعة نفسها ، وهي طبيعة تأبى التفرق والانفراد وتقوم على الواجب وتضاعف هذا الواجب على المرأة بخاصة] .

الدين والنسل بين الزوجين

والرافعي يضع الجانب الديني وهو ملاك الدنيا والآخرة بين حياة الزوجين فيورد لنا من النصوص الدينية ما يجعل كلا الزوجين في معاشرته للآخر في مثل صفاء الملائكة وصبر أولي العزم تحملاً . كما يضع « النسل » وهو الرباط المقدس بين الزوجين كي يخفض كلاهما للآخر جناح الذل من الرحمة رعاية للطفولة البريئة أن تهب عليها عواصف الخلاف أو البنوة بعامة أن تستهدف للتصدع فتتصدع الأسرة ويوهن كيان المجتمع فيقول الرافعي :

[« والإسلام[1] يضع الأمة ممثلة في النسل بين كل رجل وامرأة ويوجب هذا المعنى إيجاباً ليكون في الرجل وامرأته شيء غير الذكورة والأنوثة يجمعهما ويقيد أحدهما بالآخر ويضع في بهيمتيهما التي من طبيعتها أن تتفق وتختلف إنسانية من طبعها أن تتفق ولا تختلف .

ومتى كان الدين بين كل زوج وزوجته فمهما اختلفا وتدابرا وتعقدت نفساهما فان كل عقدة لا تجيء إلا ومعها طريقة حلها « ولن يشادَّ الدين أحد إلا غلبه » ، وهو اليسر والمساهلة والرحمة والمغفرة ولين القلب وخشية الله وهو العهد والوفاء والكرم والمؤاخاة ، والإنسانية وهو اتساع الذات وارتفاعها فوق كل ما تكون به منحطة أو ضيقة .

قال أبو معاوية : فحقُّ الرجل المسلم على امرأته المسلمة هو حق من الله

(١) وحي القلم جزء اول ،

ثم من الأمة، ثم من الرجل نفسه ثم من لطف المرأة وكرمها، ثم مما بينهما معاً، وليس عجيباً بعد هذا ما رويناه عن النبي ﷺ « لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لغير الله لأمرت النساء أن يسجدن لأزواجهن لما جعل الله لهم عليهن من الحق » . وهــذه عائشة أم المؤمنين قالت . « يا معشر النساء لو تعلمن بحق أزواجكن عليكن لجعلت المرأة منكن تمسح الغبار عن قدمي زوجها بحر وجهها »] .

ويتسرح الرافعي في الرواية حتى يأتي لنا بهذا الحديث الشريف عن رسول الله ﷺ قال : « إن هلاك الرجال طاعتهم لنسائهم » وهو في معجزتــه الخالدة يوضح لنا أن التكوين القيادي في الغالب والأعم إنما يكون من الرجال لما ميزهم الله من الخصائص العقلية والإرادية الغالبة في تكوينهم الفطري كما لا ينكر الرافعي الجانب العاطفي الذي يقوم به قلب المرأة . ثم يتناول الحديث بالشرح المستفيض القائم على التحليل والاستقصاء في اعجاز الحديث والبلاغة النبوية على النحو المعهود في هذه الشنشنة الرافعية في فقهها للاعجاز النبوي الخالد فيقول الرافعي على لسان الشيخ : [« قال الشيخ : كان الحديث بهذا اللفظ : ولم يقل النبي ﷺ « هلاك الرجل طاعته لامرأته » فان هذا لا يستقيم اذ يكون بعض النساء أحياناً أكمل من بعض الرجال وأوفر عقلاً وأسد رأياً وقد تكون المرأة هي الرجل في الحقيقة عزماً وتدبيراً وقوة نفس ويتلين الرجل معها كأنه امرأة .

وكثير من النساء يكن نساء بالحلية والشكل دون ما وراءهما كأنما هيئن رجالاً في الأصل ثم خلقن نساء بعد ، لاحداث ما يريد الله أن يحدث بهن مما يكون في مثل هذه العجيبة عملاً ذا حقيقتين في الخير والشر .

وانما عم الحديث ليدل على أن الأصل في هذه الدنيا أن تستقيم أمور التدبير بالرجال فان البأس والعقل يكونان فيهم خلقــة وطبيعة أكثر ممــا يكونان في النساء : كما أن الرقة والرحمة في خلقة النساء وطبيعتهن أكثر مما

هما في الرجال فاذا غلبت طاعة النساء في أمة من الأمم فتلك حياة معناهـا هلاك الرجال وليس المراد هلاك أنفسهن بل هلاك ما هم به رجال .

قال الشيخ : وكأن في الحديث الشريف ايماء إلى أن من بعض الحق على النساء أن ينزلن عن بعض الحق الذي لهن ابقاء على نظام الأمة وتيسيراً للحياة في مجراها ، كما ينزل الرجل عن حقه في حياته كلها اذا حارب في سبيل أمته ابقاء عليها وتيسيراً لحياتها في مجراها . فصبر المرأة على مثل هـذه الحالة هو نفسه جهادها وحربها في سبيل الأمة ، ولها عليه من ثواب الله مثل ما للرجل يقتل أو يجرح في جهاده ، ألا وان حياة بعض النساء مع بعض الرجـال تكون أحياناً مثـل القتل أو مثل الجرح وقد تكون مثل الموت صـبراً على العذاب !

ولهذا قال رسول الله - ﷺ - لزوجة يسألها عن حالها وطاعتها وصبرها مع رجلها « فأين أنت منه ؟ » قالت « ما آلوه الا ما عجزت عنـه قال : « فكيف أنت له ؟ فانه جنتك ونارك » .

آه آه ! حق زواج المرأة بالرجل هو معناه مرور المرأة المسكينة في دنيا أخرى إلى موت آخر ستحاسب عنده بالجنة والنـار ، فحسابها عند الله نوعان : ماذا صنعت بدنياك ونعيمها وبؤسها عليك ، ثم ماذا صنعت بزوجك ونعيمه وبؤسه فيك ؟

وقد روين أن امرأة جاءت إلى النبي - ﷺ - فقالت : يا رسول الله اني وافدة النساء اليك ، ثم ذكرت ما للرجال في الجهاد من الأجر والغنيمة ، ثم قالت : فما لنا من ذلك؟ فقال - ﷺ - « أبلغي من لقيت من النساء أن طاعة للزوج واعترافاً بحقه - يعدل ذلك ، وقليل منكن من يفعله »].

الزواج بالاجنبيات
في الادب الرافعي

في هذا العصر الذي خدع فيه اكثر شبابنا المثقف ثقافة غير اسلامية ببريق الحضارة الأوروبية وبهرج مدنيتها ففتن بكل ما هو غربي وأجنبي وتجاوز فقدان الثقة بتراثنا الشرقي والعربي الى حد المصاهرة بالأجنبيات حتى أتى وقت على شبابنا المبعوثين في الخارج لاستكمال دراستهم العالية أنهم قلما كان يعود أحدهم (بدون هذه الزوجة الأجنبية) ، وقد يكون لهم بعض العذر في ابان هذا العصر أو في العشرينيات والثلاثينيات والأربعينيات من هذا العصر بحجة حاجتهم الى الزوجة المتعلمة تعليماً عالياً ، ولكن وبعد أن أصبحت الفتاة المسلمة تسابق أخاها العربي المسلم في كل ميادين العلم والفن والأدب وألوان الثقافة فليس ثمة مندوحة حينئذ لهؤلاء المبعوثين أو غيرهم من البناء أو الزواج بالأجنبيات .

والرافعي في مقاله (الأجنبية[1]) يندد بشبابنا الذين يمزجون الدم العربي والاسلامي بدماء لا تنبض بمثلنا ولا قيمنا وبألسنة لا تنطق بسحر لغتنا الجميلة ، ويرى في ذلك أن أجنبية يتزوج بها شاب مصري هي مسدس فيه ست قذائف ، وقد استقى الرافعي مقاله هذا عن تجربة شاب مصري عاش هذه التجربة القاسية في اوربا وكان زميلاً لابنه (الدكتور محمد) ، والرافعي

---

(١) وحي القلم جزء أول ص ٢٦٨ .

في مقاله هذا مسلم يقظ واع وعربي غيور على بنات جنسه العربيات أن يزاحمهن في ميدان الحياة غير العربيات المسلمات ، كما تتجلى وطنية الرافعي وفطنته البعيدة المدى في اسلوب التربية الاسلامية والعربية ، فيقول الرافعي على لسان ولده الدكتور محمد مصطفى صادق الرافعي :

[قال الدكتور[1] : ونظرت فاذا الرجل كاسف قد تغير لونه وتبين الانكسار في وجهه فألممت بما في نفسه وعلمت أنه قد دهى في زوجة من هؤلاء الأوربيات اللواتي يتزوجن على أن يكون مخدع المرأة منهن حراً أن يأخذ ويدع ويغير ويبدل ويقسم كلمة (زوج) قسمين أو ثلاثة أو أربعة وما شاء وكأنما مسست البارود بتلك الشرارة فانفجرت نفس الرجل عن قصة ما أفظعها .

قال : يا اخواني المصريين ، قبل أن أنفض لكم ذلك الخبر أسديكم هذه النصيحة التي لم يضعها مؤلف تاريخي لسوء الحظ إلا في الفصل الأخير من رواية شقائي : اياكم اياكم ان تغتروا بمعاني المرأة تحسبونها معاني الزوجة وفرقوا بين الزوجة بخصائصها وبين المرأة بمعانيها فان في كل زوجة امرأة ولكن ليس في كل امرأة زوجة .

واعلموا ان المرأة في انوثتها وفنونها النسائية الفردية كهذا السحاب في الشفق حين يبدو له وقت محدود ثم يمسخ مسخاً ولكن الزوجة في نسائيتها كالشمس قد يحجبها ذلك السحاب بيد أن البقاء لها وحدها ، والاعتبار لها وحدها ، ولها وحدها الوقت كله .

لا تتزوجوا يا إخواني المصريين بأجنبية ؛ إن أجنبية يتزوج بها مصري هي مسدس جرائم فيه ست قذائف :

الأولى : بوار امرأة مصرية وضياعها بضياع حقها في هذا الزواج ، وتلك جريمة وطنية ، فهذه واحدة .

---

(١) وحي القلم جزء اول ٢٦٨

والثانية : إقحام الأخلاق الأجنبية عن طباعنا وفضائلنا في هذا الإجتماع الشرقي وتوهينه وصدعه وهي جريمة أخلاقية .

والثالثة : دس العروق الزائفة في دمائنا ونسلنا ، وهي جريمة اجتماعية .

والرابعة : التمكين للأجنبي في بيت من بيوتنا يملكه ويحكمه ويصرفه على ما يشاء وهي جريمة سياسية .

والخامسة : للمسلم منا إيثاره غير أخته المسلمة ، ثم تحكيمه الهوى في الدين ما يعجبه وما لا يعجبه ، ثم القاؤه السم الديني في نبع ذريته المقبلة، ثم صيرورته خزياً لأجداده الفاتحين الذين كانوا يأخذونهن سبايا ، ويجعلونهن في المنزلة الثانية أو الثالثة بعد الزوجة ، فأخذته هي رقيقاً لها وصار معها في المنزلة الثانية أو الثالثة بعد . .[1] وهي جريمة دينية .

والسادسة : بعد ذلك كله أن هذا المسكين يؤثر أسفله على أعلاه ... ولا يبالي في ذلك خمس جرائم فظيعة .

وهذه السادسة جريمة إنسانية !

ما كنت أحسب يا اخواني وقد رجعت بزوجتي الأوروبية إلى مصر أني أحضرت معي من أوروبا آلة تصنع أحزاني ومصائبي ولم يكن وعظني أحد بما أعظكم به الآن ، ولا انتهيت بذكائي إلى أن الزوجة الأجنبية تثبت لي غربتي في بلادي ! وتثبت على أني غير وطني أو غير تام الوطنية ، ثم تكون مني حماقة تثبت للناس أني أحمق فيما أخذت ، ثم تعود مشكلة دولية في بيتي

---

(١) يقصد الرافعي بهذا بعد عشيقها .

يزورها أبناء جنسها ويستزيرونها رغم أنفي وفمي ووجهي كله ! ويستظلون بالحماية ويستترون بالإمتيازات ويرفعون ستاراً عن فصل ويرخون ستاراً على فصل ... وأنا وحدي أشهد الرواية ...

إن الشيطان في أوروبا شيطان عالم مخترع فقـــد زين لي من تلك الزوجة ثلاث نساء معاً : زوجة عقلية ، وزوجة قلبية ، وزوجـة نفسية ؛ ثم نفث اللعين في روعي أن المرأة الشرقية ليس فيها إلا واحدة.

لعنة الله على ذلك الشيطان الرجيم العالم المخترع! ما علمت الا من بعد أن هذه الشرقية الخشنة هي كالمنجم الذي تبره في ترابه وماسه في فحمه وجوهره في معدنه وأن صعوبتها من صعوبة العفة الممتنعة ، وأن خشونتها من خشونة الحب المعتز بنفسه ، وأن جفاءها من جفاء الدين المتسامي على المادة ، وانها بمجموع ذلك كان لهـا الصبر الذي لا يدخله العجز وكان لها الوفاء الذي لا تلحقه الشبهة وكان لها الايثار الذي لا يفسده الطمع ، لها أرق ما في الزوجة لزوجهـــا وحده ، وخشنة الطبع لأنها تتنزه أن تكون ملمسا ناعما لهذا وذاك وهؤلاء وأولئك ... لا كامرأة الحب الأوربية التي تجعل نفسها أنثى الفن وتريد أن تعيش دائماً مع زوجها الشرقي من التفضيل والايثار والاجلال والاباحة — في كلمة (أنا) قبل كلمة (أنت) امرأة أنشأتها الحرب العظمى بأخلاق مخربة مدمرة تنفجر بين الوقت والوقت .

عندنا يا اخواني تعدد الزوجات ، يتهموننا به من عمى وجهـل وسخافة انظروا هل هو الا اعلان لشرعية الرجوله والأنوثة ، ودينية الحياة الزوجية في أي اشكالها وهل هو الا اعلان بطولة الرجل الشرقي الأنوف الغيور ، أن الزوجة تتعدد عند الرجل ولكن ... ولكن ليس كما يقع في أوربا من أن الزوج يتعدد عند المرأة ...!

ما علمت يا اخواني الا من بعد ، أن الزوجة الغريبة قد تكون مع زوجها الشرقي كالسائحة مع دليلها ، هيهات هيهات انه لن يمسكها عليه ولن يكرهها

على الوفاء له الا أن تكون حثالة يزهد فيها حتى ذباب النـــاس ، فيأسها هو يجعل هذا المسكين مطمعها وهي مع ذلك لو خلطته بنفسها لبقيت منها ناحية لا تختلط اذ ترى أمته دون أمتها فما تسب أمة زوجها وبلاده بأقبح من هذا!

أما والله إن الرجل الشرقي حين يأتي بأجنبية لتلوين حياته بألوان الأنثى... لا يكون اختار أزهى الألوان الا لتلوين مصائب حياته ، وقد يكون هناك ما يشذ ولكن هذه هي القاعدة ...

أما قصتي يا اخواني ...

قال الدكتور محمد : قد حكيتها (يرحمك الله) .]

أسرة النبي ﷺ
نموذج حيٌّ للشعبية الاسلامية

لا تجد أي فتاة من بناتنا الناعمات ولا أية زوجة من زوجات هذا العصر كائنة من كانت هذه وتلك في جاه أبيها أو رغد العيش مع زوجها خيراً من « فاطمة[1] بنت محمد » - ﷺ - وزوجاته اللائي لقبتهن السماء (بأمهات المؤمنين) في القدوة الحسنة والنموذج الذي يحتذى في اسلوب المعيشة وحياة الأسرة المستقرة ، فالرسول في بيته لم تكن به الفاقة ولكنه التشريع .

وراودته الجبال الشم من ذهب   عن نفسه فأراهـــا أيماشمم

ولو كانت الدنيا تساوي عند الله جناح بعوضة لعاشت أسرة النبي-ﷺ- في الاماء والخول والفرش والعرش والكلل والحجل ... ولكنها الحياة المثلى التي تقوم على شظف العيش والتسامي على الدنيا ومادتها في ظلال الايمان والمثل والايثار .

والرافعي (رضوان الله عليه) يرسم لامهات الجيل المعاصر وفتياته كذلك الصورة الحية من الحياة الأسرية في بيت محمد – ﷺ – وما تطمع أي امرأة أن تكون خيراً عند الله من امهات المؤمنين والزهراء الحبيبة لدى قلب ابيها– لو كانت الأرزاق تجري على سنن الحجا أو الشرف أو الفضل وقوة الايمان ..

---

(١) وحي القلم جزء اول ص ١٢٩ .

ففي مقال الرافعي (ذيل القصة وفلسفة المال[1]) يتكلم على لسان الامام سعيد بن المسيب فيقول الرافعي :

[قال الامام : وأنا قد دخلت على أزواج رسول الله – ﷺ – ورأيتهن في دورهن يقاسين الحياة ويعانين من الرزق ما شح دره فلا يجيء إلا كالقطرة بعد القطرة وهن على ذلك ما واحدة منهن إلا ملكة من ملكات الآدمية كلها وما فقرهن – والله – إلا كبرياء الجنة نظرت الى الأرض فقالت : لا ...

كانت أنوثتهن أبداً صاعدة متسامية فوق موضعها بهذه القناعة وبهذه التقوى ولا تزال متسامية صاعدة على حين تنزل المطامع بأنوثة المرأة دون موضعها ولا تزال أنوثتها تنحدر ما بقيت المرأة تطمع ، ورب ملكة جعلتها مطامع الحياة في الدرك الأسفل وهي باسمها في الوهم الأعلى ...!

وقد روينا عن النبي – ﷺ – أنه قال (اطلعت على أهل الجنة فاذا أقل أهلها النساء فقلت أين النساء ؟ قال: شغلهن الأحمران الذهب والزعفران) أي الطمع في الغنى والعمل له والميل إلى التبرج والحرص عليه] .

ثم يعيش الرافعي بروحه المسلم ساعات بين كتاب الله وقصص قرآنه الخالد فيجلو لنا هذه الحقائق التاريخية والمعاني الانسانية في أسرة محمد الرسول – ﷺ – متخذاً وقائعها ومادتها من كتاب الله سبحانه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم .

ليكون هذا الدرس لنسائنا المعاصرات أبلغ أسوة في حياتهن العملية في القرن العشرين .. قرن الحضارة والمدنية والمادية أيضاً ..

(ففي مقاله درس من النبوة[2]) يوضح لنا موقف نسائه ﷺ منه بعد أن فتح الله عليه نفائس اليهود وذخائرهم .. وموقف السماء منهن عندما أردن أن يعاملهن الرسول ﷺ معاملة نساء الملوك وأثرياء الناس لزوجاتهم .

---

(١) وحي القلم جزء ١ ص ١٢٩

(٢) وحي القلم جزء ٢ ص ٦٣

يقول الرافعي :

[« قالوا : انه لما نصر الله تعالى رسوله ورد عنه الأحزاب وفتح عليه قريظة والنضير ظن أزواجه ﷺ أنه اختص بنفائس اليهود وذخائرهم. وكن تسع نسوة (عائشة ، وحفصة ، وأم حبيبة ، وسودة ، وأم سلمة ، وصفية، وميمونة ، وزينب ، وجويرية) فقعدن حوله وقلن : يا رسول الله ، بنات كسرى وقيصر في الحلي والحلل والإماء والخول ونحن على ما ترى من الفاقة والضيق .. وآلمن قلبه بمطالبتهن له بتوسعة الحال وأن يعاملهن بما تعامل به الملوك وأبناء الدنيا أزواجهم ، فأمره الله تعالى أن يتلو عليهن ما نزل في أمرهن من تخييرهن في فراقه وذلك قوله تعالى : « يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحاً جميلاً ، وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيما » .

قالوا : وبدأ ﷺ بعائشة — وهي أحبهن اليه — فقال لها : (إني ذاكر لك أمراً ما أحب أن تعجلي فيه حتى تستأمري أبويك) . قالت : ما هو؟

فتلا عليها الآية . قالت : أفيك أستأمر أبوي ؟ بل أختار الله تعالى ورسوله . ثم تتابعهن كلهن على ذلك فسماهن الله (أمهات المؤمنين) تعظيماً لحقهن وتأكيداً لحرمتهن وتفضيلاً لهن على سائر النساء »] .

ثم يمضي الرافعي في شرح هذه القصة التي تلقي على الإنسانية درساً بليغاً في الحياة الأسرية فيقول :

[« وكأن النبي ﷺ يلقي بهذه القصة درساً مستفيضاً في فلسفة الخيال وسوء أثره على المرأة في أنوثتها وعلى الرجل في رجولته وأن ذلك تعقيد في الشهوات يقابله تعقيد في الطبع وكذب في الحقيقة ينشأ عنه كذب في الخلق، وأنه صرف للمرأة إلى حياة الأحلام والأماني والطيش والبطر والفراغ

وتعويدها عادات تفسد عاطفتها وتضيف اليها التصنع فتضعف قوتها النفسية القائمة على إبداع الجمال من حقيقتها لا من مظهرها وتحقيق الفائدة من عملها لا من شكلها ، وكل محاسن المرأة هي خيال متخيل ولا حقيقة لشيء منها في الطبيعة ، وإنما حقيقتها في العين الناظرة اليها فلا تكون امرأة فاتنة إلا للمفتون بها لا غير ، ولو ردت الطبيعة على من يشبب بامرأة جميلة فيقول لها : هذه محاسنك وهذه فتنتك وهذا سحرك وهذا وهذا ، لقالت له الطبيعة : بل هذه كلها شهواتك أنت .

ولباب هذه القصة أنه – ﷺ – يجعل نفسه في الزواج المثل الشعبي الأكمل كما هو دأبه في كل صفاته الشريفة فهو يريد أن تكون زوجاته جميعاً كنساء فقراء المسلمين ليكون منهن المثل الأعلى للمرأة المؤمنة العاملة الشريفة التي تبرع البراعة كلها في الصبر والمجاهدة والاخلاص والعفة والصراحة والقناعة ، فلا تكون المرأة زينة تطلب زينة لتتم بها في الخيال ولكن انسانة تطلب كمالها الانساني لتتم به في الواقع .

وهذه الزينة التي تتصنع بها المرأة تكاد تكون صورة المكر والخداع والتعقد ، وكلما أسرفت في هذه أسرفت في تلك ، بل الزينة بوجه المرأة وجسمها سلاح من أسلحة المعاني : كالأظافر والمخالب والأنياب ، غير أن هذه لوحشية الطبيعة الحية المفترسة ، وتلك لوحشية الغريزة الحية التي تريد أن تفترس ولا تنكر المرأة نفسها أن الزينة على جسمها ثرثرة طويلة تقول وتقول وتقول ....

وانما يكون أساس الكمال الانساني في الانسان العامل المجاهد لا يحصر نفسه في شيء يسمى متاعاً أو زينة ولا يقدر نفسه بما يجمع لها أو بما يجمع حولها ولا يعتد ما يكون ذلك الا كالتعبير من عمل الشهوات عن الشهوات. ونبينا – ﷺ – هو الغاية في ذلك ، دخل عليه مرة (عمر بن الخطاب) فاذا هو على حصير وعليه إزاره وليس عليه غيره واذا الحصير قد أثر في

جنبه . قال عمر : وإذا أنا بقبضة من شعير نحو الصاع وإذا إهاب معلق فابتدرت عيناي فقال : ما يبكيك يا ابن الخطاب قال عمر : يانبي الله ومالي لا أبكي وهذا الحصير قد أثر في جنبك ، وهذه خزائنك لا أرى فيها إلا ما أرى وذاك كسرى وقيصر في الثمار والأنهار وأنت نبي الله وصفوته وهذه خزائنك ؟

وجاء مرة من سفر فدخل على ابنته فاطمة (رضى الله عنها) فرأى على بابها ستراً وفي يديها قلبين [1] من فضة فرجع ، فدخل عليها أبو رافع وهي تبكي فاخبرته برجوع أبيها ، فسأله في ذلك فقال : (ﷺ) من أجل الستر والسوارين .

فلما أخبرها أبو رافع هتكت الستر ونزعت السوارين فأرسلت بهما بلالا إلى النبي – ﷺ – وقالت : قد تصدقت به فضعه حيث ترى . فقال لبلال : اذهب فبعه وادفعه إلى أهل الصفة ، فباع القُلْبَيْن بدرهمين ونصف (نحوْ ثلاثة عشر قرشا) وتصدق به عليهم .

يا بنت النبي العظيم ! وأنت أيضاً لا يرضى لك أبوك حلية بدرهمين ونصف وإن في المسلمين فقراء لا يملكون مثلها .

أي رجل شعبي على الأرض كمحمد –ﷺ– فيه للأمة كلها غريزة الأب ، وفيه على كل أحواله اليقين الذي لا يتحول ، وفيه الطبيعة التامة ، التي يكون بها الحقيقة هو الحقيقي .

يا بنت النبي العظيم ، إن زينة بدرهمين ونصف لا تكون زينة في رأي الحق اذا أمكن أن تكون صدقة بدرهمين ونصف ، إن فيها حينئذ معنى غير معناها ، فيها حق النفس غالباً على حق الجماعة ، وفيها الايمان بالمنفعة حاكما على الايمان بالخير وفيها ما ليس بضروري قد جاء على ما هو الضروري

---

(١) القلب بالضم سوار من الفضة غير ملوي هو يقال له اليوم (غويشة) .

وفيها خطأ من الكمال إن صح في حساب الحلال والحرام لم يصح في حساب الثواب والرحمة .

تعالوا أيها الاشتراكيون فاعرفوا نبيكم الأعظم ، إن مذهبكم ما لم تحيه فضائل الاسلام وشرائعه ، إن مذهبكم لكالشجرة الذابلة تعلقون عليها الأثمار تشدونها بالخيط ... كل يوم تحلون وكل يوم تربطون ولا ثمرة في الطبيعة

* * *

وكأنه – ﷺ – يريد ليعلم الأمة بهـــذه القصة أن الجماعات لا تصلح بالقوانين والشرائع والأمر والنهي ، وأن الحـــاكم على الناس لا ينبغي أن يحكم الا اذا كان في نفسه وطبيعته يحس فتنة الدنيا احساس المتسلط للخاضع ليكون أول استقلاله استقلال داخله .

وتنتهي القصة في عبارة القرآن الكريم بتسمية زوجاته –ﷺ– (أمهات المؤمنين) بعـــد أن اخترن الله ورسوله والدار الآخرة – وعلمـــاء التفسير يقولون : إن الله تعالى كافأهن بهذه التسمية ، وليس ذلك بشيء ولا فيـــه كبير معنى ، وانما تشعر هذه التسمية بمعنى دقيق هو آية من آيات الاعجاز فان الزوجة الكاملة لا تكمل في الحياة ولا تكمل الحياة بها الا اذا كان وصفها مع رجلها كوصف الأم : ترى ابنها بالقلب ومعانيه لا بالغريزة وحظوطها ، فكل حياة حينئذ ممكنة السعادة لهذه الزوجة ، وكل شقاء محتمل بصبر وكل جهاد فيه لذته الطبيعية ، اذ يقوم البيت على الذي هو الحب الخـــالص لا المنفعة ، وتكون زينـــة الحياة وجود الحي نفسه لا وجود المادة ، وتبنى النفس على الوفاء الطبيعي كوفاء الأم ، وذلك خلق لا يعسر عليه في سبيل حقيقته أن يتغلب على الدنيا وزينتها .

وآخر ما نستخرج من القصة في درس النبوة هذه الحكمة :

بحسب المؤمن اذا دخل داره أن يجد حقيقة نفسه الطيبة وان لم يجـــد حقيقة كسرى ولا قيصر .. »] .

الباب السادس

الموت والحياة ... ومعنى القبر

الموت والحياة ... ومعنى القبر

تقـــديم :

الموت والحيـــاة قضيتا الأزل المحتوم على البشرية ، وقضاء الله « سبحانه » المبرم على بني آدم في هذا الكوكب ، اطراداً لسنة الله في كل كائن حيّ .

(تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير ، الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيُّكم أحسن عملاً وهو العزيز الغفور) . – سورة الملك –

فنأتي إلى حياتنا تلك بدون كسب منـــا ولا إرادة ولا مشورة ، ثم ننضو ثوبها عنا كذلك ، وبين المحيـا والممات قصة الصراع المحموم على المادة ، ومعنى الآلام والمعاناة والكبد الذي أشار الله اليه في محكم كتابه (لقد خلقنا الإنسان في كبد) أي في تعب ومشقة ...

وبين الحيـــاة والموت ابتلاء الإنسان وعجم عوده وصهر إيمانه تجاه قضية التوحيد والشرك والحق والباطل والخير والشر والفضيلة والرذيلة ...

(الم ، أحَسِبَ الناسُ أن يُترَكوا أن يقولوا آمنـّا وهم لا يُفتَنون ، ولقد فتنـّا الذين من قبلهم فليعلمنّ الله الذين صدقوا وليعلمنّ الكاذبين) .

– سورة العنكبوت –

والنفس البشرية بعيدة الغور متشعبة المنازع نحو الخير والشر ، وهي كذلك تتسم في طابع تكوينها الدقيق بما يشبه المعادن التي تختلف نفاسة ورداءة، فمنها النفس الذهبية والفضية والنحاسية ، ومنهـــا النفس الزجاجية والفخارية التي تتصدع لأوهى الأسباب .

وباختلاف هذه النفاسة والرداءة في تكوين النفس البشرية ، ولحفظ التوازن بين الحق والباطل ، يهب الله لمن يشاء من عبـــاده نفوساً مؤمنة لا يوهنها حدثان الزمان ، ولا تنال منها أرزاء الليالي ، ولا ترهب في الحق بطش سلطان جائر :
(ونفس وما سوّاها ، فألهمها فجورها وتقواها) . — سورة الشمس —

وحسب حياتنا الفانية هذه ما تحمل من اسمها ، انها الدنيا وحسب، والدنيا لمن يسبر غورها ويقف بنظره الثاقب على حقيقتها ... على ما فيها من جنون بالذهب وفتنة بالسلطة وهلكة بالحب وتحطيم بالشهوات ، لهي دار لهو ولعب ، وخداع وسراب .

وهي كذلك كما أشار اليها رسول الإسلام « الدنيا سجن المؤمن » وكما وصفها القائد الفاتح والصحابي الجليل عمرو بن العاص بأنها « جيفـــة لا يتقاتل عليها إلا الكلاب من البشر » .

وكل حي نزل بساحتها، ووطئت قدماه ثراها فهو مستهدف لأن يحين حَيْنه ويدنو أجله على غير ميعاد، فما التزم الموت قانوناً محدوداً يعلمه البشر ، فهو يقتحم على الطفولة الغضة مهدها وعلى الشباب اليافع عرينه ، وعلى الشيخوخة الفانية فراشها .

(كل نفس ذائقة الموت ، وإنما توفون أجوركم يوم القيامة ، فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز ، وما الحيـــاة الدنيا إلا متاع الغرور) من سورة آل عمران .

ومن مات فقد قامت قيامته ، ونفض يده من كل عرض دنياه إلا من ثلاث

كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ : « صدقة جارية يظل أثرها باقياً متجدداً ، أو علم نافع ما يفتأ جناه دانياً ، أو ولد صالح قد استقام أمره ، وتوطد إيمانه ، وطهرتْ نفسه ، فما ينفك لأبيه داعياً مستغفراً » ..

(فما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا ، وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا ، وعلى ربهم يتوكلون) .

وبين الدنيا والآخرة ، هذا البرزخ القائم بيننا يذكرنا بمن مضوا ، وينبهنا إلى غدنا المحتوم وللرافعي أديب الفكر الإسلامي الحي نظرات في الموت والحياة ينبض بها قلبه المؤمن ، وتفيض بمعانيها قريحته الملهمة ،فهو يتخذ من الحياة طريقاً إلى ما وراء الحياة ، وينقلك مع أدبه في رحلة نفسية تعلو عن مادتها ، وترتفع بالروح عن ترابها ، ففي كتابه « المساكين » يصور هذه الفانية فيقول :

« والحياة خداع وغرور وزيغ وخطأ ، وعمل وعبث ، ولهو ولعب ، ومهزلة وسخرية ، والناس كالأرقام تخط مع هذا التراب ، ثم يقال للعاصفة : « اجمعي واطرحي وحلي المسألة ...

وأين كل ما صبته الشمس والكواكب من نيرانها ، وأخرجته فصول الأرض من وشيها وألوانها ، وما هتفت به الطير من أغاريدها وألحانها ، وما تلاطمت به الدنيا من أمواج إنسانها ؟

وأين ما صح وما فسد ، وما صدق أو كذب ، وما ضر أوْ نفع ، وما علا أو نزل ؟ في كل لحظة تمتلىء الدنيا لتفرغ ، ثم تفرغ لتمتلىء ، وماضيها ومستقبلها مطرقتان يمر بينهما كل موجود لتحطيمه » .

وإذا كانت الدنيا دار ابتلاء وتمحيص ، فعلى قدْر إيمان المرء يكون مستهدفاً لسهامها ، وألوان مرها وشكول لأوائها ، وفي هذا المعنى يقول الرافعي في كتاب المساكين ص ٥٧ :

[«يا إلهي، إنما يحبك المؤمنون، ويكابدون في رضاك على مقدار منك لا منهم، فأنت تقذف قلب المؤمن بضرورات كشعل البراكين، وتضرب روحه من مصائبه بسلسلة جبال مفتولة وتتركه في الأرض يشعر كأنما خر عليه سقف العالم .

شبه خلفها بصائرها ، وظلمات تنتهي بعد حين إلى مد النهار الأكبر ، ومن الضرورات والمصائب والآلام يتخلق الجو الحساس الذي يبسط فيه الانسان جناحي روحه ، ويسمو بها على التراب والماد »].

الايمان وأحداث الحياة

ويذكرنا الرافعي – رضوان الله عليه – والذكرى تنفع المؤمنين – بمقومات الصمود إزاء حدثان الزمان ، ويزودنا بالزاد الذي يهنأ ويمرأ في المرحلة الشاقة لهذه الحياة ، حتى لا تهدم أرواحنا صروفها ، ولا توهن أفئدتنا أكدارها ، فيقول الرافعي « ص ٥٥ – مساكين » :

[« يريد الله أن نخلق لأنفسنا معنى من السمع والبصر ليس في أذن ولا عين، وأن نزيد في مجموعة أعصابنا الواهنة عصباً عقلياً يراه ويسمعه ويدركه ويؤمن به، فالإيمان قوة جبارة لا تجمع إلا من رد كل أطراف النفس المنتشرة إلى عقدتها الروحية ، وحبسها أكثر حواسها في حس واحد عنيف مؤلم ، ووضع المناعم المضمون بها في ذلك المعنى المفتوح المتهدم ، الذي لا يمسك شيئاً ، وهو الزهد ، وحصر الآلام الصامتة في ذلك المعنى المطبق المتحجر الذي لا يفلت شيئاً ، وهو الصبر ورد الأخلاق كلها إلى ذلك العنصر الذي يضيف معنى الحديد إلى معنى اللحم والدم ، وهو الإرادة ، وبعد ذلك كله يضع كل شيء إنساني في ضوء من أضواء الكلمة المتألهة المسماة بالفضيلة »] .

خــير زاد

تقـــديم :

وأعمال الحيـــاة الدنيا كثيرة ، والإنسان الفطن فيها من يزاوج بين أعمال الدنيا وأعمال الآخرة امتثالاً للحديث الشريف : « إعمل لدنيــاك كأنك تعيش أبداً ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً » . فيعطي الدنيا من فكره وجهده ما يحفظ عليه رمقه ويقيم أوده وينهض بأسباب المعاش فيها بغير طغيان على أعمال الآخرة الباقية ، ففيها الخلود الدائم، والنعيم المقيم، وما الحياة الدنيا إزاء الحياة الآخرة إلا متاع زائل ، ومرور عابر ، وسحابة صيف ، وفي هــذا المعنى يقول الرافعي :

[« الحياة مدة عمل، وكأن هذه الدنيا بكل ما فيها من المتناقضات إن هي إلا مصنع يسوغ كل إنسان جانباً منه ، ثم يقال له : هــذه هي الإرادة ، فاصنع ما شئت ، ففضيلتك أو رذيلتك »] .

ثم يستطرد الرافعي في بيان قيمة العمل في هذه الدنيا فيقول :

[« أعمالنا في الحياة هي وحدها الحياة ، لا أعمارنا ولا حظوظنا ، ولا قيمة للمال أو الجاه أو العافية أو هي معاً إذا سلب صاحبها الأمن والقرار .. والأمن

في الدنيا من لم تكن وراءه جريمة لا تزال تجري وراءه...والسعيد في الآخرة مَن لم تكن له جريمة تطارده وهو في السموات ...

كيف يمكن أن تخدع الآلة صاحبها وفيها العداد ، ما تتحرك من حركة إلا أشعرته فعدّها ؟

وكيف يمكن أن يكذب الإنسان ربه وفيه القلب ، مـا يعمل من عمل إلا أشعره فعدّه ؟ »] .

من معاني القبر

تقـــديم :

القبر : هذا المرقد الذي اليه المنتهى من رحلة الحياة المجهدة في ضريحه نلقي عصا التسيار بعد سفرنا الشاق على ظهرها ، وعلى ثراه تكون رقدة للمرء ما لها من سحر نطوي بعدها الحديث عن الصديق ، وندفن الخبر عن العدو ، ويقطع حبل اللقاء بيننا وبين الولد والأمل ، وعند لحده تنتهي الحيـــاة بكل حقائقها وأوهامها،أبلغ واعظ في صمته وأخوف شيء في رهبته، من عاش معه على الميعاد المضروب واللقاء المنتظر ، هانت عليه الدنيا وعاشها كعابر سبيل يتحنث .

والقبر كما وصفه رسول الإسلام ﷺ : « إما روضة من رياض الجنة ، وإما حفرة من حفر النار » وبين ظلامه الحالك يجتاز الميت الحي أول تجربة قاسية لامتحان مرير،تتمخض نتائجه عن حظ عظيم في جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ، أو خسران مبين بين لظى نار ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم .

وللأستاذ الرافعي — نضر الله قبره بروح الجنة — في وحي القبور وفلسفتها أدب واعظ تنبض سطوره بفيض غزير من شؤون العين وشجون النفس،وتفيض معانيه بالحكمة الصادقة وتتسم أفكاره بالترهيب والترغيب ، فأنت تارة مع أدبه من معاني القبر في خوف هالع من ظلمته ووحشته وأنت مرة أخرى مع طمأنينة

الايمان المنبعثة من تيار أدبه المؤمن، فتحس معاني الايناس في هـذا البرزخ الصامت.

وكان الرافعي من دقة الاحساس ونفاذ البصيرة في القبر ومعانيه بحيث يشعرك أنه لم يزر القبور حياً إلا على رغم منه في مناسبات تدعو لذلك، لما كان يلاقيه من وخز مؤلم داخل جهازه العصبي عند زيارتها.

ومن وداعه الأخير لشقيقه «محمد كامل بك الرافعي» كان وحي التراب المتكلم أمام التراب الصامت في كتاب «المساكين».

ومن وداعه الأخير لعروس ابنه الدكتور «سامي الرافعي» كان وحي مقاليه: «عروس تزف إلى قبرها» و «من وحي القبور» في كتاب وحي القلم.

يقول الرافعي في معنى القبر، في كتاب المساكين ص ٥٩ :

[« فتحنا القبر، وصرخنا للميت العزيز، لم أقل أنه مات، بل قلت انه موته قد مات، كأن الحي على هذه الأرض هو القبر الانساني لا الجسم الانساني فإنك لتجد قبوراً من ألف سنة، ولا تجد إنساناً في بعض عمرها، أما ترى هموم الدنيا وأحزانها كيف لا يخلو أحد منها ؟

وكيف تخرج من النعيم كما تخرج من البؤس ؟ ما أحسبها إلا صوراً من ظلمة القبر يجيء القبر فيها بعد حين إلى ميته الذي لم يمت.

مَن يهرب من شيء تركه وراءه إلا القبر ؟ فما يهرب أحد منه إلا وجـــده أمامه، هو أبداً ينظر غير متململ، وأنت أبداً متقـدم اليه غير متراجع ... وليس في السماء عنوان لما لا يتغير إلا اسم الله، وليس في الأرض عنوان لما لا يتغير إلا اسم القبر ...

وأينما يذهب الإنسان تلقته أسئلة كثيرة: ما اسمك ؟ ما صناعتك ؟ كم عمرك؟ كيف حالك ؟ ماذا تملك ؟ ما مذهبك ؟ ما دينك ؟ ما رأيك ؟...

ثم يبطل هذا كله عند القبر كما تبطل اللغات البشرية كلها في الفم الأخرس... وهناك يتحرك اللسان الأزلي بسؤال واحد للانسان : ما أعمالك ؟ »]

النظرة الأخيرة

تقـــديم :

وأمام فتحة القبر وقف الرافعي ليلقي نظرة وداع أخيرة على شقيقه الراحل، وما أقساها من لحظة في تاريخ الإنسان .. وما أمرّها من نظرة تنخلع لها القلوب متهاوية بين الضلوع لولا ما يمسكها من معاني الصبر والإيمان .

ومن وحي هذه النظرة بما تترجم من معاني الأشجان ، نقل لنـــا الرافعي تجربة إنسانية خالدة فيّاضة بالاحساسات والانفعالات ، فيهـــا أنـّة المكلوم وصرخة الثكلى وزفرة اليتيم، وحكمة الحكيم وعظة البليـغ ، وفيها معاني الخلود للأديب الموهوب .

يقول الرافعي – يرحمه الله – في هذا المعنى ، ص ٥٩ من كتاب المساكين :

[« فتحنا القبر وأنزلنـــا الميت العزيز الذي شفي من مرض الحيـــاة ، ووقفت هناك .. بل وقف التراب المتكلم يعقل عن التراب الصامت ، ويعرف منه أن العمر – على مـــا يمتد – محدود بلحظة ، وأن القوة – على ما تبلغ – محدودة بخمود، وأن الغايات – على ما تتسع، محدودة بانقطاع ، وحتى الغارات الخمس محدودة بقبر .

يا عجباً !.. القبور مأهولة بملء الدنيا ، وليس فيهـــا أحد .. أية ذرة من

التراب هي التي كانت نعمة ورغداً ، وأيتها كانت بؤساً وشقاء ؟ وأيتها كانت حباً ورحمة ، وأيتها كانت بغضاً وموجدة ؟

سألت القبر : أين المال والمتاع ؟ وأين الجمال والسحر ؟ وأين الصحة والقوة ؟ وأين المرض والضعف ؟ وأين القدرة والجبروت ؟ وأين الخنوع والذلة ؟ قال : كل هذه صور فكرية لا تجيء إلى هنا ، لأنها لا تؤخذ من هنا ، فلو أنهم أخذوا هدوء القبر لدنياهم وسلامته لنزاعهم ، وسكونه لتعبهم ، لسخروا الموت فيما سخروه من نواميس الكون »] .

عند نزول القبر
تتمثل المساواة المطلقة بين الناس

تقـــديم :

فلتذهب الدنيا كل مذهب في الفروق الاجتماعية بين أهلها من ملوك وسوقة وأثرياء وفقراء وليختلف الناس كذلك في الفروق الفردية في حياتهم ما بين أقوياء وضعفاء ومن طبقت شهرتهم الآفاق ومن عدوا من سقط المتاع ، فعند دخولهم (القبر) تذهب كل هــذه المعاني كما ذهبت حياتهم بما كان يكتنفها من ألقاب الحياة ورتبها وحظوظها وما تواضع عليه الأحياء في دنياهم .

ويصور لنا الرافعي هذا المعنى بقوله :

[« واهاً لك أيها القبر لا تزال تقول لكل إنسان تعال ولا تبرح كل الطرق تفض اليك فلا يقطع بأحد دونك ولا يرجع عن طريق راجع ، وعندك وحدك المساواة فما أنزلوا قط فيك ملكاً عظامه من ذهب ولا بطلاً عضلاته من حديد ولا أميراً جلده من ديباج ولا وزيراً وجهه من حجر ولا غنياً جوفه خزانة ولا فقيراً في أحشائه مخلاة ،ألا ويحك أيها القبر لم لا تأتي إلا في الآخر ولم تضع حدود معانيك بين الأحياء بعضهم مع بعض حتى يقوم بين الضعف والقوة حد المساواة وبين النفوس والشهوات حدّ التقوى وبين الحرام والحلال حد الله »] .

أحبائنا الموتى ولوعة الأسى :

وكما يضع القبر حدود معـــاينة في المساواة المطلقة بين الناس على اختلاف أجناسهم وأقدارهم عند هبوطهم ثراه... كذلك يضع الموت معاني المساواة بين الأحياء الذين هوى من بينهم ميتهم العزيز ، فالاحساس بالألم الدفين تجب به قلوب الجميع على حد سواء وبرحاء الكرب تنتزي به أكبادهم ...

ويصور الرافعي هــذه الأحاسيس المنطوية على أحزانها بقوله — ص ٦٣ — المساكين :

[« ولعل الموت كما يجرد الحي من روحه ينتزع من أهله شهوات أرواحهم فيميتهم مدة من الزمن في القلب وفي العين وفي الفكر وبذلك يرد جميع المحزونين إلى المساواة ، فأهل كل ميت وإن علا أهل كل ميت وإن نزل وتموت بالموت بالفروق الإنسانية في المال والحياة والقوة والجمال حتى لا يبقى إلا الدمعة واللوعة والحسرة والزفرة وهذه هي أملاك الانسانية المسكينة .

يا هم من يحس ويعرف ويرى كيف يموت العزيز عليه ، وكيف يتحول من يحبه إلى ذكرى ، وأن ما يعمل في القبر يعمل قريب منه في القبر »] .

القـــبر والموعظة

تقـــديم :

ويسترسل الرافعي في إبراز معاني القبر وفلسفته وأنه المعنى المتجسد للموت وما وراءه وأنه قائم بيننا يذكرنا دائماً بالغد القريب لكل حيّ ، ومن ثم كانت زيارة القبور للذكرى الحيّة والموعظة المؤثرة سنة نبينا وخاتم الرسل محمـــد صلوات الله عليه وسلامه ، عندما استأذن صحابته وهو في طريقه من المدينـة إلى مكة في سني حيـــاته الأخيرة ووقف على قبر أمه (بالأبواء) وقد شدّته الذكرى من وراء السنين الطويلة وفـاءً لأمه الحبيب ... ولما استبطأه الصحابة رضوان الله عليهم ، لحقوا به ، فإذا دمعه الغزير صلوات الله عليه قد بلل التربة ، وإذا وفاؤه قد صار مثلاً يُحتذى عبر القرون والتاريخ ، وفي هــذا المعنى قوله ﷺ : « كنت قد نهيتكم عن زيارة القبور ، ألا فزوروها فإنها تذكركم بالموت ».

ويصوّر الرافعي هذا بقوله ص ١٥٧ – وحي القلم – جزء ثان :

[« فما القبر إلا بناء قائم لفكرة النهاية والانقطاع ، وهو في الطرف الآخر رد على البيت الذي هو بناء قائم لفكرة البدء والاستمرار ، وبين الطرفين المعبد وهو بناء لفكرة الضمير الذي يحيا في البيت وفي الضمير ، فهو على الحياة والموت كالقاضي بين خصمين يصلح بينهما صلحاً أو يقضي ...

القبر كلمة الصدق مبنية متجسمة ، فكل ما حولها يتكذب ويتأول وليس فيها هي إلا معناها لا يدخله كذب ولا يعتريه تأويل،وإذا ماتت في الأحياء كلمة الموت من غرور أو باطل أو غفلة أو أثرة بقي القبر مذكراً بالكلمة شارحاً لها بأظهر معانيها داعياً إلى الاعتبار بمدلولها ميتاً .

القبر على الأرض كلمة مكتوبة في الأرض إلى آخر الدنيا معناها أن الإنسان حر في قانون نهايته ، فلينظر كيف ينتهي .

وإذا كان الأمر للنهاية فقد وجب أن تبطل من الحياة نهايات كثيرة فلا يترك الشرك يمضي إلى نهايته بل يحسم في بدئه ويقتل في أول أنفاسه .

وكذلك الشأن في كل ما لا يحسن أن يبدأ ، فإنه لا يجوز أن يمتد كالعداوة والبغضاء والبخل والأثرة والكبرياء والغرور والخداع والكذب وما شابك هذه أو شابهها ، فإنها كلها انبعاث من الوجدان الحيواني وانفجار من طبيعته، ويجب أن يكون لكل منها في الإرادة قبر كي نسلم للنفس الطيبة إنسانيتها إلى النهاية .



يا من لهم في القبور أموات : إن رؤية القبر زيادة في الشعور بقيمة الحياة ، فيجب أن يكون معنى القبر من معاني السلام العقلي في هذه الدنيا .

القبر فم ينادي أسرعوا أسرعوا ، فهي مدة لو صرفت كلها في الخير ما وفت به فكيف يضيع فيها ضياع في الشر أو الإثم ؟

هنا قبر وهناك قبر وهنالك القبر أيضاً ، فليس ينظر في هـذا عاقل إلا كان نظره كأنه حكم محكمة على هذه الحياة ، فكيف تبقى و كيف تكون ؟...

في القبر معنى إلغاء الزمان، فمن يفهم هذا استطاع أن ينتصر على أيامه وأن يسقط منها أوقات الشر والإثم وأن يميت في نفسه خواطر السوء ، فمن معـاني القبر ينشأ للارادة عقلها القوي الثابت ، وكل الأيام المكروهة لا تجد لهـا مكاناً في زمن هذا العقل كما لا يجد الليل محلاً في ساعات الشمس .

ثلاثة أرواح لا تصلح روح الإنسان في الأرض إلا بها :

روح الطبيعة في جمالها وروح المعبد في طهارتها وروح القبر في موعظته»].

يرحم الله « صادقاً الرافعي » ويجزيه الجزاء الأوفى على ما قدّم للاسلام من أدب خالد حيّ ، وجعل قبره روضة من رياض الجنة ، ومنحنا العافية في الدنيا وأحسن لنا العاقبة في الآخرة ووقانا عذاب القبر ورهبته ، إنه أرحم الراحمين .

(كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه تُرجعون) .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحابته ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين.

رمضان المكرم ١٣٩٤ هـ

عبد الستار علي السطوحي
مدرسة الشاطىء الثانوية بجدة
المملكة العربية السعودية

الفهرس